التفكر الزائد

تَأليف
محمّد جعفر مصفا

ترجمة
المؤسّسة الإسلاميّة للترجمة

مقدّمة

في هذا الكتاب تمّ البحث عن القيم الإعـتباريّة بـعنوان قـيم كـاذبة و مخرّبة.

بعض القرّاء الأعزّاء بعد أن تصوّروا أنّنا ننفي جميع القيم الإجـتماعيّة تسائلوا أنّه ماذا يبقىٰ مـن المـعايير الّـتي تكـون أسـاساً لأخـلاق الفـرد وارتباطه مع المجتمع وما هي جدوىٰ القيم الدينيّة؟

هذه الشبهة هي وليدة الخلط بين القيم الفطريّة والواقـعيّة وبـين القـيم الاعتباريّة وعدم التفكيك بين حقيقتها.

القيم الفطريّة هي الحالات والصّفات والكيفيّات التي خلقها الله تـعالى في ذات الإنسان وهـي الرابـطة الأخـلاقيّة المـعنويّة السّـالمة والأصـلية والمفيدة والتي تكون منشأً لجميع الصـفات الفـطريّة فـي الإسـلام. وفـي مقابل ذلك هناك ما يشبه الصّفات على شكل قيم اعتباريّة تمّ القائها في ذهن الفرد وتحميلها علىٰ الانسان ولكنّها ليست بصفة أصلاً، فأنت عند ما تقوم بعمل معينٍ فإنّ الأب والأُم وأيّ شخص آخر يقول لك بالنظر الى هذا العمل انّك انسان شجاع و محترم و عزيز أو على عكس يقول بأنّك إنسان جـبان وحقير وأمثال ذلك، فكيف يمكن لهذه العناوين الإعتباريّة أن تـجعل فـي نفس الإنسان صفات واقعيّة ومتضادّة في الغالب، فالصّفة الأصلية والواقعية

هي الكيفيّة التي جعلها الله في ذات الإنسان وفطرته.

ولهذا السّبب نجد أنّ جميع المذاهب المهمّة ومن جملتها الإسلام تؤكّد على الفطرة الإنسانيّة كما يقول الشهيد المطهّري في تفسيره لجملة (هدىً للمتّقين): أنّ المراد بالمتّقين هم الأشخاص الّذين بقوا على فطرتهم الأوليّة الطاهرة والفاسقين هم الأشخاص الّذين بقوا على فطرتهم الأوليّة الطاهرة والفاسقين هم الّذين خرجوا عن مسير الفطرة الإنسانيّة الأصيلة، وهكذا نجد أن القرآن الكريم يرىٰ أنّ كل انسان يأتي إلى الدنيا طاهراً مطهّراً أي أنّه مجهّز بالتّقوى الذاتيه: ولكن يمكن أن يخرج من مسير هذه الفطره الإنسانية بالتّدريج بسبب التلوّث بالمحيط وإلقاءاته إلى درجة أنّه يسمخ كلّياً.

ونحن نتسائل: هل أنّ هذه المجموعة من العناوين والصّفات الإعتباريّة الّتي تشكّل منها شخصيّة الإنسان الإعتباريّة (الأنا) أو (الذّات الفرديّة) هل أنّها مبتنية على تلك الكيفيّات الفطريّة الأصيلة، أو أنّها ظاهرة عرضيّة مغايرة للفطرة..

إنّ أهم علامة مميّزه للحالات والصّفات الفطريّة هي انّها موجودة في الإنسان واقعاً، ولكنّ الإنسان في غفلة عنها، فعلى هذا يكون الذّهن مركزاً للعناوين الإعتباريّة للأنا، وحينئذٍ تكون القيم الإعتبارية التي تلقى في ذهن الفرد وتشكل بمجموعها «الأنا» تكون متباينة ومختلفة مع الحالات الفطريّة ولا تكون وليدة بها.

ويتساءل البعض بأنّ العفاف أو رعاية الحجاب له قيمة وصفة إجتماعية، فلو اننا أنكرنا هذه الصّفة ألا يؤدى ذلك الى عدم اهتمامنا بالنسبة إلى العفاف أو رعاية الحجاب؟ وفي الجواب نقول: إنّ القيم والصّفات التي تكون في خدمة الفطرة الأصلية في الانسان هي غير هذه

العناوين الإعتبارية الّتي تشكّل منها «الأنا» فإنّ القيم الّتي تسير في مسار الفطرة الأصيلة فإنّ لها حكمتها وفائدتها في نفسها، أمّاالصّفات والقيم الإعتبارية فإنّ لها حكم اللون والصبغة الظاهرة للأنا والأنانيّة، ومن أجل ايضاح هذا المعنى نأخذ بنظر الإعتبار صفة العفاف أو الحجاب للمرأة، فمن البديهي أنّ الزّواج ناموس وقانون طبيعى وسنّة أصيلة في الحياة الإجتماعية التي تتطلّبها الضرورة الفطريّة في العلاقة بين الناس وحتى المجتمعات الّتي تنتشر فيها ظاهرة الفحشاء والإنحطاط الأخلاقي والجنسي فإنّها لا تنكر قيمة وأهميّة الزواج بل تعتبر الزّواج أمرا ضرورياً وفطريّاً وطبيعيّاً للإنسان.

وحينئذٍ لما كان الزّواج أمراً فطريّاً وتقتضيه الضرورة الفطريّة الطبيعيّة للإنسان فإنّه من أجل حفظه يجب الإجتناب عن كل تظاهر وعمل وسلوك على خلافه والّذي يؤدّى إلى إضعافه وهدم بناء الأُسرة في المجتمع، وَ من الواضح أنّ التبرّج وعدم رعاية الحجاب لها هذا الحكم السّلبي والمخرّب في المجتمع.

نحن نقول أنّه عند ما ندرك الحكمة والغاية من هذا المطلب وإنّه أمرٌ فطريٌ وواقعيّ فإنّ مثل هذا الإدراك القوي والعميق لا يمكن أن يتزلزل في مختلف الظّروف وتحت جميع العوامل الداخليّة والخارجيّة، ولكنّه إذا كان الحجاب ورعاية العفّة مبتنٍ على صفة عنوانيّة وقيمة اعتباريّة فإنه سوف يَزول بمجرّد تغيير هذه القيمة الاعتبارية في المجتمع أو مجتمع آخر، ففي المجتمعات الّتي تبتني الأخلاق الإنسانيّة فيها على هذه القيم الإعتباريّه لا على أساس الفطرة فإنّنا لا نجد هناك أثراً لرعاية العفة والحجاب.

وأحد الدلائل التي ذكر فيها القرآن بعنوان أنّه (كتاب محكم) أو (كتاب مبين) هو أنّ أحكامه مبتنية على الفطرة وأنّها المطلوب الواقعي للإنسان لا القيم الإعتباريّة والنظرات الذهنيّة، والسّبب في أنّ حلاله وحرامه حلال وحرام أبدي ولجميع المجتمعات البشريّة هو أنّ احكامه مبتنية على الواقعيات والحقائق الفطريّة التى لا تتغيّر، فالحلال والحرام أو الحق والباطل في الإسلام تبتني على الواقعيّات والحقائق الفطريّة، والحقيقة دائماً حقيقة بمرور الزمان وبمختلف الظروف والأماكن، أمّا الأخلاق والقيم الإعتباريّة فانها مبتنية على المصلحة والمنافع الموضعيّة المتغيّرة بتغيّر الأوضاع والأحوال والزّمان والمكان، فلهذا تكون فاقدة لمعيارٍ أساس ومحكم.

والسبب في أنّ الشريعة تشدّد في الإلتزام بهذه القيم السّماوية لأنّها مبتنية على الفطرة (لا كما يتصوّر البعض من أنّها قساوة وجمود) وليست مبتنية على النظريّات المتغيّره والقيم الإعتباريّة في المجتمع، وايضاً ندرك السّبب في أنّ القيم والأخلاق في المجتمعات المتحللة وغير الملتزمة دينياً ضعيفة ومتهرّئه وليست عميقة الجذور في قلوب الناس هي أنّها تفتقد إلى الأساس الفطري والمبنىٰ الواقعي، والمثال علىٰ ذلك هو قضيّة الزّواج، فالإنسان الذي يحترم الزّواج ويعترف بأنّه أصل في الحياة فلماذا لا يلتزم به بصورة جديّة؟ ولماذا يتهرّب منه ولا يقيم له إعتباراً؟

محمد جعفر مصفّا

الفصل الأوّل
نوعٌ من التفكّر

لقد اعتاد ذهننا إلى النظر الى الحوادث والظواهر الاجتماعيّة في الحياة من جهتين ونظريّتين مختلفتين، وأقام معها رابطتين أيضاً:

أحدها: النظر الواقعى، والآخر: النظر الذهني.

عندما أراك تسير بشكل خاص وتحرّك يدك بسرعة أو ببطىء وتحرّك أقدامك بسرعة، أو تسير على مهل، تمشي منحنياً أو مستقيماً، ففي هذه النظرة أنا أنظر اليك نظرة واقعيّة تارةً من دون أيّ تعبير وتفسير خاص، والكنّي لا أكتفي بهذه النظرة بل أنظر اليك بنظرة أُخرى أيضاً ومن جهة وجانب آخر، وهذه النظرة لا ترتبط بأصل مشيك كظاهرة واقعيّة في الخارج، بل هي تعبير وتفسير ذهني لسلوكك، مثلاً أقول إنّ هذا النّمط من السير مؤدّب ومحترم أو غير محترم، متواضع أو متكبّر، عزيز أو ذليل، فنحن نرتبط بجميع الحوادث في الحياة بهذا الشكل، فأنا أنظر إلىٰ هذا الأثاث أو المبليّات بنظرتين: أحدها: أنّها وسيلة للجلوس، والأُخرىٰ: أنّها وسيلة للتّفاخر. أو أنّ زوجتك لم تهيّىء لك وجبة الغذاء وأنت تشعر بالجوع، فإنّ الجوع وعدم تهيئة الغذاء هي قضيّة واقعيّة وحقيقة، ولكنّك تنظر إلى عدم تهيئة الغذاء بنظرة أُخرىٰ ومن جهة ثانية لا ترتبط بتلك الواقعيّة والحقيقة، بل هي تعبير ذهنك من هذه الحقيقة، مثلاً تتصوّر أنّ عدم تهيئة الغذاء كان بسبب عدم إهتمام الزّوجه بك وعدم احترامها لك، أو أنّك تفتقد إلى

الرجوليّة أو الجاذبيّة التي أدّت بالمرأة إلى أنّها تتهاون ولا تهتم بك وأمثال ذلك من التعبيرات والتفسيرات.

هذا النّظر الذهني أو التفسيري والتأويلي ليس له جنبة ذاتيّة وطبيعيّة في الإنسان بل هو من فعاليّة الذهن الزائدة وغير الضروريّة الّتي تمّ تحميلها وإلقائها في الذهن، وكما سوف نرى بأنّ الكثير من المشاكل الوخيمة تنشأ من هذه الظاهرة الذهنيّة.

وفي هذه الأبحاث سوف نرىٰ كيف أنّ هذه الظاهرة المخرّبة تمّ تحميلها على ذهن الإنسان؟ وما هي خصوصيّاتها وحقيقتها؟ وكيف أنّها هي السّبب لجميع الآلام ومصائب الإنسان؟ وكيف نستطيع أن نمنع الذهن من هذه الحركات الغير الضروريّة والمخرّبة؟

ومن أجل إدراك أوضح لهذه المسائل والموضوعات لا بدّ أن نترك البحث في الكليّات والفرضيّات المفصّلة لنلقي نظرة على روابطنا مع الآخرين على أساس أنّها ظاهرة واقعيّة، ونظر بالاخص الى كيفيّة أرتباطنا مع الأطفال لأنّ كيفيّة إرتباطنا مع أطفالنا هي بنفسها الكيفيّة التي تربط الآخرين بنا أو نظرة الآخرين بالنسبة لنا عندما كنا أطفالاً، وبهذا الشكل نستطيع أن نبحث الأمر بدّقة وبشكل ملموس ونبدأ من النقطة التي يمكننا معرفتها ودركها بصورة جيّدة.

الآن نلاحظ الأطفال مشغولين باللّعب في الحديقة، وفي ضمن اللّعب لنفترض أنّه حدث نزاع بينهم وشجار، وبما أنّ أذهاننا أعتادت على التعبير وتفسير الأحداث والظّواهر فإنّنا نقول للطّفل الضّارب (أنّه طفل شجاع) أو (أنّه طفل وحشي وغير مؤدّب) ونقول للطفل المضروب أيضاً (أنه طفل جبان) وأمثال ذلك.

وعند ما نرى أنّ احد الأطفال يعطي أدوات لعبه إلى آخر أو يعطيه قسماً من حلويّاته فاننا نقول عنه (أنّه طفل كريم) أو أنّه سفيه وأحمق حيث أنّه يعطي للآخرين بدون سبب وأمثال ذلك من التعبيرات الكثيرة التى نعرفها ونمارسها دائماً بشكل صريح وغير صريح وبواسطة الألفاظ والتصرّفات والسّلوكيّات والحركات المختلفة وحتّى عن طريق النظرة او السكوت نقوم بتفسير سلوكيات الآخرين وأعمالهم.

والآن نسير خطوة فخطوة للأمام ونرى نتيجة هذه التّعبيرات والتّفسيرات، فبعد أن يدرك الطفل معنى هذا التفسير والتّأويل لأفعاله فماذا سيدور في ذهنه من إنفعالات وتصوّرات؟ وكيف سيرى الحياة وأشكال الإرتباط مع الآخرين؟

من الواضح أنّ أول أستنباط للطفل هو أنّ الحياة والإرتباط مع الآخرين لا تقوم على الواقعيّات فقط، بل أنّ كلّ أمر واقعي وكلّ حركة وكلّ سلوك وظاهرة وحدث له معنىً خاص ملازم له كالظّل وصاحبه دائماً، فيفهم أنّ ضرب الآخرين أو أن يكون مضروباً لا يعطيه معنى الضّرب فقط بل أنّ له معنىً آخر ملازماً له، وهكذا في تقديم الحلويّات لطفلٍ آخر، فإنّه يعطى معنى (الكرم والسخاء) وهكذا يبدأ ذهن الطفل بإقامة هذه الرّوابط في الحياة بهذه الكيفيّة (من خلال تعبيرات وتفسيرات للأفعال) ويعتاد الذهن على عدم ادراك الشيء الخالص وأن لا يرىٰ الفعل مجرّداً من كل صفة كحقيقة واقعة، بل أنّه بمجرّد أن يرىٰ عملاً معيّناً فإنّ ذهنه يقفز الى المعنى الخاص والملازم له، والعمل المجرّد عن الصّفة يعتبروه ناقصاً، وكأنّ هذا المعنى الثاني والتفسير جزء لا يتجزّأ من الظواهر والأعمال والوقائع الخارجيّة، وهذا هو السبب في أنّنا فى المستقبل نواجه

صعوبة شديدة في التخلّص من السلسلة التي تؤسرنا، هذه السّلسة الذهنية الّتي وقعنا في أسرها، لأننا منذ الطّفولة تعوّدنا عليها حيث تم إلقاء هذه المعاني في أذهاننا من الطّفولة على أساس أنّها والعمل شيٌ واحد ولا تنفصل عنه، ولذلك لا يستطيع الإنسان أن ينظر إلى الظّواهر والأعمال بشكل خالص وكما يجب أن يكون واقعاً، بل أنّه يوصف كل عمل بصفة معيّنة وتفسير معيّن، وبالرّغم من أنّ هذا المعنى والتفسير هو مجرّد تفسير ذهني ولكنّ الطفل بما أنّه يتلقّىٰ هذا الامر على أساس أنّه شيء واقعي وحقيقي فإنّه سوف يواجه صعوبة في التفكيك بينهما.

وتدريجيّاً بعد أن يتعرّف الطفل على هذه التعبيرات والتفسيرات يلتفت إلى حقيقة أُخرىٰ أيضاً، وهي أنّ جميع هذه المعاني والصفات والتفسيرات بالرّغم من أنّها مختلطة بألفاظ وعناوين كثيرة، فانها تدور حول محور واحد، وهو (القيم) و كلّما تنعرّف الطفل أكثر على الحياة وأقام روابط وعلاقات أكثر تتضح له هذه الحقيقة بصورة أوضح، وهي أنّ الهدف من الحياة والغاية من حياة الأفراد جميعاً وهدفهم في روابطهم وتفاعلهم فيما بينهم هو كسب (القيمة) وتجنّب (غير القيمة وضد المُثُل الأخلاقيّة).

والإستنباط المنطقي الآخر عن كيفيّة الحياة والإرتباط مع الاخرين الذي يتولّد في ذهن الطّفل هو أنّ هذا التفسير والتعبير للأطفال والحوادث بأنّه ذا قيمة أو غير ذا قيمة يكون أهم من نفس الواقعيّات، فعندما يتحمّل الطّفل ضربة من الآخر ويشعر بذلك بألم جسمي وفيزيكي فأنا وانت لا نلتفت إلى نفس الوجع والألم الّذي حلّ بالطّفل ولا نقيم له أيّ إعتبار، بل نهتمّ بالتفسير والمعنى الذي يلازم هذا الضرب لو حلّ بنا، وننقل هذا التصوّر إلى الطفل، وبذلك يدرك الطفل جيّداً مجموعة من الحالات والتفاعلات

والسّلوكيّات بين الاشخاص من خلال عبارة (أنّه طفل جبان او ذليل) وأنّ هذا العنوان أهم من نفس الوجع الحاصل من الضّرب، أو أنّ نفس إعطاء الحلوى للطّفل الآخر لا يكون بدرجة من الأهميّة في مقابل عنوان (الكريم أو السخي)، ولو دقّقنا النّظر لوجدنا أنّ حالاتنا الفعليّة تحكي عن هذا المعنى أيضاً، وهو أنّ التعبيرات والتّفسيرات الذّهنية أهم من الحقائق والواقعيّات في الخارج، فأنا أو أنت قبل عشرين سنة تعرّضنا لصفعة لأحد الأشخاص، ففي هذا الحال لا نجد ألماً لتلك الصفعة أو لا تكون الخسارة ذات اهميّة الآن ولكن ألم عنوان (أنّك جبان وضعيف وغير لائق) وأمثال ذلك راسخة في أذهاننا وتؤذينا، فالإحساس بالجوع هو أمر واقعي، ولكن تصوّر (أنا جبان أو غير لائق) تؤذينا مثل ألم الجوع الواقعي أو اكثر.

ومن هذه القضيّة وأنّنا نهتم للمعنى والتفسير للوقائع اكثر من نفس الأحداث والوقائع تتولّد مسألتين أساسيتين ذات ضرر فادح على الإنسان، المسألة الأُولىٰ هي ما يتعلّق بإرتباط الإنسان بالعالم الخارجي بعد أن حلّت (القيم) بعنوان ضرورة حيّاتيّة مبرمة تمّ تحميلها على ذهن الإنسان، فلهذا ينجذب اليها الإنسان الى درجة أنّها تكون كلّ شيء له في حياته ويغفل عن الأُمور الواقعيّة ويتجاهلها ويسعىٰ إلى الإكثار من القيم والعناوين الإعتباريّة هذه ويضيفها إلى وجوده وعالمه الخاص ويعيش في هذه العالم العنواني والإكتسابي.

(القيم) بمعناها الواقعي تسحر الإنسان وتجذبه بشدّه نحوها وتؤسره وتمنعه من رؤية الحقائق والواقعيّات في العالم.

هذا يعني هو أنّ الإنسان بدل أن يرتبط مع الحياة ذاتها يرتبط مع ظلّها، وما يقال بأنّ الإنسان يعيش حالة نوم دائماً هو بهذا المعنى، أي أنّه فقد

الإتّصال بالحياة الواقعيّة وانفكّ عنها واتّصل بالأوهام وتصوّرات وتعابير خلقها في عالم الذهن ويعيش فيها فى عالم الرؤيا.

المسألة الثانية التي تتعلّق بذات الإنسان والتغيّرات الحاصلة في ماهيّته وحقيقته الإنسانيّة. عندما يتعرّف على هذه القيم فإنّه سيفقد حقيقته الإنسانيّة وتحل محلّها ظاهره اعتباريّة أُخرى تحكم على وجوده، وسوف تحكم على الطفل بعض الحالات والكيفيّات المعنويّة التى تؤثر على أعماله وسلوكه، فمثلاً الطفل يحتاج إلى الغذاء ويريد أن يأكل ويعطي إلى الآخر، أو أنّه لا يجد ميلاً ودافعاً إلى ذلك أو أنّه تحكم طبيعته الإنسانيّة طفل منزوٍ أو اجتماعي أو أنّه ذاتاً متلائم مع الآخرين، أو شديد معهم وهكذا في الكثير من الحالات والكيفيّات الأُخرىٰ الّتي تشكّل بمجموعها حقيقته الإنسانيّة، فالطفل قبل أن يتعرّف على هذه التعبيرات والتّفسيرات اللّفظيّة كانت حياته متأثّرة بتلك الحالات الأصيلة والطبيعيّة، فلا يقول لنفسه: بما أنني انسان اجتماعي فيجب أن أُعاشر الآخرين وأُحبّهم، أو بما أنّني كريم يجب أن أُعطي الحلوىٰ إلى الآخر، بل أنّه يشعر في نفسه بمقتضى طبيعته الذاتيّة أنّه يسلك ذلك السّلوك، ولكنّه بعد أن يتعرّف على هذه القيم الإعتباريّة تنقطع رابطته الإنسانيّة الطبيعيّة مع نفسه ويسلك السّلوك الموحي اليه بتأثير من تلك العناوين والصّفات الإعتباريّة، وبعد ذلك تكون كلمة (الكريم) بعنوان قيمة وظاهره ملازمة لحياته يجب أن يتحلّى بها ولا يلتفت حينئذٍ إلى دافعه ورغبته الذاتيّة والباطنيّة بل يجد نفسه ملزماً بأن يعمل طبقاً لهذا العنوان بعد حاكميّة هذه القيم على ذهنه فلا يسمع حينئذٍ صوت الباطن وينفصل من فطرته وإصالته وتنقطع رابطته مع حالاته الباطنيّة وتحكم على سلوكيّاته هذه

الظاهرة الذهنيّة الّتي جاءت اليه من الخارج وتنصرف في سلوكيّاته ومجموعة حياته، وبعبارة أُخرى يتبدّل من (انسان اصيل وحقيقى) إلى (انسان اعتباري).

(يرجىٰ الإلتفات جيّداً إلى أنّنا نتقدّم خطوة خطوة نحو الغرض النّهائي).

المسألة الأُخرىٰ التي تتقارن مع هذه الأحداث هي تراكم التّعابير والتفاسير في الذّهن، وتتشكّل بمجموعها (الأنا) أو الهويّة النفسيّة، فقبل أن يتعرّف الطفل على تلك التعابير والتفاسير والصفات الظاهريّة لم تكن توجد فيه ظاهرة بإسم (الأنا) بل كانت حالات ومعنويّات قويّة ودوافع نفسيّة لا أكثر ولم تتشكّل منها (الأنا) لأنّه لم تُخلق حينئذٍ في ذهنه عناوين (أنت شجاع أو متواضع أو كريم أو جبان وإلى آخره) ولم يواجه مثل هذه الألفاظ، ولكن بعد أن نوجّه ونوصف حالات وسلوكيّات الطفل بهذه الأسماء والعناوين أو القيم الجيّدة والسيّئة فيعني ذلك بأنّنا قد وصفنا أعماله وحالاته بصفات اعتباريّة والقيناها إلى ذهنه، ومن تراكم هذه الصفات والألقاب الوهميّة في الذهن تتشكّل في ذهن الطفل ظاهرة (الأنا) أو الهويّة النفسيّة.

إنّ للقيم تعابير وتفاسير مختلفة وحالات وكيفيّات متباينة، فهى مثل الغدّة السرطانيّة بمجرد أن تحلُّ في الذهن تشكّل مركزاً للفساد والإفساد، ويوماً بعد آخر تتّسع أبعادها المخرّبة وتتفرّع من كل صفة وخصوصيّات وفروع ومسائل كثيرة، وأحد هذه الخصوصيّات الأساسيّه للقيم الإعتباريّه هي (حالة المقايسة) فإن كل صفة إعتباريّة وقيم عنوانيّة لا تُعرف إلاّ بضدّها، وكل منها إعتبار ذهني مجرد، فعندما يقال مثلاً (جبان)

فلا تدرك معناه إلّا بمقايسة كلمة (الشجاع) ومن دون المقايسة بينهما سوف لا يكون لكليهما معنىً متصوّر، وإذا لم تتصوّر معنى البخل لا يمكن أن تتصوّر معنا الكرم حينئذٍ، وهكذا في الجرأة والخجل والذلّة والعزّة وأمثال ذلك، فجميع هذه القيم الاعتبارية لها هذه الحالة، أمّا لو كانت حالة واقعيّة في وجود الإنسان فانّها تكون مستقلّة عن إدراك الضد، فإنّ البرودة مثلاً حالة واقعيّة يمكن إدراكها والإحساس بها من دون مقارنتها مع الحرارة (بالرّغم من أنّ ذهننا إعتاد على المقايسة ويقوم بالمقايسة بين هذه الحالات الواقعيّة مثلاً، فأنت لو لم تحاول مقايسة حرارة الصّيف الشديدة مع لطافة الهواء وبرودته في الرّبيع فيحتمل أنك لا تتألّم من حرارة الصّيف بذلك المقدار، أي أنّ المقايسة الذهنيّة حتى في الأمور الواقعيّة تزيد الإنسان ألماً).

والآن لنرى الثمار المترتّبة على خاصّيه (المقايسة) ففي المقايسة تستتر الرقابة والمنافسة بين الأفراد، والاّ لولا الرقابة والمنافسة فما الضرورة التي تدعوننا إلى أن نقايس كلّ شيء في حياتنا ومتعلّقاتنا مع الآخرين؟ أليست هذه المقايسة الدائميّة تحكى عن نوع من المنافسة والمنازعة الداخليّة مع الآخرين، ينبغي الإلتفات جيّدا إلى كيفيّة الروابط التى تربطنا مع الآخرين، فأنا أقول أنّ ابني تعلّم أن يعدّ من الواحد إلى المائة، فتقول فوراً بأنّ ابني تعلّم السباحة أيضاً، وأنا اقول شعراً للشّاعر المولوي لكي أظهر نفسي أنّنى أفهم شعر المولوي وفلسفته في الحياة أمامك، وأنت بدورك تذكر شعر الحافظ مثلاً، فلو دقّقنا النظر لوجدنا أنّ حياتنا مليئة بسلسلة من المقايسات الخفيّة وتختفي وراء هده المقايسة الرقابة والمنافسة التي لا تكون صريحة دائماً بل تكون ملفوفة بتوجيهات

ومقنّعه بأقنعه، ولكننا ندرك جيّداً من جميع الروابط التي تحكمنا مع الآخرين هذا المعنى بأنّ جميع تلك الأقنعة تخفي في باطنها جرثومة الرقابه والمنافسة، ولو لاحظنا جذور الآلام والمصائب والمشاكل التى نتعرّض لها في الحياة لرأينا (بإستثناء الآلام البدنيّة) أنّه ليس هناك ألمٌ ومشكلة إلاّ وهي متولّدة من هذه المقايسة والرقابة مع الآخرين.

وبديهى أنّ الطفل الّذي يعيش في هذا الجو وينمو في هذا المحيط فإنّه يدرك جيّداً حقيقة هذه المسائل ويرىٰ مثلاً أنّ أباه وأُمّه يلبسون اللّباس الفلاني ويأكلون الطعام الفلاني ويسلكون آداب وأخلاق معيّنة حسنة أو سيّئة و هي بشكل عام متفاوته مع سلوكيّاتهم مع الآخرين وتظاهرهم أمام الناس، فيدرك ويستنبط من هذين السلوكين المتفاوتين استنباطاً منطقيّاً وصحيحاً، وهو أنّ بين الناس نوع من الحرب والصّراع الخفيّ والغير المعلن بحيث أنّ جميع القيم والأُصول الأخلاقيّة تحت عنوان (التربيّة) أو بأيّ عنوان آخر يعرض عليه ويلقّن به فهو في الواقع يمثّل أدوات وأسلحة لإستخدامها في الصّراع مع الآخرين، ومن هنا يحدث الأصل والأساس الكلّي والمخرّب في مسير وهدف الإنسان في الحياة، وبعد إدراك هذه الحقيقة وهي أنّ أهم هدف الإنسان في الحياة هو الرّقابة والمبارزة مع الاخرين فإنّه سوف لا يعيش الحياة بمعناها الواقعي وينفصل من الحياة الواقعيّة وما يدور فيها ويفكر فقط بكيفيّة المبارزة والصراع وكسب العناوين الأفضل ظاهراً ويشعر بأنّه يعيش في دوامة مستمرّة من الحرب والنّزاع والصّراع ويجب عليه أن يعدّ العدّة لهذه الحرب، وبالتّالي تكون جميع الأحداث والوقائع في الحياة بمثابة سبل ووسائل يستخدمها في هذا الحرب، ويسير بذلك في مسار سلبي ومخرّب ويخرج من واقع الحياة

الصحيحة والسليمة ويدخل الى ميدان الحرب وما يترتّب عليها من وقائع سلبيّة ومخرّبة، فالإنسان بعد أن يتعرّف على الصّفات والعناوين ويستخدمها بعنوان حربة في صراعه مع الآخرين يخرج عن الحياة الواقعيّة ويفقد حياته كإنسان بالمعنى الواقعي للكلمة ويوقف حياته على هذا الصّراع الخفي على أساس من تلك العناوين والقيم الإعتباريّة والوهميّة.

وبذلك يفقد الإنسان الحياة بمعناها الواسع ويكون مثله كمن يقف على حافّة سهل واسع ومفتوح ولكن يقال له بأنّك ليس لك الحق إلاّ بالنّظر الىٰ جهة واحدة، فبعد أن يدخل الإنسان الحياة بهذا الإطار من الرّقابة والمنافسة والرّوابط التي تقوم على هذا الأساس يتلخص هدفه من الحياة بالحرب، وبالرّغم من أنّنا لنا أهداف متفاوتة ومختلفة من الحرب وفعّاليّات متنوّعة كأن نكتب كتاباً أو نسعىٰ للحصول على الثروة أو الشّهرة أو المنصب والمقام وسائر النّشاطات من هذا القبيل وإلّا أننا ننظر لها بمنظار واحد، وهي أن تكون حربة ووسيلة للتفوّق على الآخرين ونستخدمها في حربنا الخفيّة في المجتمع وننظر لها على أنّها عناوين وقيم إعتباريّة، فهل أنّ الهدف من الحياة هو هذا؟ وهل ينبغي أن نفقد الحياة الواسعة وننظر لها فقط من هذا المنظار الضيّق والمخرّب؟ ألا تكون حياتنا خسارة وضائعة كبيرة؟!

قلنا إنّ مجموعة القيم والعناوين في الذهن تصنع لها مركزاً وهميّاً في ذهن الطفل بعنوان (الأنا) وقلنا ايضاً أنّ أحد الخصوصيّات الأساسيّة لهذه الصّفات هي خصوصيّة (المقايسة)، والآن لنرى ماذا يترتّب على هذا المعنى، فمن البد يهي أنّه مع المقايسة لا يستطيع أحد أن يحصل على هذه القيم بشكل مطلق بل سوف نجد حتماً من هو اكثر وأفضل قيماً ممّا لديه، فبالأمس صرع عليٌ حسناً أو استطاع أن يقرأ نشيداً في المدرسة أفضل من

الآخرين، وقلنا له بأنّك (طفل ممتاز وذكي) كما هو المتداول بيننا في هذه الحالات، فنحن في الواقع قد علّقنا فى صدره مدالية خفيّة بأنّه (الأفضل والأحسن) واليوم ظهر أحمد بدل حسن وتصارع مع علي واستطاع من التغلّب عليه، أو تمكّن من أن يقرأ شعراً أفضل ممّا قرأ علي، فنحن نعمل على سلب علي ذلك العنوان الّذي أعطيناه أمس ونعطيه لأحمد، ونأخذه غداً من أحمد ونعطيه لمحمود، وهكذا تكون حياتنا جميعاً على هذا المنوال، والآن فمن جهة نجد أنّ العناوين والقيم أُلقيت إلى ذهن الطّفل على أساس أنّها هي الأهم والأفضل ما يكون لديه في الحياة، والطّفل استطاع بدوره أن يشكّل من مجموعها مركزاً في ذهنه باسم «الأنا» أو «الهويّة الذاتيّه والنفسيّة» ومن جهة أُخرى نجد بسبب المقايسة أنّ هذه العناوين والصّفات متزلزلة وغير قابلة للإطمئنان، وبعبارة أُخرى أنّ هذا البناء الذّهني والنفسي للأنسان متزلزل وقائم على أساس غير ثابت، وفي كلّ لحظة يمكن أن يتعرّض إلى الإنهدام وفي هذه الصّورة ألا يعيش الانسان في حالة الخوف واليأس وعدم الإعتماد والشعور بالقلق العميق الدّائم؟ نرجو من الإخوان الّذين يقرؤون كتب من قبيل (كيف يمكن الإعتماد على النفس) أو يقول بعض الأصدقاء انّه ما أسعد فلان فإنّه يتمتّع بحالة الإعتماد على النفس أن يلتفتوا إلىٰ هذه الأُصول المهمّة وأنّه أيّ نفس هذه، وأيّ إعتماد، والإعتماد على أي شيء؟ هل هو الإعتماد على ظاهرة بإسم «الأنا» التي تكون متزلزلة من الأساس وقائمة على أساس تعابير وهميّة ومجموعة من الصفات الإعتبارية؟ وهل يمكن الإعتماد على مثل هذه النفس الظاهرية)؟

ونحن في مجال المقايسة والرقابة نلاحظ أنّنا نحصل دائماً على قيم وإعتبارات ونفقدها بعد ذلك، وبالإلتفات إلىٰ أنّ أساس هوّيتنا وحقيقتنا

يقوم على هذه العناوين فانّ كلّ عنوان يؤخذ منّا ففي الحقيقة كأنّما أُخذ منّا قسم من وجودنا وأُقتطع منّا بعض كياننا، ويؤدّي هذا إلىٰ إختلال جزءٍ من حياتنا النفسية، فكيف يمكن أن ننظر بعد هذا إلى الآخرين؟

أنا أجد في نفسي حاجة شديدة إلى أن أكون أذكى منك وأقوى وأفضل وأعلم، وهذه الصفات بالنسبة لي مهمّة وحياتيّة، ولكنّني أجد نفسي في مقابلك أنّني أفقد هذه الصفات ألا أشعر في نفسي في هذه الحالة أنّ حياتي ينقصها شيء؟ ألا أشعر بالحقارة إزاء هذا النقص الموجود دائماً في حياتي ووجودي؟ وما السبب في أنّنا دائماً غير راضين عن وضعنا ومعيشتنا وحياتنا؟ لماذا نتحسّر دائماً على أنّنا لا نمتلك بعض الأُمور؟ ولماذا كلّما وصلنا إلى مرتبة أعلى نشعر بعطش أكثر وولع دائم إلى الأعلى منه؟ لماذا ننظر إلى المستقبل دائماً؟ أليس ذلك يعني أنّنا نسعى في المستقبل إلى جبران ما عندنا من النقص الفعلي؟ ولو دقّقنا النظر جيّداً لرأينا أنّ جميع حياتنا تتشكّل من هذا الجريان المستمر، فإنّنا نستيقظ صباحاً من النوم ويشغل ذهننا هذا الموضوع وهو (أنّني شخصيّة ناقصة ويجب أن أستبدلها بشخصية أُخرى غير هذه الشخصية الفعليّة) وهذا المعنى يستوعب حياتنا جميعاً طيلة عمرنا. ومع الإلتفات إلى هذه الحالات النفسية هل يمكننا أن نشعر بإحساس مطلوب وجيّد بالنسبة للآخرين؟ ألا بشكّل أحدنا عامل خطر يهدّد وجود الآخرين ولهذا نخاف من بعض آخر بشدّة وفي هذه الصورة أليس طبيعيّاً أن نشعر بعمق بالحقد والتنفّر من الآخرين، فما دامت هذه المقايسة والمراقبة حاكمة على روابط الأفراد فلا أمل للعشق والمحبّة الأصيلة، وما دامت هذه الرقابة موجودة فالإحساس بالحقارة والخوف موجود أيضاً، وهذان الأمران يخلّان بالعشق ويتعارضان مع كلّ إحساس

مطلوب ومريح، فلو كانت عناويننا وقيمنا أكثر من الآخرين فإنّنا نشعر بنوع من الإفتخار والغرور، وفي نفس الوقت يقترن هذا الشعور بالخوف والقلق، لأنّ هذه القيم والصفات التي أوجدت في نفسي الإفتخار والغرور فإنّها في كلّ آن يمكن أن تزول وتتلاشى، فأنت اليوم رئيس ولكن غداً لا يكون كذلك، ولو أنّ صفات الآخرين كانت أعلى من صفاتي فالنتيجة هي الإحساس بالحقارة والذلّة والدّونية والتحسّر والتنفّر، والشيء الغير موجود إطلاقاً في مسألة الرقابة والمقايسة هو الإحساس بالتساوي، لأنّ إرتباطنا مع الآخرين يكون على أساس هذه القيم، ونعلم أنّ هذه القيم لا تكون محدودة بواحد أو إثنين، بل مئات القيم والصفات المتفاوتة التي تتشكّل منها هويّتنا وشخصيتنا، وفي بعضها نشعر بالتفوّق، ولكن في البعض الآخر نشعر بالضعّة والحقارة، فعلى هذا يكون إرتباطنا مع الآخرين متضادّاً وخليطاً من الإحساس بالغرور والإحساس بالحقارة (وطبعاً سوف يتّضح أنّ الإحساس بالحقارة أكثر من الإحساس بالغرور والإفتخار بل أنّ الإحساس بالإفتخار في الواقع غطاء وقناع للإحساس بالحقارة).

وقد أصبح واضحاً أنّنا في أوّل لقاء مع الآخرين يكون حالنا قلقاً ومضطرباً، وسبب في هذا الإضطراب والقلق هو أنّنا لم يتّضح لدينا الموقف الدفاعي من الآخر وأيّ سبيل نتّخذ في الحرب معه، ففي اللحظة الأُولى الذي نواجه الشخص الآخر نقوم بتقييم صفات الطرف الآخر وعناوينه، فلو رأينا صفاته أكثر من صفاتنا فإنّنا سوف نتّخذ منه موقف المتواضع والتلميذ، ولكنّنا إذا رأينا أنّ صفاتنا أفضل من صفاته، فسوف نسلك معه بمقتضى الشخص المتفوّق، ففي أوّل لقاء مع الآخرين نسأل عن شغله وعمله، ومن خلال ذلك يتشخّص ويتّضح لنا نوعية الجبهة المقابلة

لنا.

هذا الإرتباط العنواني يحكي ضمناً عن أصل آخر أيضاً وهو أنّنا لا نقيم علاقتنا مع شخصيّة الإنسان الحقيقيّة للآخرين، ولا نهتّم لماهيّة الطرف الآخر الواقعيّة، بل أنّني أهتمّ لصفاتك وعناوينك الإعتبارية، لأنّه عندما جئت إلى هذه الدنيا كان شغلي الشاغل هو هذه العناوين والقيم لا الحقائق الواقعية، إذن فالرابطة تقوم على أساس عنوان مقابل عنوان، وقيمة مقابل قيمة، لا رابطة إنسان مقابل إنسان، وبعبارة أُخرى أنّ مثل هذه الرابطة تكون رابطة شيئين لا إنسانين، رابطة تصوّرين لا رابطة حقيقتين، فعندما آتي لملاقتك ففي الحقيقة إنّني آتي إلى ملاقاة هوّيتك العنوانية الإعتبارية، يعني أنّني ؟زور عنوانك بصفة انّك (رئيس) وصاحب مقام ولا أقصد زيارة حقيقتك الواقعيّة.

ثمّ أنّ هذه الرابطة التي تربطني معك ليست رابطة واقعيّة، بل هي عبارة عن دفاع ومبارزة خفيّة، فإنّ العناوين والقيم بالنسبة لنا بمثابة الدرع والقالب التي نستخدمه في دفاعتنا ونختفي وراءها، ولا نلتفت إلى أنّنا دائماً نسعى إلى إستخدام وسائل الحرب مع الآخرين، وكيف أنّنا في معرفتنا للآخرين نسلك سلوك المحتاط ولا نسمح لهم أن يتجاوزوا الحريم الخاصّ بعالمنا العنواني.

والمسألة الأُخرى في رابطتنا مع الآخرين الرقابة والمنافسة والتي تأتي من المقايسة مع الآخرين، فإنّ الإنسان سوف ينجر إلى حياة سطحيّة وظاهريّة وغير عميقة، وبعد أن يكون الإنسان دائماً في حالة نزع مع الآخرين فإنّه سوف يتّخذ من كلّ شيء وسيلة المبارزة والرقابة مع الغير، ويكون ميدان الحياة ميدان حرب ونزاع مع الآخرين، وسوف تزول على أثر

ذلك علاقته ومحبّته للأشياء الواقعية، وينظر إلى الأُمور بعين واحدة وبُعدٍ واحد، وحتّى هذا البعد الواحد لا ينظر إليه بنظرة حقيقيّة، بل سوف تكون علاقته مع كلّ شيء في ما ينفعه في المنافسة والرقابة ويرغب في كلّ شيء يمكنه بواسطته أن يثبت تغلّبه على رقبائه المعروفين وغير المعروفين وينظر إليه من هذه الزاوية فقط، فمثلاً لو مارست تعلّم اللغة الأجنبية فلو كنت ترغب في نفس تلك اللغة فإنّ تعلّمك لها سيكون عميقاً وأساسيّاً، ولكن إذا كنت تتعلّمها من أجل أن تُظهر نفسك أمام الآخرين بأنّك تعرف لغة أجنبيّة فسوف تتعلّم مقداراً يحصل به مرادك هذا، ولذا فحالنا كحال الجندي الذي يسعى إلى إظهار نفسه أمام العدو أنّه يمتلك سلاحاً جاهزاً ومليئاً بالعتاد حتّى لو كان سلاحه في الواقع فارغاً ولا عتاد فيه، فالمهمّ أن يتصوّر العدوّ أنّ سلاحه مليء بالعتاد.

وسوف نتعرّض في الاسبوع القادم إلى هذا البحث أيضاً، ولكن قبل أن نتمّ بحثنا هذا اليوم لابدّ من ذكر عدّة نقاط فرعيّة:

الأُولى: لابدّ من الإلتفات إلى أنّ بحثنا لا يدور حول موضوع فرضي أو إنساناً فرضي بل نحن نبحث عن وضعنا بالذات الذي أرجو أن يكون قابلاً للفهم وللدرك، ولذا لابدّ من الإنتباه إلى أنّ جميع المسائل والخصوصيات المذكورة في هذا البحث توجد الآن في نفسي ونفسك والرابطة التي تحكم علاقاتنا منذ الطفولة ولحدّ الآن هي رابطة المنافسة والمقايسة.

النقطة الثانية: إنّ بحثنا هذا عام وجامع ونستطرق إلى ذكر المسائل والخصوصيات المتولّدة من النظرة والرابطة (التعبيريّة والتفسيريّة)، فلهذا يجب الإنتباه إلى أنّ المسائل لا تنحصر بما ذكرنا بل يجب التحقيق في

جميع الوقائع في حياتنا والتعرّف عليها، وفي كلّ موضوع سوف نذكر مثالين على سبيل النموذج، ولكنّكم يمكنكم أن تعثروا على الكثير من نظائر هذه الأمثلة في جميع شؤون الحياة واشكاليّة الروابط بين الأفراد، فمثلاً بالنسبة إلى الحياة السطحيّة والظاهرية ذكرنا مثال تعلّم اللغة الأجنبية ولكن يمكنني أنا وأنت أن نطبّق هذه الكيفيّة (التظاهرية) في جميع المجالات الإجتماعية والفردية، أو عندما نقول أنّ الإنسان منقطع عن حياته الحقيقيّة ويعيش في عالم الصفات والعناوين، فمعناه أنّ الفرد في جميع حياته يكون كذلك، فعلى سبيل المثال أنّك تشتغل بعمل له قيمة إعتبارية أكثر وأهمّ، وأنت تدرك ذلك وتفكّر فيه، ولذلك تقيّم نفسك على هذا الأساس، أي على أساس من السيارة والبيت والأثاث الذي يحكم على الذهن، ولا تلتفت إلى واقعيّة الأثاث والسيّارة، بل تهتمّ بها كعنوان، ولو تزوّجت أيضا كانت القيمة الإعتبارية أهمّ في نظرك من نفس الزواج، ولو لم تتزوّج فإنّ صفة وعنوان الأعزب تؤذيك أكثر من نفس الحالة الواقعيّة للعزوبيّة، وهكذا في نوع الزوج أو الزوجة التي ينتخبها الفرد فإنّها أهم في نظره من الكيفيّة الحقيقيّة للزوج، فيخضع الإنسان إلى تأثير هذه القيم الإعتبارية بشكل عام لا الواقعيات.

وآخر نقطة نذكرها في هذه الجلسة أنّنا سوف نفسح المجال للأسئلة والأجوبة بعد البحث حتّى لا تبقى مسألة مبهمة في هذا الموضوع، غاية الأمر أنّ البحث لهذا اليوم بقي غير تامّ لأنّنا لم نذكر جميع الخصوصيات للروابط التي تعتمد على أساس التعبير والتفسير، ولهذا نأمل أن لا يستعجل الأُخوان في أسئلتهم حتّى يتّضح المراد جيّداً، أيّ إننا كما يقول المولوي عندما نقول (لا إله) فانّ مقصودنا (لا إله إلّا الله) فلهذا عليكم التأمّل والصبر

حتّى نقول إلّا الله، فلو فرضنا أنّ السؤال يتعلّق بـ(إلّا الله) فيجب أن نؤجّله إلى البحث القادم.

سؤال: لديّ سؤال ينبغي طرحه الآن، وهو ما السبب في شيوع وإنتشار هذه الرابطة الذهنية (التعبير والتفسير الذهني) بين الناس؟ فأنت تقول أنّ هذه النظرة والرابطة غير طبيعيّة، فلو كانت كذلك فلا ينبغي أن توجد وتنتشر بين الناس، ولمّا رأينا وجودها في المجتمع فيمكن القول أنّها ضرورة طبيعيّة لا يمكن إجتنابها.

الجواب: ما هو منظوركم من (الطبيعي)؟ نحن نتنفّس ونأكل وننام ولدينا القابلية على الكلام وأمثال هذه الأُمور الغريزيّة والطبيعيّة، وهذه الملكات والدوافع كانت موجودة منذ بداية وجود الإنسان فهل تتصوّر أنّ لغة (التعبير والتفسير) لها هذه الحالة الأصيلة؟

سؤال: أنا أقول أنّها لو كانت غير طبيعيّة فلماذا وُجدت؟

الجواب: بالنسبة إلى سبب وجودها أو كيفيّة وجودها ومتى وجدت فليس لديّ إطّلاع تامّ، ولا أظن أنّ معرفة هذا الموضوع يفيدنا كثيراً في حلّ المشكلة، فالحقيقة هو أنّ هذه النظرة التفسيريّة موجودة فعلاً، وهي السبب في ألمنا ومشاكلنا، إذاً فالمسألة المطروحة فعلاً هي كيف يمكننا التخلّص من شرّ هذه الظاهرة؟ وهل يمكن الخلاص منها أساساً؟ فأنا أشعر بثقل أحمله في وجودي، أمّا متى وجد هذا الثقل؟ أو لماذا وضع على كتفي؟ فليس بالأمر المهمّ، المهمّ فعلاً كيف يمكنني أن أتخلّص من هذا الثقل والوزر حتّى أتحرّر منه وأسير بصورة حرّة وأحيى حياة طبيعيّة؟ فكلامنا أنّه هناك قيم وعناوين إعتبارية ليس لها حقيقة واقعاً ثمّ تحميلها علينا وتلقينها في أذهاننا، فهي السبب في مئات المشاكل الوخيمة،

فالسؤال الآن هو أنّه كيف أتخلّص من هذا الثقل الزائد والمخرّب وأُخرجه عن ذهني حتّى أعيش حياة سعيدة وفارغة وهادئة؟

سؤال: ألا تتصوّر أنّ معرفة الجواب على هذا النوع من السؤال ومتى بدأت هذه العلاقة الوهميّة يساعد في حلّ الموضوع ويعيننا على التخلّص منها؟

الجواب: هذا الموضوع سيتّضح في ما بعد.

سؤال: هل أنّك ترى بأنّ جميع القيم والصفات الإجتماعية هي ذهنيّة وإعتباريّة، أو يقتصر الأمر على بعضها، ففي نظري أنّ المجتمع لابدّ له من هذه القيم، غاية الأمر يجب أن تكون قيم أصيلة وإنسانيّة.

الجواب: هناك تفاوت بين نوعين من النظرة والإرتباط ولم يتّضح لحدّ الآن لكم المقصود من ذلك، فمثلاً أنّ الطفل يخاف من الظلام ولنفرض أنّ هذا الخوف حالة وكيفيّة سلبيّة وغير محبوبة، فأنا لا أقول أنّ هذه الحالة هي ظاهرة ذهنيّة وإعتبارية، فانّ خوف هذا الطفل له وجود واقعي، ما نقوله هو أنّنا لو نظرنا إليها فقط بعنوان أنّها واقعيّة وحقيقيّة، ولم نحكم عليها لا بالسلب ولا بالإيجاب فإنّه سوف تكون لدينا مسألة واحدة فقط، ولكن عندما نقول (أنّ هذا الطفل جبان) فستكون لدينا مسألتان: **أحدها** الحقيقة السلبية وغير المحبوبة للخوف من الظلام، **والأُخرى** تصوّر الجبن، والصفة السلبية للطفل بهذا العنوان، وكلامنا يدور حول هذه المسألة الثانية، فهذه المسألة هي التي تسبّب ألمنا وأتعابنا وهي العلّة للإختلاف بين الأفراد، فأنا لا أنكر أنّ الحقائق والواقعيّات قد تكون مطلوبة وقد لا تكون كذلك، وكلامنا ينصب فقط على أنّنا نعبّر على المطلوب وغير المطلوب بعبارات أنّه ذو قيمة أو لا قيمة له، فمسألة الكيفيّة لها جنبة أُخرى، فالجوع مثلاً

حقيقة غير محبّبة، ولكن لا يمكن أن أنظر إليه على أنّه لا قيمة له إعتباريّاً، في حين أنّنا هكذا نصنع، فلهذا إنّنا نتصوّر ونهتمّ بسلبيّة عنوان الجوع أكثر من نفس الإحساس بالجوع، وقبل أن نفكّر برفع الجوع نهتمّ بكيفيّة إزالة هذا العنوان، وأتصوّر (كم أنا محروم وفقير ومسكين) فهذه الصفات أكثر ألماً وأشدّ إزعاجاً من الإحساس الواقعي بالجوع، وإشتغال الذهن بتصوّرات (الفقير والمسكين) سوف يكون مانعاً من إيجاد الحلّ الصحيح والمنطقي لرفع الجوع.

سؤال: لو نظرنا إلى الواقعيّات فقط وإرتبطنا معها فحسب ألّا تكون الحياة جافّة وعديمة الروح والذوق؟

الجواب: ما ذكرنا ليس بالموضوع العسير، ولا نعلم لماذا نرغب في تشديده والخروج عن أصل الموضوع، فهذا الطفل له مقدار من الحالات المعنويّة والكيفيّات الذاتية ويسلك في حياته بحكم هذه الحالات والكيفيّات، فمثلاً له رغبة في تناول الطعام ويرغب في إعطاء الطفل الآخر منه، أو لا يرغب في ذلك، فلو فرضنا أنّنا قلنا له (ما أحسن هذا الطفل الكريم) فهل أنّ تلك الرغبة والحالة سوف تزول مع ذلك العمل؟ فمعلوم أنّها لا تزول، فهذه الرغبة كانت جزءً من ماهيّة الإنسان وسوف تبقى فيه وتكون دافعاً إلى جميع البذل اللاحق أيضاً، ولكن بعد ما قلنا له (أنت كريم) فإنّ عطاءه البعدي سوف يكون بدافع من هذه الكلمات الجوفاء لا بسبب ذلك الميل المعنوي الأصيل والذاتي فيه، يعني أنّه سوف يكون موجّهاً بعدّة ألفاظ وكلمات ويسلك بها بحياته، والآن فلماذا تقول أنّ هذه الحياة جافّة وعديمة الروح في حين أنّ الحياة من دون تعبير وتفسير سوف تكون أكثر نشاطاً ومعنويّاً وعمقاً من الوضع الفعلي الذي يعيشه

الإنسان حيث أنّه فقد أصالته وماهيّته المعنويّة وأصبح يعيش بدون روح ومعنويّة.

سؤال: هل أنّ المنافسة ضروريّة للحياة ولتقدّمها؟

الجواب: ما هو مرادكم من التقدّم؟ هل أنّه التقدّم المعنوي والأخلاقي، أو التقدّم في الأُمور الماديّة؟

سؤال: التقدّم في كلا الأمرين.

الجواب: في مورد الأخلاق والمعنويات فالحقيقة أنّ المنافسه لا تكون موجبة للتقدّم ولا العقل والمنطق يؤيّد ذلك، ولو كانت المنافسة توجب التقدّم الأخلاقي فإنّنا مع كلّ هذه المنافسة بين أفراد الإنسان يجب أن يكون في أعلى عليّين من الأخلاق والكمال المعنوي لا أنّنا نعيش في جهنّم أخلاقي، ومنطقيّاً لا توجب المنافسة التقدّم الأخلاقي والمعنوي أبداً ولا مفهوم أساساً للمنافسة في المعنويات، ولا ينبغي أن نسعى إلى وضع المفاهيم في إطار الأخلاق، فلنفرض أنّك إنسان شجاع وحسن الأخلاق وطيّب ومتواضع وهذه تشكّل معنوياتك الإيجابية وأردت أنا أن أُنافسك وأتسابق معك في هذه الصفات الأخلاقية وأتقدّم عليك، وعلى فرض أنّني أملك القابلية والإستعداد الفطري لذلك بالقوّة، والآن قل ماذا ينبغي أن أصنع حتّى أستطيع وتقوية هذه الصفات في نفسي بحيث أكون أفضل منك؟ فلو كانت هذه الصفات واقعاً في صميم وجودي الفطري والمعنوي فإنّها سوف تنمو وتتكامل سواءً أردت أم لا وليس نموّها وتكاملها بإختيار الفرد وعن علم وإرادة وإطّلاع مسبق، المهمّ أن لا يوجد مانع من نموّها، وإذا لم تكن هذه الملكات الأخلاقية موجودة في فطرتي فكيف يمكنني أن أكون أفضل منك وأتفضّل عليك؟ وأساساً فإنّ المعنويات

بمعناها الواقعي ليس لها كميّة معيّنة حتّى يمكنها أن تكون أكثر وأقل، فالعشق والمحبّة والشجاعة أو التواضع حالة لا توصف فيك، وأنا ليس لديّ إطّلاع عن ماهيّتها وكيفيتها، ولا أعرفها، فكيف يمكنني أن أتنافس في حالة لا أعرفها؟

وطبعاً أنّ كلامكم صحيح من جهة، فنحن نسلك في حياتنا في دائرة هذه العبارات والألفاظ التي تحكي على المعنويات، لذا فإنّ تصوّر التقدّم والمنافسة فيها أمر ممكن، ويمكنني إظهار الكرم والشجاعة والتواضع وأي صفة أُخرى أفضل منك، وهكذا المعنويات الإجتماعية فعلاً في ما بيننا، فهي ليست أكثر من ظهورات لفظيّة وإعتبارية.

المنافسة في الأُمور الماديّة أيضاً لا توجب الترقّي والتقدّم وسيتّضح لاحقاً أنّ مئات العوامل المثبّطة والمانعة تعيق التقدّم وناشئة من هذا الإرتباط التنافسي بيننا حيث يعمل على عرقلة تقدمنا ووضع سدود أمام قابلياتنا وملكاتنا الفطرية أو يجعلها في طريق منحرف ويهدر تلك الطاقات، فمثلاً الحياة (العنوانية والتظاهرية) تحتوي على أنواع التضادّ والعراقيل والهرب من الحقائق والسير في دنيا الأوهام وأنواع المخاوف والأُمور الأُخرى التي توجب الركود وعدم تحرّك الإنسان، فلو لم تكن هذه العراقيل والموانع فلعلّ الإنسان كان يصل إلى هذا التقدّم والتطوّر الذي نتحدّث عنه بصورة أسرع قبل آلاف الأعوام، ويكون تقدّمه بنّاءً ومفيداً، وليس فيه جانب مدمّر ومخرّب كما نراه فعلاً، وعلى كلّ حال فالسؤال هو أنّه ماذا كانت نتيجة هذه المنافسة المزعومة؟ وهل أنّ الإنسان أصبح سعيداً واقعاً؟

سؤال: ولكن إذا كانت المنافسة غير موجودة فإنّ الإنسان سوف يفقد

الدافع للتقدّم.

الجواب: هذا صحيح بالنسبة إلى الإنسان الفعلي، فهناك منافسة وغضب وتنفّر وحقد ناشيء من ذلك التصوّر ويمثّل الوقود للتقدّم الفعلي، ولكنّ لو كان الإنسان صادقاً وترك المنافسة جانباً وتوجّه نحو ماهيّته الإنسانية الأصيلة وجعلها محرّكاً ودافعاً لتطوّره وحركته من دون أن يتصوّر التقدّم أو عدم التقدّم لكان حاله أفضل ممّا نراه بكثير!!

* * *

الفصل الثاني

(الأنا ظاهرة غريبة على الإنسان)

قلنا إنّ هناك بعض القيم الإعتبارية والجوفاء في مجتمعاتنا كالظلّ الذي يلازم الحقائق دائماً، ومن خلال وجود هذه الظواهر في الذهن تتكوّن ظاهرة (الأنا) أو الهويّة النفسيّة، وبعد ذلك يكون الذهن مركزاً يتولّد منه الكثير من المشاكل والمسائل الفرعيّة، وقد تقدّم توضيح لبعض الأُمور واليوم نسعى إلى صياغة ورسم كامل لهذه الظاهرة الذهنية ونرى ما هي الخصوصيّات والمسائل الأُخرى المترتّبة عليها.

وينبغي أوّلاً أن نرى أنّ الإنسان ماذا يحمل من قابليات وملكات عند وروده إلى هذه الدنيا ومنذ تولّده، وما هي حقيقة هذه المعنويات؟ ومن ثمّ نرى هل أنّ هذه الظاهرة التي نسمّيها بإسم (الأنا) أو (الشخصيّة) هل يمكن أن تكون موجودة منذ تولّد الإنسان وكانت جزءً من ماهيّته أو شيء آخر؟

الإنسان يولد مزوّداً بمقدار من الحالات والكيفيّات الجسميّة والنفسيّة التي تشكّل بجموعها ماهيّة الإنسان، يعني مجموعة من الخصوصيّات التي تميّزه كإنسان عن غيره من الموجودات، مثلاً نلاحظ فيه حالة الطمع أو الشوق وتارةً حالة الخوف والإضطراب وأُخرى حالة الغضب، وقد يرغب في بعض الأشياء لأسباب غير معلومة وقد لا يرغب لها، وفيها يكون خشناً وأُخرى ملائماً، وتارةً يميل إلى إقامة روابط مع الآخرين وأُخرى بالعكس،

وله حاجات متعدّدة، والكثير منها من هذه الحالات والكيفيّات متأصّلة في ذاته وتشكّل جزءً من طبيعته الإنسانية.

وفي الحال الحاضر نحن لدينا خصوصيّات نفسيّة تشكّل بجموعها ظاهرة (الأنا) مثلاً أنواع الفرح والحزن، أو نحبّ بعض الأشياء أو بعض الأشخاص ولا نحبّ البعض الآخر، وهناك خوف وإضطراب من بعض الأُمور وإحتياجات وتمايلات أُخرى، والسؤال الآن هو: هل أنّ هذه الخصوصيّات النفسيّة هي التي كانت منذ الولادة موجودة فينا؟ وهل أنّ المخاوف الفعليّة وأنواع الحسد والحزن والفرح والحاجات وسائر الرغبات والخصوصيّات النفسيّة هي التي كانت سابقاً جزءً من طبيعتنا وقد جاءت إلى الدنيا معنا، أو أنّها شيء آخر؟

إنّ حقيقة حالات الذهنيّة مجهولة لنا وغير معروفة، ونحن نعرف أنّ الطفل يفرح ما دام فرحاً وله خوف أو حسد، ولكن ماهية هذه الحالات وأسبابها فغير معلوم لنا، ومع ذلك هناك بعض الخصوصيّات والصفات الأصيلة يمكن رؤيتها بدون شكّ، «الخصوصيّة الأُولى» أنّ هذه الحالات المعنويّة الأصيلة لا تكون في دائرة الفكر، فالطفل عندما يخاف فإنّ فكره وذهنه لا يقول له أنت إنسان جبان وهكذا الطفل في حالة الشوق والحبّ، وهكذا عندما يكون في نفسه ميل إلى اتقديم طعامه إلى الآخرين فانّ فكره لا يقول له أنّك إنسان كريم، أو عندما لا يجد في نفسه هذا الميل فإنّ ذهنه لا يقول له أنّك بخيل، وبعبارة أُخرى إنّ هناك حالة موجودة في النفس والفكر ليس على اتّصال معها.

العشق أحد حالات المعنوية للإنسان التي لا يمكن بيانها وتوصيفها، لأنّه ينبغي لتوصيف كلّ ظاهرة في الإنسان أن نعرفها سابقاً والعنصر الذي

بإمكانه التعرّف عليها هو الفكر، فالفكر قاصر على معرفة حالة العشق، ولذا لا يستطيع بيانها وتوصيفها، وعندما يكون الفرد في حالة العشق فإنّ الفكر يتعطّل ولا يعمل، وعندما تزول عنه حالة العشق يبدأ الفكر بالعمل وبتصوّر تلك الحالة، ولكنّ تصوّر الفكر هذا لا يتطابق مع تلك الحالة بل هو تصوير لها وتذكّر تلك الحالة، فأنت مثلاً بإمكانك أن تتصوّر بعد مضي حالة الغضب أو الخوف أيّ حالة أُخرى بأنّك كنت في لحظات السابقة كذلك، وكانت تلك الحالة موجودة فيك ولكن في تلك الصورة فانّ الفكر يعطيك إطّلاعاً عن حالتك السابقة والغير موجودة فعلاً، وأيّ يعطيك صورة لتلك الحالة الموجودة في الحافظة، فأنت الآن على اتّصال بصورة تلك الحالة لا بمحتواها.

إذن فالحالة النفسيّة الحقيقيّة لا تقع في إطار الفكر في حال وجودها في الإنسان، وما يوجد في إطار الفكر ليس هو حالة نفسيّة، فلا يمكن الجمع بين هذين الأمرين فإمّا أن تكون حالة بدون فكر، أو فكر بدون حالة.

«الخصوصيّة الأُخرى» للحالات المعنوية الأصيلة هي أنّ وجودها «**قائم بنفسها**»، يعني أنّ تحقّقها ليس منوطاً ومربوطاً بالتجلّي الخارجي أو أداء عمل معيّن، ففي الطفل مثلاً هناك حالة يقال لها العشق أو الشوق أو التواضع أو الكرم والسخاء وأي حالة أُخرى سواءً عمل بها الطفل أم لا، فالحالات موجودة فيها، ولكن الصفة الموجودة لدينا بإسم السخاء والشجاعة أو التواضع ليس لها تلك الحالة، ومنشأ تلك الصفات لا ينبع من داخلنا وذواتنا بل مرتبط بأعمالنا وبسلوكنا، فلو قمت بعمل خشن أو لم تعط مقداراً معيّناً من مالك لا يمكنك أن تقول: إنّني إنسان شجاع أو كريم، فالبداية يكون العمل حينئذ ثمّ تأتي الصفة والعنوان على شكل تعبير

وتفسير لهذا العمل، فتقول أنا لديّ تلك الصفات المعيّنة، ولكنّ الحالات المعنويّة الأصيلة ليست منوطة بالعمل كما في الشجاعة التي تقال للأسد مثلاً، فتلك الحالة موجودة في الأسد وليس من اللازم أن يقوم بإفتراس حيوان آخر لكي توجد فيه صفة الشجاعة (وقد سرى عملنا هذا أي توصيف الأعمال بالعناوين الوهميّة حتّى على الحيوانات أيضاً).

الخصوصيّة الثالثة للحالات الأصيلة الإنسانية والتي هي مستترة في الخصوصيّتين السابقتين هي أنّها واقعيّة، فحالات من قبيل الخوف والتواضع والسخاء وحالات أُخرى رغم أنّها غير قابلة للوصف ولا يمكننا الإطّلاع عليها، ولكن على كلّ حال موجودة واقعاً، في حين أنّ هويّتنا النفسيّة الفعليّة تفتقد المحتوى الداخلي الحقيقي سوى مجموعة تصاوير مبتنية على ألفاظ وتعبيرات لفظيّة لا أكثر، فلماذا تقول عن نفسك أنّك شجاع أو سخي؟ فلو أنت قبل عشرين سنة أعطيت مقداراً من الأموال للآخرين أو صفعت شخصاً وكان أبوك أو أُمّك أو عمّك أو أخاك شاهداً على ذلك العمل،فقال لك (أنّك طفل كريم) أو (أنّ شجاع) فهذه التعبيرات بقيت مترسّخة في حافظتك، والآن تقول عن نفسك بمقتضى تلك العبارات الموجودة في الذاكرة بأنّك لديك تلك الصفات، والآن لو قيل لك في ذلك الوقت عندما أكرمت شخصاً أو صفعته على وجهه (بأنّك إنسان سفيه) يُعطي للآخرين بدون مبرّر أو قيل (أنّه طفل غير مؤدّب) يعتدي على الآخرين، فماذا تتصوّر في نفسك من الأوصاف؟ من البديهي أنّ الصفات ستكون (سفيه وعدواني)، ولذا فنحن لا نجد فعلاً من الصفات والعناوين في الأنا أو الهويّة الفكريّة غير ما هو موجود من الألفاظ الإعتبارية في المجتمع.

نأمل بعد هذه التوضيحات أن ندرك الأنا أو القيم التفسيريّة جيّداً،

فنحن لا نتحدّث عن الصفات المعنوية الأصيلة في الإنسان بل الحديث عن ظاهرة ملازمة للأصالة الإنسانيّة كالظلّ، وإذا تحرّينا الدقّة في الأمر فإنّ هذه الظاهرة ليست بمثابة الظلّ أيضاً بل حاصل مجموعة من الألفاظ الإعتبارية التي لا ترتبط بالمعنوية الذاتية إطلاقاً، فعندما نتحدّث عن (الأنا) بعنوان ظاهرة مضرّة ومخرّبة فنظرنا إلى جانبها النفسي التي نشعر بها من خلال الفكر، ونحن الآن لدينا حالات وكيفيّات معنويّة هي جزء من ماهيّتنا الذاتية، ولكنّ هذه الحالات لا توجد في الفكر، فلذا لا تكون من الإجزاء التي تشكّل الأنا، فحديثنا عن الأنا التي هي ظاهرة موجودة بالفكر والحافظة وتمتّص وجودها وحياتها من الفكر والذهن، وفي الحقيقة أنّ هذه الظاهرة الزائدة فكريّة وأجنبيّة عن وجودنا، وهي السبب في جميع آلامنا ومشاكلنا لا الحالات والكيفيّات الأصيلة وراء الفكر.

إذاً علمنا أنّ أحد أهمّ الخصوصيات للهويّة الفكرية هي أنّها (فكرية) يعني أنّ مكان هذه الظاهرة في الفكر وتستمدّ حياتها من التفكير، أو بصورة أدق إنّ هذه الظاهرة هي عين الفكر فإنّ (الفكر) و (الأنا) هما ظاهرة واحدة وتيّار واحد.

والآن لنرى ماذا يترتّب على هذه الهوية الفكرية من مسائل؟ فأوّل مسألة تنشأ من الهويّة الفكرية هي أنّها تفصل أفراد الإنسان بعضهم عن بعض آخر، وتفصل حياتهم عن مجموعة الحياة بشكلها العام الوسعه، وتحدّدها بقالب معيّن من الفكر، وقلنا أنّ الإنسان قبل أن يتعرّف على التعبيرات والتفسيرات كانت له حالات ومشاعر لا يمكن دركها بواسطة الفكر، وعلى هذا تكون الأنا مركزاً وعاملاً للفصل، أمّا حالة الإنسان في تلك الصورة فإنه لا يشعر بإنفصال عن وحدة الوجود مع الكائنات إطلاقاً

(وطبعاً البيان الصحيح أن نقول فقط أنّنا لا نجد أنفسنا منفصلين عن كلّ الوجود) ففي الوجود أجمع هناك حركة واحدة فقط بإسم الإنسان، أمّا بعد تشكيل ذلك المركز الفكري يعني (الأنا) فإنّ الإنسان يرى نفسه منفصلاً ومتجزّءً عن جميع الوجود، فمن جهة تقع «الأنا» أو هذا المركز، ومن الجهة المقابلة جميع الوجود، فإنّ «الأنا» تؤطّر الإنسان بإطار خارج الوجود بعنوان أنّه غريب وأجنبي عن أصل الوجود وينظر إليه من الخارج ويشعر بالإنفصال والوحدة بالمعنى العميق والفلسفي، وهكذا تكون حالة الإنسان حيث يشتكي الغربة والوحدة الدائميّة.

فالحالة المعنويّة للإنسان كالنور الذي لا يقبل الكميّة وليس لها متعلّق، أي انّها كيفية غير شخصية، بل هي متوحّدة (والأصحّ أن نقول أنّها كيفية الوحدة) ولكن بعد أن تتّخذ هذه الحالة المعنويّة عن طريق الفكر بشكل الكميّة تكون على شكل صور متعدّدة وتزول عنها صفة الوحدة وتلازم الإفتراق والإحساس بالوحشة والإنفراد، فقبلاً لا يوجد تصوّر في الإنسان عن الأنا والأنت أو الهُو، بل أنّ حقيقة الأنا والله والوجود واحدة وتمثّل وجوداً واحداً ومترابطاً مع الكلّ، ولكن هذا المركز يعمل على إيجاد سبل الإفتراق والتمايز، وفي هذا الإفتراق يوجد خوف عميق، فالإنسان يرى نفسه موجوداً وحيداً ومنفصلاً عن الكلّ في مقابل سيل عظيم من الكراهية والأحقاد والعدوان من قِبل الآخرين.

وهنا لابدّ من الإشارة لنكتة مهمّة، وهي أننا عندما نقول (الفكر) أنّ الفكر يتدخّل في الحالة المعنوية وراء الفكر ويزيل وحدتها، فانّه قد لا يكون بياناً دقيقاً، فإنّ الفكر لا يتدخّل في تلك الحالة لأنّه لا يعرفها أساساً حتّى يتدخّل فيها، بل يعمل بصورة تخلّ بتلك الحالة، فبدلاً من أن يقوم بتحكيم

تلك الحالة على سلوكيّاتنا، فإنّه يتدخّل فضولاً ويجعل نفسه قيّماً على سلوكنا ويعرّف نفسه بعنوان حالة معنوية بدليّة وحاكمة على وجودنا ومجموعة سلوكيّاتنا، وهذه المعنوية البدليّة والفكرية هي السبب في الإفتراق والإنفصال لا تلك الحالة المعنوية وراء الفكر، والإنسان ينخدع بهذه المعنوية الفكرية إلى درجة انّه يتصوّر أنّها المعنوية الأصيلة وينفصل عن ذاته الحقيقيّة ويبتعد عنها.

إذاً فأوّل مسألة ناشئة من الهوية الفكريّة هي أنّ الإنسان ينفصل من الوحدة الكليّة للعالم ويشعر بفرديّته ويحسّ بالصغر والوحشة العميقة، وقبل ذلك أي قبل تشكيل هذه الظاهرة في الإنسان كان هذا الشخص جزءاً من عالم الوجود بدون أن يشعر بالعظمة والكبر، ولكنّه بعد تشكيل هذا القالب الفكري يشعر بالوحدة والإنفراد لصغر القالب الذي حشر نفسه فيه، لأنّه يرى نفسه أنّه عبارة عن هذا القالب، وهذا القالب بسبب وجوده في الفكر فهو صغير ومحدود.

إلى الآن علمنا أنّ الهويّة الفكرية تجعل الإنسان منفصلاً عن ماهيّته الأصيلة أوّلاً، وثانياً تقطع رابطته مع عالم الوجود، والمسألة الأُخرى المترتّبة على ذلك هي أنّها تعمل على تجزئة الذهن قطعة قطعة، لأنّ الذهن قبل ورود الهويّة الفكرية (الأنا) كان يفكّر بالكل وله حالة كليّة كالمرآة التي تعكس جميع الصور على شكل صورة واحدة، ولكن بعد ورود هذه الظاهرة وتشقّق الفكر إلى مئات التصاوير التي تتشكّل منها الأنا يعمل الإنسان دائماً بعنوان مندوب عن أحد هذه الأنا الكثيرة في الذهن، ومن أجل درك هذا المطلب ينبغي الإلتفات إلى عمل الفكر في الإنسان، فأنت الآن تفكّر بأنّك إنسان متواضع، وبعد ذلك تفكّر بأنّك إنسان مضحّي وكريم،

وبعد ذلك تفكّر بأنّك إنسان عاجز أو ناقص أو ذليل أو حقير، ولكنّ الإنسان عبارة عن مجموعة وسيعة من عالم الوجود، وعندما تلاحظ نفسك من خلال منظار الأنا فإنّك تحدّد نفسك في إطار مجموعة بإسم «الأنا» ففي اللحظة التي تقول عن نفسك بأنّك إنسان حقير وذليل فقد حدّدت نفسك بهذا الإطار، أي أنّ الحقارة التي تشعر بها تكون بمثابة مندوب عن تلك المجموعة الذهنية، وهكذا تكون نتيجة إنكسار المرآة الذهنيّة وعدم إنعكاس عالم الوجود عليها.

الإنسان يرى الظواهر والأحداث عن طريق الأنا، وبما أنّ هذه الظاهرة منقطعة ومنفصلة أي أنّها تتشكّل من أجزاء فكريّة منفصلة بعضها عن الآخر، فكلّما نراه بهذه الوسيلة، فإنّه يحكي عن تلك الكيفيّة الجزئيّة، وهذا المعنى مثل الرجل الذي يقف أمام الصحراء الواسعة وينظر إلى هذا الطرف وذلك الطرف، في مقابل من يقف داخل غرفة صغيرة لا يرى فيها الخارج إلّا من خلال نافذة صغيرة فقالبنا الفكري له حكم هذه النافذة الصغيرة التي ننظر منها إلى العالم الخارج فلا تسمح لنا إلّا بإطار محدود من النظر.

الإنسان عندما يرى نفسه بوسيلة هذا القالب الفكري لا يمكنه إطلاقاً أن يدرك معنى الحياة، ولا يستطيع أن يتعلّم شيئاً من الحياة، لأنّ ذهنه مشغول بأحد أفراد الأنا المتعدّدة في الذهن، ودائماً يشعر أنّه في حالة صراع مع الآخرين، وعندما يرى نفسه من خلال «أنا» معيّن فسوف تتملّكه حالة من الإضطراب والقلق والأسر تسلب منه القدرة على التفكّر والتدبّر بأي شيء آخر، فالأسر في قبضة «الأنا» المنفردة هو أمر دائمي في مستمر طيلة العمر حيث يكون الإنسان أسيراً لأحد هذه الأنا الحاكمة على وجوده في تلك اللحظة ومن خلالها يرتبط مع الحياة.

فالنتيجة إنّ هذا التيار هو نوع من الإنقطاع والنظر المنفصل، يعني إنّ الإنسان يرى أنّ حياته بشكل مجموعة وقائع اتفاقيّة وغير متّصلة، فأنت بمثابة مجموعة كاملة، ولكنّك في نظر الأنا فقط إنسان كريم، لأنّك أقرضتني مقداراً من المال، فلهذا لا أستطيع أبداً أن أتصوّر وجودك بأكمله وأُدركك تماماً، فأنا أدركت من وجودك وشخصيّتك خصوصية الكرم والسخاء فقط وإرتبطت معك من خلال هذه الأنا الضيّقة.

الإنسان الذي ينظر للحياة من طريق الأنا فإنّ إدراكه من الحياة يكون جزئياً أيضاً، كالتلميذ الذي يحضر جلسات الدروس عند أساتذة متعدّدين، فإنّه يسمع كلمات من هذا الأُستاذ وأُخرى من ذلك الأُستاذ، ولذلك لا يمكنه أن يحصل على مجموعة موحّدة وواقعيّة من المعلومات، فإنّ التعليم لابدّ له من ذهن كلّي ونظرة كليّة مرتبطة مع بعضها لا بذهن متقطّع وبفكر متجزّئي ويمكن القول بدون مبالغة أنّ إنسان الهويّة الفكرية لا يتعلّم شيئاً من الحياة إطلاقاً، لأنّ (التعلّم) أساساً له معنى لا يمكن للذهن المحدود إدراكه، فنحن لدينا معلومات عديدة وكثيرة ولكنّنا قد إقتبسنا بعضها من الآخرين وعملنا على خزنها في الحافظة أو حصلت لدينا من خلال التجربة في الحياة، ويمكن أن يكون لدينا علم كثير ولكنّ ذهننا ليست له القابلية على التعلّم، فإنّ التعلّم بمعناه الواقعي ليست فيه معنىً للكميّة، بل إنّ الكيفيّة هي المهمّة، والذهن المتعلّم يكون في حالة تعلّم مستمر دون أن يجد نفسه واقعاً في تلك الحالة، ولذلك يمكن للبعض أن تكون له معلومات قليلة، ولكنّها أصيلة ولها حقيقة واقعاً، أمّا الذهن المنقطع فيمكنه أن يخزن في ذاته آلاف المعلومات من دون أن يتّصل بالمعلومات الحقيقيّة والمعارف من الطراز الأوّل (ومن أجل أن لا ننقطع من إرتباطنا

المتسلسل مع البحث نترك فصل التعلّم إلى إشعار آخر ولكنّه موضوع مهم جدّاً).

(الهويّة الفكرية) لا تعمل على كسر أذهاننا وتجزئته وتجعلنا ننظر إلى الحياة بصورة وقائع متجزّئة ومنفصلة فحسب، بل أنّها تسلب من الذهن النظر الواقعي للعالم كليّاً، يعني أنّها تجعل على أن يكون الإنسان لا يرى حتّى الأُمور الجزئيّة وما يراه من الجزئيات لا تتعلّق بالوقائع والحقائق في الحياة، بل هي تصوير شخصي وذهني للأنا على الواقعيّة، فعندما يرى الإنسان نفسه من خلال هذا القالب إلى الواقعيات فمثله كمثل الذهن الذي يرى صورة من الواقع في حين أنّه يرى صورة ذهنيّة فحسب، ويتصوّر أنّه يرى الواقع، فصفة السخاء مثلاً في الإنسان تعكس له صورة ذهنية عن نفسه.

ومن هذه الحادثة تنشأ مسألتين أساسيّتين: أحدها: الجهل الكلّي، والأُخرى: الإختلاف وعدم تلاؤم الإنسان مع الآخرين، لأنّ النظر بمنظار (التعبير والتفسير) الذي يتولّد من الهويّة الفكريّة أساساً هو نظر ذهني وفكري فقط، ولا يتّصل بالواقع بالموضوع الخارجي، بل هو ظلّ يلقيه الذهن على الواقع، وهذا بمعنى الجهل بشكل عميق وواسع، والسبب في الإختلاف وعدم تلاؤم الناس مع بعضهم ناشيء من هذه الطريقة في التفكّر أو التفكير القالبي، فأنت تقوم بعمل معيّن وتجعل له إسماً معيّناً في قالب خاصّ، فلو قمت أنا بنفس تلك العمل فسوف أضعه في قالب مغاير لقالبك أنت وأراه من زاوية أُخرى بشكل آخر، وبما أنّنا نعتقد بأنّ هذه القوالب النفسيّة هي واقعيّة ولا نشكّ في أصالتها فلذا نتعصّب في الدفاع عنها والنتيجة هي الإختلاف والحرب وعدم التلاؤم بيني وبينك.

وقلنا بأنّ الإنسان ينظر إلى العالم الخارج من طريق هذه القوالب ونعلم أنّ القوالب هي ظاهرة موجودة في الحافظة، فكلّما يوجد في الحافظة له حالة القِدَم وأنّه غير جديد سواءً كان قبل ثلاثين أو أربعين سنة أو قبل ساعة، فالتصاوير مثبّتة في الحافظة وبمجموعها تشكّل الهويّة الخاصّة لكلّ واحد منّا، فأنا قبل خمسين سنة إلى الآن أُكرّر في ذهني هذه العبارة: (أنا حقير أنا جبان أو محروم وعاجز وغير ذلك) وهذا التكرار يعني القِدَم، ويعني أنّنا نتعامل مع شيء قديمي دائماً وننظر إلى الحياة والوجود الخارجي من طريق هذا الشيء القديم والميّت والمتلاشي، فعلى هذا تكون جميع الأشياء والأُمور المنظورة تتّخذ صبغة القِدم وتتحوّل إلى أُمور ميتة وجامدة، ويمكن القول بدون مبالغة أنّنا عندما ننظر من خلال قالب الهوية الفكرية لا يمكننا إطلاقاً أن نرى الحياة وأحداثها بصورة جديدة ولا يمكننا إستشمام رائحة الحياة الطريّة أبداً، فالحياة هي حركة متجدّده ومستمرّة ودائماً في حالة تجدّد ولكنّنا ننظر إليها من خلال وسيلة قديمة وبالنتيجة تكوّن بلون قديم، ولنفترض انّني بالأمس وأقبل ثلاثين سنة رأيتك تعمل عملاً معيّناً مثلاً تتصدّق على فقير أو تعتدي على آخر ففي ذلك الوقت تنطبع صورتك في ذهني بأنّك إنسان كريم أو شجاع، فأوّلاً أنّ هذه التصاوير الذهنيّة عنك في ذهني إنّما هي بمقياسي الشخصي ومقدار تصوّري عنك، وثانياً أنّني اليوم وغداً وأعوام متمادية بعد ذلك أراك بتلك الصورة القديمة يعني أنّني أراك ثابتاً، وكذلك رؤيتي لنفسي من خلال هذه الماهيّة الذهنيّة، فأنا قبل أربعين سنة أعيش بتلك الظاهرة القديمة التي حلّت في وجودي وذهني وأتحمّل وجودها المتعفّن، فهل هذه مشكلة يسيرة؟ لا أعلم هل توجّهتم إلى كيفيّة الإحساس بالمشكلة وكيف انّنا نهرب من مواجهة هذه

المشكلة وانّنا في حالة لهو ومشغلة مستمرّة للتغافل عن وجود هذه الظاهرة الخطيرة؟ كلّ ذلك لأنّنا نشعر في ذواتنا بالملل والقِدَم والرتابة، وقيل أن أحد العرفاء عندما دخل إلى مجلس فيه مجموعة من الناس قال **(انّني أشمّ رائحة التعفّن للأنا)** فالأنا واقعاً وجود متعفّن، فنحن نشغل أنفسنا بنشاطات تافهة من أجل أن لا نشعر بالملل من وجود الأنا في ذواتنا ولكي نتجاهل وجودها، وإلّا فلماذا نشعر بالتعفّن في ذواتنا إذا التفتنا إليها؟

(الهويّة الفكريّة أو القالب الذهني) مضافاً إلى انّه قديم ومتعفّن فله كيفيّة ميكانيكيّة أيضاً، ففي حالات الإنسان الأصيلة هناك نوع من التنوّع (والمراد من التنوّع الكيفية المتجدّدة وفي حالة الصيرورة الدائمة مثل الماء الجاري) فحالات الطفل دائماً في تغيير مستمر وكيفيّة حالاته تختلف في حالة بعد أُخرى، امّا بعد أن تترسّخ هذه القيم العنوانيّة في ذهنه فإنّها تحلّ محل الحالات المعنوية الأصيلة ويتبدّل وجوده إلى جهاز ميكانيكي وقالب يتحرّك بأزرار معيّنة (أي الصفات والقيم) وحركته لا تتفاوت ولا تتنوّع بل على وتيرة واحدة.

ومعنى مجموعة هذه الأحداث أنّ الإنسان يفقد حريته الذاتية والداخلية بصورة أساسيّة ويصبح أسيراً في القالب الذهني المعيّن الذي تمّ تحميله وتلقينه من الخارج، وعندما تمّ تحميل هذا القالب لم تكن لديه قوّة التمييز والقدرة على الإدراك الصحيح، فالإنسان القالبي يفتقد الحرية في تفكيره وإحساسه وفي آماله، وبشكل عام في جميع جوانب حياته، ويفتقد الإطّلاع والعلم في هذه الأُمور، وتكون مجموعة حياته على شكل كيفيّة عمياء ليس فيها قدرة على التمييز ومعرفة الواقع، وفي الحقيقة فانّ بعد حاكميّة الهوية الفكرية على الإنسان فالإنسان الحرّ

والعارف يتبدّل إلى إنسان أسير ومجبور وجاهل.

إلى هنا إنتهى كلامنا في هذا اليوم نأمل أن يكون بحثنا هذا اليوم قد أوضح لنا قدراً من هذا الموضوع ونحن بإنتظار الأسئلة.

سؤال: أنت تقول أنّ الإنسان بعد حاكميّة الهوية الفكرية يتبدّل من إنسان حرّ وواعي إلى إنسان مجبور وجاهل، والمفهوم المخالف لهذا الكلام هو أنّ بدون حاكميّة الهويّة الفكريّة على الإنسان يكون حرّاً وعارفاً أيضاً، في حين أنّ الحقيقة ليست كذلك، فالإنسان على كلّ حال محكوم بأن يكون إمّا بهذه الصورة أو بتلك الصورة، ولنفترض إنّي كنت خشناً أو متلائماً فإنّي لم أنتخب هذه الصفات لنفسي بإختياري بل إنّي محكوم لها ومجبور بها بأن أكون خشناً أو ملائماً، والكلام في المعرفة والعلم كذلك أيضاً، فما الدليل على أنّه في صورة حاكميّة الهوية الفكرية على الإنسان لا يكون عالماً وعارفاً، وما الربط بين هذه الأُمور؟

الجواب: إنّ ما تقوله صحيح من وجهة نظر فلسفيّة، فالإنسان بأحد المعاني العميقة والأساسيّة مجبور أن يكون كذلك أو بصورة أُخرى، ولكن ينبغي الإلتفات إلى أنّ الإنسان في حالاته الطبيعيّة لو كان مجبوراً فإنّه لا يحسّ بهذا الجبر، لأنّ كيفيّة الإجبار جزء من ماهيّة، وعامل الجبر لا ينفكّ عن وجوده، لذلك لا يشعر به، مثلاً إذا كانت الخشونة من ذاتياتك وجزءً من وجودك، ولكن الخشونة الفعليّة المتجذّرة في الأنا تمّ تحميلها من الخارج، مثلاً يقال لك أنّ الخشونة علامة الشخصيّة القويّة ويُلقى لك هذا المفهوم.

سؤال: بالنسبة إلى الهويّة الفكرية نحن أيضاً لا نشعر بالإجبار، فالوضع الموجود بنظرنا إعتيادي وطبيعي تماماً، ونتصوّر أنّ الحياة الطبيعيّة هي بهذه الصورة.

الجواب: أجل نحن نشعر أيضاً بشكل غامض ومبهم بالإجبار، غاية الأمر أنّ هذا الإحساس أصبح إعتياديّاً لنا، فعندما يقال لنا تعالوا وحاولوا القضاء على هذه الهوية الأجنبية والمخرّبة لكي تعيشوا في راحة وفي حياة أصيلة، فأوّل جواب تسمع أنّنا لا نستطيع، ألا تحكي عدم الإستطاعة هذه عن انّنا نشعر بالأجبار بصورة خفيّة؟ هل نشعر بأنّنا مجبورين أن نتلائم ونعيش مع هذه الهوية المفروضة؟

وسؤالكم الآخر عن المعرفة والعلم، وقلتم بأنّه ما الدليل على أنّ الإنسان بدون الهويّة الفكريّة عالم، الدليل على ذلك بسيط، وهو أنّ عوامل الجهل سوف تنعدم فينا ولا يمكنها أن ذهننا وتجعله مظلماً، فيكون ذهن الإنسان حينئذ على إرتباط حقيقي بالواقع الموضوعي في الخارج، ونرى كلّ شيء كما هو واقعاً، لا كما يتصوّر في ذهنه الذي هو مجموعة إلقاءات تحميليّة من الخارج، فبدون هذه العوامل سيكون إدراك الإنسان عين العلم والمعرفة.

سؤال: أنت تقول بأنّ لابدّ من أن ننظر إلى سلوكنا وسلوك الآخرين كما هو في الواقع، يعني أن لا نسعى إلى تفسيره بحسن أو قبيح وذو قيمة وليس ذا قيمة، فالسؤال هو، كيف يمكن التربية؟ وما هو دورها حينئذ؟ وهل أنّ موضوع التربية منتفٍ أساساً؟ ولنفرض أنّ الطفل ذاتاً له طبيعة خشنة ويعتدي على الأطفال الآخرين، وهناك أطفال مسالمين مهما واجهوا من أذى وعدوان فلا يدافعوا على أنفسهم، فكيف يمكن تربية هذين النمطين من الأطفال؟ فلو لم يدافع الطفل عن نفسه وجب أن نلقّنه وجوب الدفاع وكيفيّته لكي لا يضحى إنساناً جباناً وذليلاً.

الجواب: إنّ جميع الأسئلة هذه تحكي عن وجود نوعين من النظر إلى

الخارج ونوعين من الرابطة، ولم يتّضح لحدّ الآن ما تحدّثنا عن هذه الأُمور، أوّلاً لا يوجد كائن لا يدافع عن نفسه فإنّ كلّ موجود بإقتضاء طبيعيّته وماهيّته لديه وسيلة خاصّة للدفاع، فعندما يجد الطفل ضرورة الدفاع سوف يدافع عن نفسه بشكل تلقائي، ولنفترض أنّه لم يدافع عن نفسه ونحن أردنا أن نعلّمه أنّ الدفاع ضروري، فهل يجب أن نعلّمه الدفاع عن وجوده الإنساني أو وجوده الذهني؟

سؤال: ليس لنا نظر للوجود الذهني، بل نعلّمه كيفيّة الدفاع عن وجوده الإنساني.

الجواب: نحن وإن قلنا لفظاً أنّ نظرنا ليس متوجّه إلى الوجود الذهني، ولكن توجّهنا في الباطن إلى الوجود الذهني، فلو كان النظر إلى وجود الإنساني والواقعي فأنا أقول ينبغي أن نعلّم الطفل مثلاً أن يهرب في مواقع الخطر والعدوان، أليس منظورنا هو الدفاع عن وجود الواقعي وأن لا يصل الأذى إليه ويكون في مأمن من العدوان؟ إذاً فيمكنه بواسطة الفرار أن يحصل على هذا المطلوب؟ فما هو نظركم إلى الفرار بعنوان وسيلة للدفاع؟

سؤال: حينئذ يتبدّل الطفل بعد ذلك إلى إنسان جبان وذليل وعديم الشخصيّة.

الجواب: إذاً فأنت تلاحظ أنّ نظرك متوجّه إلى الوجود الذهني للطفل لا الوجود الواقعي.

وعلى أيّ حال فإنّ كلامنا هو أنّه مهما تنوّع أُسلوب التربية والسلوك مع الطفل فلابدّ أن نسعى فقط إلى عدم إلصاق عنوان ذهني في تفكيره، فلا ينبغي أن نجعل ذهن الطفل عشّاً للعناوين الإعتبارية والتصورية، يجب أن

نعلّم الطفل كيفيّة الدفاع عن نفسه، ولكن بصورة أن لا يكون يدافع عن عنوانه التصويري وأنّه (أنا شجاع وقوي وكذا وكذا) ونحاول إثبات هذه المعاني في ذهنه.

سؤال: لو إفترضنا أننا لم نلقّن الطفل الجبان أنّ الجبن شيءمذموم ألا يمكن أن يكبر هذا الطفل و تبقى فيه هذه الحالة من الخوف، وليس مقصودي الخوف التعبيري والتفسيري، بل نفس حالة الخوف يمكن أن تبقى في ذهنه.

الجواب: أوّلاً لا يمكن القول بأنّ الخوف شيء مذموم بل الخوف هو حالة طبيعيّة للإنسان مثل الحالات الأُخرى، فالخوف ردّ فعل طبيعي في مقابل الخطر الواقعي، وهو في الحقيقة له حكم جرس الإنذار، فلو لم يكن هذه الحالة الطبيعيّة في الإنسان فإنّه لا يمكنه تشخيص الخطر، والسبب في أنّنا نتصوّر أنّ الخوف شيء مذموم هو أنّنا تعلّمنا منذ الصغر إلى النظر إلى هذه الحالة بأنّها حالة سلبية ومذمومة بالتلقين الإجتماعي، والآن أنّنا نخاف من تصوّر الجبن أكثر من نفس الجبن.

ثانياً: على الفرض أنّ الخوف شيء مذموم فليس لدينا إصرار على إثبات أنّه غير مطلوب ومذموم، لأنّ هذا المعنى وهو أن يكون مذموماً أو ممدوحاً لا يؤثّر في أصل موضوعنا مورد البحث، فأنت تقول أنّه لو لم نقل للطفل أنّ الخوف شيء مذموم وسلبي فيمكن أن تبقى هذه الحالة فيه دائماً، فلنرى هل الحقيقة كذلك، الطفل له حالات ثابتة في ما لو كانت جزءً من فطرته ومعنوياته، وأمّا الحالات الأُخرى فتطرأ عليه بصورة اتّفاقية وبعوامل وبعد أن تزول تلك العوامل تزول هذه الحالة تلقائيّاً، فهذا الطفل قبل أن يدخل في مكان مظلم أو يسمع الصوت المهيب لم يكن لديه حالة الخوف وبمجرّد أن يدخل المكان المظلم تصيبه هذه الحالة وبعد أن يخرج

من الظلام تزول هذه الحالة وتعود إليه الحالة العادية، إذاً فالخوف معلول لأحد العوامل، وعندما لا يوجد ذلك العامل فالخوف لا يوجد أيضاً فما تقول أنت بعنوان أنّه حالة الخوف سوف تبقى في الطفل ليست هي حالة من الخوف الواقعي بل تصوّر ذهني من عدم القيمة والصفة المذمومة للجبن، فنحن دائماً نخاف من هذه الصورة الذهنية، أي الخوف من الحدث الموهوم، فهل أنّ كلّ هذه الحالات من الخوف والإضطرابات الدائمة ناشئة من وجود عوامل خطر حقيقية؟ كلّا طبعاً فهذه الحالات من الخوف والقلق المستمرّة ناشئة من تعرّض هذه القيم الذهنية إلى الخطر ونتصوّر انّه في كلّ آن سوف نتعرّض إلى زوالها، وفي كلّ آن سوف تواجه هذه العناوين العزيزة في نظرنا والمحبوبة لدينا لخطر الفناء، نحن نخاف من كلمة (جبان) وكذلك من كلمة (عاجز) ومن كلمة (ذليل) ومن كلمة (حقير) وأمثال ذلك لا من العوامل الخطيرة الحقيقيّة، فأنا لا أخاف أن تصفعني على وجهي، بل أخاف من أنّك بعد أن تصفعني فسيقفز إلى ذهني صورة أنّني إنسان عاجز وضعيف وجبان.

ولنفترض أنّ الخوف والحقارة والذلّة ونظائرها هي واقعاً كيفيات مذمومة وغير مطلوبة، والآن تعيش فينا، فلو لم يكن في أذهاننا مركزاً لها يدعى بالأنا فحتّى لو إفترضنا أنّنا على إطّلاع على هذه الكيفيّات المذمومة فإنّنا لا نتألّم منها ولا نعتبرها مسألة عسيرة ومؤلمة، ولو لم تكن ظاهرة بإسم الأنا في ذهنك فسوف لا تعرف أنّ الخوف هو كيفيّة غير مطلوبة ومتعلّقة بك شخصياً، أنّك تنظر لها بنظر غير شخصي أي تنظر لها على أنّها موجود من الموجودات وكائنات من الخلقة دون أن تنسبها إلى نفسك وإلى الأنا، فلا تكون حينئذ مسألة مهمّة، فلو كان الخوف والحقارة أو المسائل الأُخرى في وجودك أو في وجودي أو الآخرين، فهل سوف تكون من

أسباب الألم والقلق لديك؟ وهل أنّ المسائل من هذا القبيل الموجودة فيّ باعثة على ألمك وخوفك وتعاستك؟ كلّا طبعاً، فلو نظرت إلى نفسك بدون «الأنا» فإنّ جميع الأُمور من هذا القبيل سوف تكون قابلة للتحمّل وغير مؤلمة كما لو كانت في شخص آخر، (ينبغي الإلتفات إلى أنّ المراد من ذلك المسائل النفسية لا الجسمية رغم أنّ هذا الموضوع صادق أيضاً في المسائل الجسمية إلى حدٍّ كبير).

سؤال: لو لم يكن لديّ (أنا) فمن المحتمل أن تؤلمني مسائل الآخرين من هذا القبيل وتكون مؤذية لي.

الجواب: صحيح ولكن في هذه الصورة تكون مسألة الإنسان لا مسألة «الأنا»، والألم الناشيء من ذلك لا تكون له كيفيّة شخصية وسوف يكون الألم متفاوتاً كثيراً عمّا نشعر به فعلاً، وأساساً فإنّ كلمة الألم لا تُعدّ حينئذ كلمة مناسبة لذلك بل لعلّ كلمة (الإحساس بالشفقة والرأفة) أفضل.

سؤال: بنظري أنّ كثير من هذه القيم والصفات الإعتبارية مفيدة ولازمة، فمثلاً ما هو ضرر أن يظهر الإنسان الكرم وأنّه إنسان كريم أو متواضع أو مضحّي حتّى لو كانت هذه الأعمال بدافع من القيم الذهنية بل حتّى لو كانت بدافع من المنافسة، وثانياً لو لم تكن هذه القيم فمن الغير الممكن أن يتمّ تشخيص الحسن من القبيح، ولنفترض أنّ أحد القيم الإجتماعية أنّ الإنسان ينبغي أن يكون عفيفاً تجاه الناس خاصّة النساء ويكون ذا غيرة بالنسبة للرجل، فلو لم تكن هذه القيم الذهنية فكيف ستكون حالة الأخلاق في المجتمع؟

الجواب: إنّ القيم بعد أن تثبت بالذهن تشكّل لها مركزاً، وهذا المركز الذهني في ماهيّته مخرّب ومضرّ وشيطان وشرّير ويجعل جميع القيم مضرّة

أيضاً ويستخدمها في طريق الشرّ، ويمكن أن تكون لبعض القيم فائدة ظاهرية وجزئية، ولكن بشكل عام ونظر واسع تكون جميعها مضرّة ومخرّبة، فأنت بحكم عنوان الكريم تعطيني مقداراً كبيراً من المال، تهدي إليّ مليوناً من الأموال، ولكن ينبغي الإلتفات إلى أنّ ليس في وجودك هذا العنوان فقط، بل هناك عنوان (الذكي والذي لا يقبل الخداع) ومن أجل تحقّق هذا العنوان يستخدم الإنسان منتهى القساوة والعدوان بالنسبة للآخرين، ومن جملة ذلك يسعى إلى تجميع الملايين والثروات الكثيرة حتّى يعطي من هذه الملايين مليوناً واحداً إلى الآخرين لكي يحصل على عنوان الكريم، وحتّى هذا العطاء يكون من أجل أن يحصل على عنوان آخر.

وعلى كلّ حال أنا أسأل منكم بأنّه أساساً ما المانع أن تعطي إلى الآخرين من دون أن ترسّخ في ذهنك عنواناً، فعليك بعمل الجود والكرم ولكن لا ينبغي صناعة عنوان من هذا الكرم والصاقه في «الأنا» فأنت تعطيني مليوناً وفي نفس الوقت ينبغي أن تجعلها مسألة منتهية ومختومة ولا تراها بعد ذلك في ذهنك ولا تجعل منها رابطة ذهنية بيني وبينك، فعندما تثبت هذا الكرم في ذهنك بعنوان أنّني إنسان كريم فانّ «الأنا» سوف تكون عند ذلك أهمّ من نفس عمل الكرم، وحينئذ لا يكون العمل الإنساني مهمّاً في نظرك بل أنا الكريم هي المهمّة، فأنت تنظر حينئذ للقيمة لا للعمل وحينئذ ففي كلّ وقت تشعر بأنّه سوف لا يعود عليك الكرم بعنوان ولقب فسوف لا تقوم بهذا العمل الإنساني، وحينئذ ففي الحقيقة أنت لا تقوم بعمل إنساني وتكرم الآخرين، بل هو نوع من المعاملة، فأنت تعطي المال لكي تحصل على العنوان، أمّا الكرم والعطاء الذي هو حالة

أصيلة وميل معنوي في فطرة الإنسان فليس فيه توقّع التعويض والعائد إطلاقاً لا عائد مادّي ولا معنوي، فهذا الطفل يعطي من طعامه أو وسائل لعبه للطفل الآخر بنيّة أنّ ذلك الطفل الآخر سوف يقابله بالمثل يوماً ما أو بهذه النيّة أن يقول له أنّك إنسان كريم ليس كذلك بل أنّه يعطي من أجل أنّه يريد أن يعطي ويتواضع ويضحّي ويعمل من هذا القبيل من الفضائل كذلك، وكلّ صفة يكون لها محتوى وأصالة فيما إذا كانت بدون هويّة فكرية بل تأتي إلقائياً وبدافع فطري، فالفضيلة الفكرية والتواضع الفكري والسخاء الفكري والتضحية الفكرية ليست فضيلة وتواضع وتضحية حقيقةً بل تظاهر من أجل تحقيق عناوين وتصوّرات ذهنية.

السؤال الآخر أنّك قلت أنّه لو لم تكن هذه القيم فكيف نعرف الحسن والقبيح؟ فأنا لا أقول أنّ القيمة وعدم القيمة ليس لها وجود واقعاً وكلّ شيء يحصل تلقائياً (والأفضل أن تستبدل في مورد الواقعيّات بدل كلمة القيمة وعدم القيمة كلمة المطلوب وعدم المطلوب) فالكثير من القضايا والظواهر وبشكل مطلق مطلوبة أو غير مطلوبة، ولكن القيمة وعدم القيمة هي أُمور لا إرتباط لها بالأُمور المطلوبة وغير المطلوبة أو يكون إرتباطها كالظلّ للأصل، ما أُريد أن أقوله أنّه تعالوا لنخرج هذه الظلال من الذهن حتّى تكون علاقتنا وإرتباطنا مع المطلوب وغير المطلوب بصورة مباشرة ونفس هذا الموضوع العفّة مثلاً والغيرة على الناموس، فنحن نعلم أنّ موضوع العفّة خاصّة للنساء في نظرنا نحن الشرقيّين مهم جدّاً ونحن على إطّلاع كامل على هذا الموضوع، ولكن نرى بعض الشباب حينما يذهبون من الدول الشرقية إلى اوربا وامريكا فانّهم بمجرّد أن يضعون أقدامهم هناك تزول هذه القيم من وجودهم وحتّى أنّ البعض يتزوّج من بناتهم ولا يهتّمون إلى كونهنّ

باكرات أو غير باكرات، وهذا هو نتيجة القيمة الذهنية التي لا تعتمد على أساس فطري بل تأتي من المحيط وتذهب إلى المحيط الخارج، فأنا أقول إذا كانت العفّة لها حكمة واقعاً فتعالوا لندرك هذه الحكمة ونتعرّف على فلسفتها بعنوان أنّها ضرورة إجتماعية ومطلوبة واقعاً، ففي هذه الصورة حتّى لو ذهبنا إلى اوربا وإلى كلّ مكان فسوف نحمل معنا العفّة ونعود معها ولا نتركها.

سؤال: كيف يمكننا القضاء على هذه الهوية الفكرية الأجنبية؟

الجواب: لا تستعجل سوف نتحدّث لاحقاً عن ذلك، وما يهمّنا فعلاً هو الإلتفات إلى هذا المعنى وأن نكون مستعدّين لإزالتها بأن ندرك جيّداً مدى نظرها ووخامتها وهدفنا من هذا البحث الفعلي هو بيان وخامتها، فإنّنا في الحال الحاضر وبسبب الإعتياد على هذه الحياة البدليّة لا نعرف ماذا سنواجه من المسائل، لأنّنا منذ الطفولة صحبنا معنا هذه التحفة الوهميّة وتمّ تلقينها لنا بالتكرار بأنّ هذه التحفة ثمينة جدّاً وضرورية، ونحن صدّقنا وأصبحنا عاشقين ومفتونين بها وشغلنا أنفسنا بها، ولحدّ الآن لم نجلس يوماً ونصارح أنفسنا ونرى هذه الظاهرة بوضوح وننظر إليها بصراحة، فلو رأيناها بهذه الصورة لرأينا أنّها ليست تحفة عزيزة، بل هي وبال ومصيبة على أنفسنا وأرواحنا، وعندما ندرك جيّداً عمق هذه المصيبة والبلاء، فحينئذ ستزول لوحدها ومن دون الحاجة إلى السعي وبذل الجهد.

* * *

الفصل الثالث

ماهيّة الأنا أو الهويّة الفكرية

بحثنا في البحث السابق عن الكثير من خصوصيّات الهويّة الفكرية والمسائل المتفرّعة عليها، والآن نستمرّ في ذلك الموضوع.

وكمقدّمة لبحث اليوم يجب أن نطرح هذا السؤال وهو ماهي وظيفة الفكر الطبيعيّة والذاتيّة؟ وهل أنّ الفكر يعمل بهذه الوظيفة الذاتية، أم لا؟

وظيفة الفكر بشكل طبيعي هي تنظيم رابطة الإنسان مع العالَم الخارجي، يعني أنّ عمله هو إدارة الجانب المادّي والواقعي من حياة الإنسان، فمثلاً علينا أن نفكّر في بناء البيت الذي نريد أن نسكن فيه، ونفكّر لمعرفة الذرّة والعلوم الطبيعية والذهاب إلى القمر والمسائل من هذا القبيل، فوظيفة الفكر هي حلّ هذه المسائل للإنسان، ولكنّ الفكر مضافاً إلى هذه الفعاليّات في دائرة هذه الموضوعات فإنّ له فعاليّة إضافيّة وبشكل فضولي ولا ترتبط بوظيفته الحقيقيّة إطلاقاً، وهذه الفعّالية الثانوية عبارة عن التدخّل في الأُمور الغير الماديّة، والفكر يورد نفسه في موضوعات من قبيل الروح الله، العشق، الحقيقة المعنوية ومسائل من هذه القبيل، في حين أنّ الفكر غير قادر على إدراك ماهيّة هذه الأُمور، لأنّ منشأ الفكر يعني الخلايا الدماغية ماديّ، والمادّة لا يمكنها أن تدرك ما سوى المادّة، والظواهر المعنوية لا تدخل في دائرة الفكر بأيّ كيفيّة وماهيّة، والفكر لا

يمكنه إدراك جوهرها، فعلى هذا فالإنسان الذي يسلّم مقاليد أُموره المعنوية بيد الفكر فإنّه قد إستخدم وسيلة غير سليمة تماماً، فعلى هذا تكون دخالة الفكر في المعنويات وسعيه للمعرفة وإدارة الجنبة المعنوية في وجود الإنسان هي عبث وإنحراف، كأن تتوقّع مثلاً من يدك أن تبصر أو تسمع.

من هذه الحقيقة يقفز إلى الذهن سؤال مهمّ، وهو أنّ الفكر لو كان أجنبيّاً عن الحالات المعنوية ولا يعرفها، إذن فكيف يدرك هذه الظاهرة التي سمّيناها بالهوية النفسية المعنوية؟

إنّ كلّ حالة معنوية لها محتوىً وكيفية غير معروفة، وكلّ لفظة وكلمة وعلامة تكون صورة لتلك الحالة، مثلاً حالة العشق هي كيفية وجوهر معنوي، وكلمة «العشق» بدورها تمثّل نائباً وصورة عن ذلك الجوهر الحقيقي، وكما قلنا أنّ الفكر أجنبي عن الجوهر والكيفيات المعنوية ولا يعرفها، الفكر يمكن أن يعرف الصورة لتلك الحالة المعنوية ويحفظها، ولكنّه لا يمكن أن يدرك جوهر ومحتوى تلك الحالة المعنوية، فعلى هذا فالإنسان الذي صنع من فكره هويّة معنوية له فإنّه بالمعنى الواقعي للكلمة إنسان فارغ وأجوف، وهكذا إنسان هو عبارة عن مقدار مجموعة من الألفاظ والكلمات.

أمّا الفكر فإنّه لا يجلس أمام هذه الظاهرة الفارغة والخاوية التي صنعها وقدّمها لنا بعنوان وجود معنوي، بل أنّه يتحوّل إلى آلة ذكيّة ووسيلة شيطانيّة للخداع من أجل رفع مسألة الخواء المعنوي لهذه الماهيّة الفكرية، ويبدأ بحياكة المؤامرات والمكائد ويجعل الإنسان غافلاً عن خواء هذه الهويّة، وموضوعنا هذا اليوم هو التحقيق في هذه المكائد والمؤامرات والحيل التي تطغى على القسم المهمّ من حياتنا وتشغلنا بها، فلهذا يجب

التدقيق بصورة جيّدة لمعرفتها، يعني يجب أن نعرف ما هي تدابير الفكر وحيله من أجل تضييع الأمر على الإنسان، ولكي يغفل عن خواء هذه الماهيّة؟

إحدى الحيل الفكرية (ويُرجى الإلتفات إلى أنّ الفكر والهويّة الفكرية كليهما ظاهرة واحدة وجريان واحد) هو أنّه يتعامل مع عدّة أُمور واقعية، أو الظواهر التي يفترضها أنّها واقعيّة ويلصق نفسه بها، ويجعل رابطة وثيقة بينه وبينها بحيث يتمّ إدغامها والتستّر على خواء «الأنا»، وبعبارة أُخرى أنّه من هذا الطريق يجعل نفسه بمثابة تلك العوامل والظواهر الواقعيّة ويتصوّر نفسه حقيقة واقعة أيضاً، ويصنع من تلك النظريات هويّة لنفسه ويقول بما أنّ النظام الفلسفي لماركس له حقيقة واقعاً إذاً فهويّته الفكرية عبارة عن تلك النظريات، فلها واقعيّة أيضاً، وهويّتي انّني إنسان مثقّف وثوري وعلماني وملتزم. وشخص آخر يقول هذا الكلام في نظريات سارتر أو هيجل، وشخص آخر يربط نفسه مع الثروة والمال والقصر والسيارة والعمل، أو يربط نفسه مع الدولة أو مع الشعب أو مع أقرباءه، وبما أنّ الثروة والدولة والعمل هي أشياء واقعيّة وحقيقيّة، فإذاً هويّتي الفكرية أيضاً لها واقعية كذلك، لأنّها مرتبطة برابطة وثيقة مع تلك الأُمور الحقيقيّة، أو أنّها بحدّ ذاتها هي نفس تلك الأُمور من الثروة والدولة وما شاكل.

أنت بأنّ الحرب بيني وبينك من أين تبدأ؟ والحرب بين الشعوب التي تتشكّل منّي ومنك على ماذا؟ لقد بنيت فكرك من نظريّات ماركس وجعلتها بمثابة هويّة لك، وأنا من نظريات شخص آخر، ثمّ بدأنا في النزاع والصراع في ما بيننا بعنوان الدفاع عن الحقّ والحقيقة، وفي الباطن هو الدفاع عن هويّة «الأنا».

الحيلة الأُخرى للفكر لكي يظهر نفسه أنّه حقيقة ظاهرة هو الكلمات التي طرحها لنا وشكّلت لنا هويّة خاصّة بنا بحيث نظنّ على أساس تلك الكلمات أنّ مقدار الأعمال والظواهر التي تصدر منّا هي من أجل حقيقة الأعمال وواقعيّتها، أي أنّنا بسبب واقعيّة الأعمال نظنّ واقعيّة الصفات والكلمات، في حين أنّ العمل لا يكون دلالة على صحّة الصفة كما قلنا سابقاً، والصفة لو كانت لها أصالة حقيقيّة كالصفات الفطرية لا تحتاج إلى عمل وتجلٍّ خارجي حتّى يطلق هذا العنوان عليها، وهذا لا يعني أنّها لا تتجلّى في الأعمال، بل المراد أنّها عندما لا تتجلّى فهي أيضاً موجودة، ولكنّ الصفات الفكرية تعتمد في وجودها على العمل، فأنت يجب أن تعمل أوّلاً ثمّ تستنتج وتنزع من هذه الأعمال عنواناً وصفة وتلصقها على الأنا: وبما أنّ العمل له واقعيّة فتتصوّر أنّ ذلك العنوان منتزع من هذا العمل الذي ألصقته بهويّتك أيضاً له واقعيّة.

وأحد الأسباب والدلائل على القلق في الإنسان هو أنّ الفكر يظنّ أنّه كلّما عمل أكثر فإنّه سوف تتعمّق فيه هذه الصفة وأنّه سوف يشعر بوجوده أكثر، وسبب القلق والإضطراب هو هذه الطفرات الدائميّة وهذا الإحتياج النفسي، ومثلنا مثل الأشخاص الذين يشعرون بالبرد فيتحرّكون ويقفزون إلى الأعلى والأسفل ليشعروا بالحرارة، فنحن في هدوئنا وفي حالة السكينة نحسّ بالبرد النفسي، ونشعر بأنّه لا وجود لدينا، وهذا القفز والحركات والطفرات في سلوكنا نحسبها بأنّها من فعّالياتنا ونشاطنا، ونحن غافلون أنّنا في الحقيقة لسنا نشطين وفعّالين، وهدفنا من جميع تلك الفعّاليات هي البحث عن عناوين للأنا، وبما أنّ الأنا هي ظاهرة مبتنية بالتصوّر والوهم، فهي بمثابة الفقاعة أو الغبار السائر في الهواء فهي عبث

وباطل.

الحيلة الأُخرى للفرار من الفراغ والخواء المعنوي في الهويّة الفكرية هو أنّه يبعد نفسه عن كلّ ما له واقعيّة ويسعى أن يتجنّب التدخّل في الأُمور الواقعيّة حتّى لا يقفز للإنسان إلى الذهن هذا السؤال بأنّه ما هي حقيقة وماهيّة الأنا والهويّة الفكرية.

وفي الأصل فإنّ هدف الفكر من إجتناب الأُمور الواقعيّة هي أن يبعد الأنا عن الحقيقة وكيفيّتها ولا يتسنّى للإنسان معرفة ماهيّة «الأنا»، ولكنّ هذا الحدث يسري لجميع الروابط والظواهر والأحداث في الحياة بحيث يكون الإنسان أجنبيّاً وبعيداً عن كلّ واقعيّة ويتهرّب من كلّ حقيقة، ولا يجد في نفسه النظر الواقعي للأُمور، وهذه المسألة هي عين الجهل الذي بدأ قبلاً واشتدّ بعد ذلك.

ومن أجل أن يطرح الفكر هذه المكيدة وهي الفرار من الواقعيّات ويوفّق في ذلك إستخدم عدّة أُطروحات فرعيّة، أحدها أنّه يسعى إلى أن لا يتوغّل إلى ما تحت معاني الألفاظ الظاهرية، بل يشغل نفسه بالكلمات ليضمن إبتعاده عن محتواها، لأنّه بالكلمات يمكنه أن يتلاعب بصورة أسهل ويخدع الإنسان، فأنا أستيقظ صباحاً وأقول بأنّني شيوعي، وغداً أستيقظ من النوم وأقول بكلّ سهولة بأنّني مسلم، أو أنّني من أهل العرفان ومثقّف، وكلّ كلمة أُريدها وكلّ عنوان أبتغيه لنفسي، وهذا المعنى يدلّ على أنّنا لسنا من أهل المحتوى، فلو كنّا كذلك لا يمكننا بهذه السهولة أن نكون كما نريد، لأنّ خلف كلّ واحدة من هذه الكلمات حياة كاملة ومنهج كامل من السلوك، فعندما أقول أنّني إنسان ثوري يجب أن أرى ما هو محتوى هذه الكلمة (الثوري) لأنّ هذه الكلمة هي مجرّد علامة على ذلك

المحتوى، ولكنّني لا أفعل ذلك، لأنّني لست بإنسان ذو محتوى، بل إنسان لفظي، فأساس الهوية الفكرية متشكّلة من كلمات، والتلاعب بهذه الكلمات ينسجم معي أكثر من المحتوى، فأساساً أنّي لست بإنسان ذا محتوى حتّى أنسجم معه.

والمكيدة الأُخرى للفكر للفرار من الواقعيّات هو أنّه يجعل الإنسان غافلاً عن حاله الحاضر الذي هو الواقع فقط، ويجعله دائماً في زمان وهمي وذهني وغير واقع، أي الزمان الماضي والمستقبل، أمّا الزمان الحاضر فهو الزمان الذي تقع فيه حركة الحياة فقط، والإنسان الذي لا يعيش لحظة في الزمان الحاضر أساساً ليست له حياة واقعيّة، وقد فقد حياته، ومشغوليّة الفكر بالزمان بمعنى مشغولية الذهن بمحتوياته لا بما يجري في الحياة واقعاً، ومحتوياته ليست شيئاً سوى التصورات الفارغة والبعيدة عن الواقعيّة.

هل رأيتم كيف نتهرّب من اللحظة الحاضرة؟ وأحد الدلائل على الملل والعجلة وعدم الإطمئنان والقلق وحالة الضجر التي تصيب الإنسان هي التنفّر من اللحظات الحاضرة، وكأنّه نحن من عشّاق المستقبل، فننتظر بعديم الصبر أن تنتهي هذه اللحظة الحاضرة ويأتي المستقبل، وعندما يحلّ المستقبل الذي نحن نعشقه ويصبح حالاً نهرب منه ونفكّر في مستقبل آخر ونعشقه، فذهننا لا يقف في الحال الحاضر أبداً، ولا يتقدّم خطوة إلى الأمام مع الحال الحاضر، بل يستعجل ويقفز ويركض من الحال إلى المستقبل، نحن نضطرب إضطراباً عجيباً من الحال لأنّ الواقع هو ما يرتبط في الحال الحاضر، ونحن نخاف من مواجهة الواقع، بل ننظر إلى الوقائع بشكل سطحي ونمرّ عليها مرور الكرام ونتجاوزها بسرعة، ونقفز

إلى المستقبل الذي يصنعه ذهننا وكما نريد نحن يرسمه لنا الذهـن، ولهـذا نهرب من هذه اللحظة الحالية.

وينبغي الإلتفات إلى هذه النكتة، وهي أنّ مرادنا مـن الزمـان المـاضي والمستقبل الزمان الواقعي، والزمان الواقـعي ليس هـو الزمـان التـقويمي والنجومي بل المنظور الزمان الوهمي الذي يوجده الذهن لنا حتّى يسـتمرّ في هويّته الفكرية ويحافظ عـلى بـقائها وحـياتها، وطـبعاً هـناك بـعض الأشخاص الذين يتكلّمون بالفلسفة يرون أنّ الزمان ليس له واقعية إطلاقاً لا الزمان الذهني ولا الزمان الواقعي، وبما أنّ هذا الموضوع لا يرتبط ببحثنا فلذا لا نتطرّق إليه، وعلى كلّ حال فبحثنا هنا عن الزمان التـصوّري الذي يوجده ويخلقه ذهننا، فالذهن يتحرّك بإستمرار في خطٍّ زمانيٍّ غير مـرئي ويسافر إلى الأمس وقبل سنة وقبل أربعين سنة ويجمع مجموعة التجارب والحوادث التي حصلت له في مجموعة ذهنية ويتقدّم إلى اللحظة الحاضرة ويقول أنّك أنت ذلك الشخص الذي هو مجموعة تـجارب مـتراكـمة وأنّ هويّتك هو كذا وكذا. الزمان الماضي في الحقيقة هو حاصل مشغولية الذهن مع نفسه، فعندما يشتغل الذهن مع المحافظة ويتعامل معها فـيتولّد الزمـان الماضي ثمّ أنّ الذهن عندما يحفظ تلك المجموعة فيه يبدأ بالمقايسة مـع النماذج المثالية التي يريدها ويـرى أنّ هـذه المـجموعة ليست بـالمورد المطلوب والمناسب له وليست ذا قيمة، فعلى هذا يـرد فـي وادي الخـيال والآمال ويتأمّل تلك الصورة المثالية التي يريدها لنفسه، وبذلك ومن هـذا التفكير يحصل الزمان المستقبل تلقائيّاً.

نحن نشعر من فعاليّة الذهن في الحافظة، أي فعّالية الذهن في الماضي نشعر بالنقص وعدم الرضا والضعف، وعندما نقفز إلى المستقبل نشعر بنوع

من الإحساس بالفخر والعظمة الخيالية، وفي نفس الوقت تكون متقارنة مع الإحساس بالخوف واليأس والحسرة، فالذهن يعمل عـلى إيـجاد وخـلق الهويّة النموذجية والمثالية والممتازة للإنسان بحيث لا يشعر معها بالخوف والحقارة والنقص والعجز والضعف ومسائل أُخرى من هذا القبيل، ولكـنّه علم بالتجربة أنّ آلاف الغد والأيّام المستقبليّة جاءت وذهبت ولكنّ الهويّة الفكريّة بقيت على حالها، وهذا الأمر يـوجب للإنسـان اليأس والحسـرة العميقة بالرغم من أنّ الإنسان لا يميل إلى رؤية هـذه الحـقيقة بـصراحـة ويعترف بها، ولكنّه يدركها في ذاته جيّداً، وأنّ الأمل بالمستقبل ليس سوى أمل فارغ وواهٍ.

وقلنا أنّ أحد المكائد الأساسيّة للفكر لعدم رؤية خواء الهويّة الفكرية هو أنّه يبعد نفسه بشكل عام عن كلّ ما هو واقعي حتّى يبقى أجـنبيّاً عـن حقيقة «الأنا»، ومتقارناً لهذا العمل هناك حيلة فرعيّة أبدعها الفكـر أيـضاً وهي أنّه يأتي ويعطي للآخرين نيابة ضمنيّة حتّى يعيّن له هـويّته، ويـقول لهم بلسان خفيّ بأنّني لا أعلم ما هي هويتي فـعليكم أن تـقولوا مـن أنـا، وأحد أسباب إهتمامنا بنظر الآخرين لنا وقضاوتهم عنّا هو هذا المعنى وأنّ الآخرين في الحقيقة هم الذين يشخّصون لنا هويّتنا النـفسيّة، وحـياتنا أو موتنا مرتبط بنظر هؤلاء وقضاوتهم، فكلّ ما يـقولون فـهو حـجّة وقـابل للإعتماد، فأنت لو قلت لي بأنّني إنسان جاهل فسوف أُصدّقك، ولو قـلت أنّني إنسان عالم فسوف أُصدّقك أيضاً (وهل هناك دليل أوضح على لفظيّة الهوية الفكرية وخوائها من هذا، فلو كان لهذه الظاهرة محتوىً واقعي فهل يمكنني أن أتقلّب بهذه السهولة من هنا إلى هناك؟).

الإنفصال والإبتعاد عن حقيقة الأنا وتـوكيل الآخـرين بـالنيابة عـنّي

للتعريف بهذه الهويّة يجعل الإنسان غافلاً عن ماهيّة هذه الهويّة الفكـرية، ولكن تدريجيّاً سـوف تسـري هـذه الحـالة إلى جـميع وجـود الإنسـان، وبشكل عام سوف يكون أجنبيّاً عن كلّ أُمور الحياة وعن كـلّ شـيء فـي عالمه وحياته من الفكر والإحساس والإدراك والعـطف ويـجعلها بشكـل غامض، فنحن نرى الكثير مثلاً يجعلون وقتاً محدّدا لغذائـهم مـن دون أن يشعروا بالجوع في ذلك الوقت، وكأنّهم أوكلوا أمر النيابة عن مـعدتهم إلى الساعة، وهكذا في مورد النوم والتعب أو الميول الجنسية، فهم لا يـعلمون دقيقاً ماذا يريدون وماذا لا يريدون، ولا يعلمون مـاذا يـحبّون مـن غـذاء وماذا ينسجم وماذا لا ينسجم، وجميع هذه الأُمور هم أجانب عـنها وعـن الحياة معها، فالإنسان في هويّته الفكرية لا يمكن أن يكون ذكيّاً ولا يمكن أن يفتح بصره إلى الحياة وينظر لها بصراحة، ولذا فهو دائماً ينظر إلى الحياة بعين نصف مفتوحة حتّى لا يرى جيّداً الأُمور الواقعيّة، لأنّ إتّضاح الحقائق لا ينسجم مع الهوية الفكرية.

والآن لاحظوا فيما يترتّب على إعطاء النـيابة للآخـرين مـن مـصائب ومشاكل، وانظروا كيف أنّ هذه الظاهرة الأجنبية قـد أحـاطت بـالإنسان واستأصلته من جذوره، وقلنا أنّ فلسفة إيجاد الهوية الفكرية هي من أجل المنافسة، ومجموعة الهوية هذه بمثابة حـربة ووسـيلة للـصراع والتـفوّق على الآخرين، بعد ذلك نرى أنّ نفس هذه الهويّة تسلك بنا إلى حدٍّ نكـون محتاجين بشدّة إلى الآخرين، أي الإحتياج إلى المنافسين والرقباء، فأنـا أحتاج أن أكون أذكى وأعلم منك حتّى يمكنني أن أستغلّ هـذه العـناوين كوسائل حربية في صراعي معك، ولكن لابدّ أن يوجد هناك عـامل يـؤيّد وجود الصفة الذكاء فيّ، وهـو أنت بـالذات، وأنت بـدورك أيـضاً بـدليل

المصلحة العنوانية لا تقدم على هذا العمل، أي لا تؤيّد وجود هذه الصفات فيّ، لأنّك في الواقع منافسي ورقيب لي، وتأييدك لصفاتي هذه بمعنى نفيها عنك، لأنّنا نعلم أنّ هذه الصفات إعتبارية ونسبية، ولا يمكن أن تكون قابلة للتصوّر والإستمرار إلّا من طريق المقايسة، فلو رأيت صفة ذات قيمة فـيّ فإنّ ذلك يعني إنكار وسلب هذه الصفة منك، ففي هذه الصورة كيف يمكننا أن يُعطي أحدنا للآخر حربة واقعية ليستخدمها لتحطيم الآخر، نـحن فـي روابطنا سلبيون أكثر من كوننا إيجابيّون، وهذه الحقيقة تخطو معنا في كلّ أُمور حياتنا، فأنا أسعى إلى أن أطعنك بلساني تحت قناع النصيحة الأخوية، وأسعى بكلّ طريق إلى تحطيم عناوينك وقيمك في التظاهر بثروتي وأثاث بيتي المجلّل، أو بإبني الذكي أو حتّى بسكوتي العرفاني، والخلاصة بكـلّ طريق أسعى أن أُحطّم من قيمك وأنسب لنفسي مكانة أفضل منك، وعـلى الرغم من جميع أنواع التظاهر الإنساني بيننا وعلى رغم جميع التـبريرات التي نصوغها لتبرير سلوكنا فإنّه يمكن رؤيّة الميول المخرّبة والنيّات السيّئة بوضوح خلف هذه الأعمال والنشاطات.

ومن الواضح أنّ في هذا الحال فإنّ الناس لا يمكن أن يعيشوا بـروحيّة التعاون والعشق والأُخوّة الصادقة، فإنّ حاجة الفـرد العـنوانـيّة والوهـميّة تدفعه إلى الخوف والتنفّر والعداوة، نحن نحتاج أحدنا للآخر بشدّة، ولكنّنا نبخل ونرفض أي لون من ألوان التعاون والمحبّة، وفي هذه الحـال تكـون علاقاتنا قاسية وغير منسجمة، فنحن مثل المتسوّل الذي يعيش بصدقات الآخرين، فلو إنقطع رزقه منهم فإنّ حياته ستتعرّض للخطر، وعادةً فإنّنا لا نحصل على تلك الصدقات من الآخرين، ولهذا السبب فإنّ نـفسيّاتنا فـي الأغلب منحطّة ونعيش في كآبة مزمنة، ولذلك أيـضاً نشـعر بأنّـنا لكـلّما

تقدّمنا في السنّ فإنّ روحيتنا وعشقنا للحياة يضعف ويصيبنا الملل من هذه الكيفية النفسية في الحياة، فيوماً بعد آخر يقلّ غذائنا المعنوي، وتكون الصفات والقيم العنوانية بمثابة الغذاء الروحي لنا.

الحيلة الأُخرى للفكر لإظهار نفسه بمظهر واقعي هو إستعمال وإستخدام الإحساسات والعواطف، فإنّ الفكر والهوية الفكرية التي تتكوّن من الألفاظ تشعرنا بكلّ لفظ بإحساس معيّن حتّى توحي لنا بأنّ لها جنبة واقعية، فعند ما يقال لك بأنّك إنسان قوي وعالم ولم تشعر في نفسك بشيء تجاه هذه الكلمات، فمن الطبيعي أنّك سوف لا تكون حريصاً على حفظ هذه العناوين والكلمات، ولا تكون مستعدّاً لقبول بعض الألفاظ الخالية والجافّة بعنوان أنّها ماهيّتك وشخصيّتك، إذاً فإنّ الفكر يشعر بهذا الخطر ويقوم بإيجاد نوع من أنواع الإحساس ينسجم مع كلّ كلمة حتّى تتصوّر أنّ هذه الهويّة الفكرية لها واقعيّة وراء الكلمات والألفاظ.

ولابدّ من توضيح هذه النقطة، وهي أنّنا لدينا نوعين من الإحساس، **أحدهما**: ما كان له منشأً فكريّاً، والآخر: الإحساسات المستقلّة من الفكر، وفي اللغة الانجليزية هناك إصطلاحان لكلّ نوع من هذين الإحساسين، فالإحساسات التي يكون منشؤها الفكر يُطلق عليها كلمة (**Object**)، فنلاحظ أنّ هناك إحساسات في الطفل ولا نعلم المنشأ لها، ولكنّنا يمكننا القول فقط بأنّ هذه الإحساسات ليس منشؤها الفكر، فالطفل عندما يفكّر بأنّ أباه رئيس أو أنّ له مقاماً إجتماعياً، فلا يشعر بالفرح لذلك، أو أنّه لا يفكّر أوّلاً بأنّه يفتقد المكانة الإجتماعية اللازمة، ثمّ يحزن على ذلك، في حين أنّ إحساساتنا الفكرية ناشئة من الفكر وردود الفعل الفكرية، فأنت تفكّر بأنّك رئيس أو فنّان أو ذا مكانة إجتماعية مهمّة، ثمّ تشعر باللذّة،

فالإحساسات الفعليّة لنا في الواقع هي الضمان لبقاء هويّتنا الفكرية الجافّة والخاوية والتي تتشكّل من كلمات وألفاظ، والسبب في أنّنا نهتّم كثيراً لمعطيات اللذّة في كلّ موضوع وفي كلّ نوع من أنواع الإرتباط لأنّها تشكّل بمثابة البديل حيث أنّنا فقدنا حالة السرور واللذّة النفسيّة الأصيلة، فلذا يقوم الفكر بالبحث عن البديل، أي البحث عن اللذّة البديلة، فلماذا نهتمّ ونطلب اللذّة بهذه الصورة الشديدة؟ أليس ذلك لأنّنا نشعر في باطننا بالخواء المعنوي والخلاء الروحي فنقوم بالبحث عن شبه المعنويات لجبران المعنويات الأصيلة؟

وأحد الآثار الوخيمة للهوية الفكرية هو أنّها تقوم بتفريغ باطن الإنسان من المعنويات وتجعله إنساناً جافّاً وبدون روح، ثمّ يقوم الإنسان بالبحث عن شبه الروح وشبه تلك الحالة لجبران ما فقده، بواسطة الألفاظ في نفسه فلذا ينتظر دائماً وبخوف وقلق إلى بعض الكلمات التي تمثّل غذائه المعنوي هذا، ولو أنّنا التّفتنا إلى جميع حياتنا الروحيّة لوجدنا أنّها تدار بواسطة الألفاظ، فأنا أنتظر مدّة حتّى تقول لي بأنّ كلامك جيّد، وبعد ذلك أشعر بأنّ الحياة تسري في نفسي، وبالتالي أنّ حياتي الروحية هذه هي حياة عارية ومشكوكة وسطحيّة ومرتبطة بالآخرين وقلقة.

إنّ حزننا وفرحنا عاريتان وبمثابة ردّ الفعل، أمّا العشق الحقيقي وشوق الحياة الأصيل، فهي حالة فطريّة وأصيلة في الإنسان وغير مرتبطة بالآخرين، وهي حالة عميقة ووسيعة لأنّها لا تنبع من الفكر ومحرّكها لا ينشأ من الألفاظ.

إلى هنا إنتهى كلامنا، وخلاصة ما قلنا أنّ الفكر بسبب تدخّله في المعنويات فإنّه سيفقد وظيفته الأصليّة، ويصبح عاملاً مخرّباً وغير

منسجم، ولا يستطيع بدوره أن يجبر ما فقده الإنسان من معنويات، وقد أُعطي الإنسان هديتين عظيمتين بهما يمتاز عن سائر الموجودات في العالم، **أحدها**: الفكر، أي فكر الإنسان الذي هو أقوى من جميع الموجودات وأوسع وأبعد مدى، وخلايا دماغ الإنسان التي هي منشأ الفكر أغنى من جميع الموجودات سواءً من حيث الكميّة والكيفيّة، فلو أنّ الفكر عمل بوظيفته الأساسيّة فالله يعلم إلى أيّ منزلة يصل الإنسان، ولكنّنا لا نستفيد من فكرنا كما هو، بل نحوّله إلى آلة مخرّبة وسلبيّة وشيطانية ومحتالة، والأهمّ من ذلك هو تدخّل الفكر الفضولي في المعنويات، وبذلك ندمّر هذه الهديّة الثمينة.

سؤال: في نظري أنّ كلامك عن الإنسان والمجتمع جيّد ولكنّ الوصول إليه غير ممكن وصعب جدّاً، فهل تتصوّر أنّه يوجد أفراد في العالم بهذه الصفات التي تبتغيها للإنسان؟

الجواب: لماذا ننظر إلى هذا الموضوع بهذا المنظار؟ فالعلم بمقدار عدد الأفراد الذين وصلوا إلى هذه الحالة أو لم يصلوا لا يساعدنا في ذلك شيئاً (التفتوا جيّداً إلى كيفيّة المقايسة الحاكمة على أذهاننا) فما يغنينا عن أنّ الآخرين وصلوا إلى هذه الحالة أو لم يصلوا؟ أنا كنت أتصوّر هذه الحياة سابقاً بهذا المنوال، وبهذا التصوّر الطفولي وبهذا السعي الشديد العبثي وهذه الحالات القلقة المتوغّلة في روحي، وأدركت أنّ هذه الحياة متزلزلة وسطحيّة وخاوية ومتعرّضة للضرر دائماً، وكأنّي بنيت حياتي ووجودي في مستنقع آسن، ووجدت أنّ وجودي هذا عارية، فاللازم أن أقطع هذه الحكومة الفكرية على وجودي حتّى أصل إلى أصالتي وفطرتي، وأُحكّمها على وجودي، وبهذا الحال لا أقول لنفسي متى أصل إلى أصالتي الفطرية؟ فلو أنّك فقدت إبنك العزيز فأنت لا تقول لنفسك أنّ الآخرين أيضاً فقدوا

أبناءهم، ولم يبحثوا عنهم، أو أنّهم بحثوا ولم يجدوهم، أنت قد فقدت ولدك، وهذه مسألة مهمّة وأساسيّة بالنسبة لك، لا أنّ الآخرين وجدوا أبناءهم أو لم يجدوا، والإشكال الأساسي هنا أنّنا لحدّ الآن انّنا لم ندرك جيّداً ماذا فقدنا من شيء عزيز، وبماذا إستبدلنا من شيء وهميّ وأجوف ورخيص؟!

سؤال: ألا تجد أنّ بحثنا له جنبة مثاليّة؟

الجواب: المثال الذي ذكرناه (مثال الطفل المفقود) مجرّد تمثيل لبيان أهميّة الموضوع، لأنّ كلّ بحث للعثور عن المفقود يتمّ بوسيلة الفكر، وكلّ عمل يقوم به الفكر يقدّمنا خطوة نحو (الهويّة الفكرية)، ويلفّ حولنا من شراكه وحباله (وسوف يأتي في الأبحاث القادمة توضيحاً أكثر لهذا الموضوع).

ولكن لنرى ما هو المنظور من الجنبة المثالية؟ في نظري أنّ أحد معنى (المثالي) هو أنّ الإنسان يفكّر بشيء خيالي وغير واقعي، وبعبارة أوضح أنّ الإنسان يطلب ويبحث عن شيء غير موجود فعلاً، والمعنى الآخر للمثالي هو أنّ الإنسان يفكّر بالكمال، يعني أنّه يتصوّر أُموراً ذات كمال مطلوب ويسعى نحوها، ومع ملاحظة هذين المعنيين فهل أنّ كلامنا يدور حول المثاليّات، أم عن كيفيّة الحياة التي نحياها فعلاً؟ كلامي يدور حول ما نعيشه فعلاً، وكيف نعيش حالاً، ولابدّ أن نعيش كما هو الواقع الفكري ولا نسعى وراء الوهميّات، ولا نطلب سوى ما لدينا من وجود .. أن لا نعيش في الغد ولا نعيش من خلال الفكر والذهن، ولكن كلامك أنّه بما أنّ الناس طوال سنين متوالية وقرون طويلة قد عاشوا بهذه الصورة الفارغة، وبما أنّ هذا النوع من الحياة هو السائد فعلاً، إذاً فهذه الحياة هي الحياة الصحيحة، ولو قال أحد تعالوا لنتخلّص من هذا الوهم الذي يحيط بنا

وبحياتنا فإنّنا نتصوّر أنّ كلامه مثالي، فلو أنّك دخلت إلى مدينة ورأيت الناس جميعاً مغمّضوا العينين ويعيشون في هذه الحالة أي بعينين مغلقتين، وقلت لهم افتحوا أعينكم حتّى تروا الحياة جيّداً، فهل أنّ كلامك هذا يُعدّ مثاليّاً؟

سؤال: أنا أتصوّر بأنّك ترى أنّ شخصيّة الإنسان هي محصّل من الفكر والخيال وليس لها جنبة واقعيّة هذا أوّلاً. وثانياً: إنّ الوجود المعنوي للإنسان مشكل جدّاً، ويتلخّص ببعض القيم أو ضدّ القيم، في حين أنّنا نعلم أنّ للإنسان عواطف لا ترتبط بالقيم، وله تمايلات وغرائز وإحتياجات ودوافع مخصوصة وآلاف الأشياء الأُخرى التي لا تبتني على القيم وليست حاصلة للوهم والخيال.

الجواب: لا أعلم هل أنّ النظر الواقعي والنظر الذهني يشكّلان مسألة مبهمة وأنّني لم أُوضّح المقصود منها، أو أنّك لا ترغب في درك كلامي ومرادي؟ فأنا لا أقول أنّ العواطف والغرائز والدوافع في الإنسان هي محصّلة الخيال، بل أقول أنّ (الأنا) محصّلة خياليّة، والأنا لم تتشكّل من المعنويات الأصيلة، ولا يمكنها أن تكون كذلك، بل هي ظلّ للمعنويات، وكلّ كلامي وبحثي يدور حول هذه الخاصية الوهمية وهذا الظلّ، أرجو الإلتفات إلى هذا المعنى جيّداً حتّى يمكننا توضيح المراد من النظر الواقعي والنظر الذهني أو التفسيري، فقبل أيّام جاءت سيّدة وقالت: كنّا أنا وزوجي في دعوه وضيافة أحد الأشخاص، وكان هناك سيّدتان تشيران إلى زوجي وتقولان: إنّ هذا المسكين معتاد. فعندما سمعت بهذا الكلام شعرت وتمنّيت بأنّ الأرض تفتح فاها وتبتلعني وتدفنني.

وبعد أن إنتهت هذه السيّدة من كلامها سألها أحد الأشخاص ما هو

السبب في شدّة حزنك وألمك؟ هل كون زوجك معتاد وبسبب ضرر الإعتياد الواقعيّة من قبيل تخريب الرئتين وتسميم الدم وإفساد الأسنان وغير ذلك من الأضرار؟ فقالت السيّدة: كلّا، فإنّ ذلك يعود عليه ولكنّني أتمنّى أن لا يوجد هذا العار، وحزني أنّ الناس يقولون أنّ زوجي معتاد.

هذا مثال جيّد لتصوير المعنى الدقيق للنظر الواقعي والذهني، فأنا أقول أنّه إذا نظرت إلى الإعتياد بصورة واقعيّة فلا أجد سوى خراب الأسنان وفساد الرئة وأمثال ذلك من الأضرار التي لا تنكر واقعاً، وهي مرفوضة واقعاً، ولكن هناك ظاهرة وهميّة بإسم «الأنا» التي أعتبرها لنفسي وللآخرين، وهذه الأنا لم تتشكّل من الواقعيّات، بل من الظلّ الذي صنعناه للواقعيّات من قبيل (رجل معتاد).

سؤال: جيّد، ولكن لو نظرنا إلى الإعتياد بالمنظار الواقعي فحسب ورأينا أنّه شيء مذموم وشجبناه فسوف لا يوجد حينئذ دافع لتركه.

الجواب: بالعكس تماماً فإنّ في الحال الحاضر هناك مقدار من ذهننا ينظر إلى الضرر البدني من فساد الرئتين والأسنان، ولكنّ القسم الأعظم مشغول بالنظر الوهمي (رجل معتاد) فعلى هذا فإنّنا لا ندرك جيّداً وخامة فساد الأسنان والأضرار البدنيّة الأُخرى، فلو أنّنا التفتنا جيّداً إلى فداحة الأضرار البدنيّة، ففي تلك الصورة سيزداد الإحتمال في البحث عن وسيلة للحلّ والخلاص من الإعتياد.

وهنا من الضروري الإشارة إلى موضوع كلّي واجهناه مرّات عديدة في بحثنا، وهو أنّ النظر التعبيري والتفسيري له خصوصيّات العلّة والمعلول، وهناك رابطة تربط بين مجموع هذه النظرات التفسيريّة، وأساساً فإنّ هذا النوع من النظر والرابطة تحمّل الإنسان حياة خاصّة تختلف كليّاً

عن الحياة الواقعيّة، نحن عندما فتحنا أعيننا على الدنيا لم نر سوى هذه الحياة البدليّة والوجود الظلّي، ولا نعرف شيئاً آخر خلفه، والآن يمكننا أن نتصوّر بعد هذا البحث صورة الحياة الأصيلة، ولكنّ هذا التصوّر يكون ناقصاً وجزئيّاً دائماً، فنحن لا ندرك مجموعة الحالات والكيفيّات الروحية للإنسان الذي يعيش حياة واقعيّة وأصيلة، فمثلنا مثل من يعيش داخل السجن ويتصوّر الحياة في خارج السجن، ونفس هذا السؤال بأنّه إذا كنّا ننظر إلى الإعتياد من خلال أضراره الواقعيّة فإنّنا سوف نفقد الدافع على تركه فهذا التصوّر يحكي عن أنّكم أدركتم الموضوع بشكل ناقص وجزئي، وإلّا فلو نظرتم إلى الموضوع بشكل أوسع وتقدّمتم بإتّجاهه خطوة فخطوة لرأيتم أنّ السبب في اللجوء إلى المخدّرات والدّخان والخمر ونظائرها هذا النظر الوهمي التفسيري، فكما أوضحنا أنّ تراكم النظر التعبيري والتفسيري في مركز الذهن يوجد ظاهرة (الأنا)، وفي هذا المركز يشعر الإنسان بالحقارة والنقص والخوف والدونيّة والتحسّر ومئات المسائل الأُخرى السلبية التي لا تجعل حياته مستقرّة، ولا يتجرّأ الإنسان معها إلى أن ينظر إليها، فلهذا يسعى دائماً وبكلّ طريق ممكن إلى الهرب منها، وأحد طرق الفرار والهرب هو اللجوء إلى المخدّرات والخمر وأمثال ذلك حتّى لا يرى في نفسه الحقارة واليأس والإضطراب والتزلزل، والآن إذا عاش الإنسان حياة واقعيّة كما هي ومن دون أيّ تفسير وتعبير ومن دون وجود المركز الذهني والهويّة الفكرية فإنّ المركز الذهني والهويّة الفكريّة لا توجد أصلاً حتّى يضطرّ الإنسان إلى اللجوء إلى التریاك والمخدّرات والخمر.

سؤال: لنفترض أنّنا إستطعنا التخلّص من الهويّة الفكريّة، ففي تلك الصورة كيف تكون حياتنا وما هي المحرّكات والدوافع على السلوك؟

ففي الحال الحاضر نحن نجد أنّ القيم تمثّل دوافع للنشاطات المختلفة وأشكال الإرتباط مع الآخرين، فلو لم تكن هذه القيم فكيف تكون روابطنا وسلوكنا الفردي والإجتماعي؟

الجواب: في تلك الصورة سوف يسود النظم على مجموعة الوجود وعلى حياتنا التي هي جزء من ذلك العالم وتسير في مسار مفيد ومنسجم ومنطقي، وتتخلّص من الإضطراب والتزلزل والمسخ. وبعبارة أدقّ أنّنا لو تخلّصنا من هذه الظاهرة من أذهاننا فإنّ العشق سوف يحكم على وجودنا، وسوف يقوم العشق بالحكومة على سلوكيّاتنا، فالحياة مع العشق تختلف كثيراً عن الحياة مع النفرة والعداوة.

ولكنّنا إعتدنا على الحياة مع الهويّة الفكريّة ولم ننظر إليها بأنّها مشكلة حقيقيّة وزائدة ذهنيّة، فعليك أن تخرجها من ذهنك والباقي سوف يتحوّل إلى أصالة وفطرة، وهذه الفطرة الحياتية هي التي تديرك وتدير سلوكك.

الفصل الرابع
التّضاد

إنّ الهوية الفكرية عند شروعها تبدأ بكيفيّة بسيطة، حيث تعرض القيم على الإنسان وتدفعه إلى حياة تنطبق معها وتسير في تيّارها، ولكن ماهيّة هذه القيم تتصعّب وتتعقّد يوماً بعد آخر، وأحد العوامل الأساسيّة لهذا التعقيد هو خواء هذه الهويّة الفكرية وسعيها إلى القفز بالإنسان إلى الهرب من هذا الخواء والفراغ (وقد بحثنا هذا الموضوع في الاسبوع السابق) والعامل الآخر لهذا التعقيد الواسع للهويّة الفكرية هو «**التضاد**» الموجود فيها، فإنّ في بناء هذه الظاهرة عوامل وخصوصيات تؤدّي بشكل حتمي إلى أنواع التضادّ، فالكيفيّات والخصوصيّات المتناقضة والأهداف المتغايرة وغير المنسجمة تقف في مقابل بعضها وتبدّل وجود الإنسان إلى ميدان التعارض والنزاع والصراع، وفي بحثنا هذا اليوم نريد أن نبحث هذا التضادّ، ونرى ما هي الخصوصيات الكامنة فيه التي تؤدّي إلى تعقيده وتحكيم سلطة «الأنا» على الإنسان؟ وما هي الآثار والعوارض المترتّبة على ذلك؟

وأوّل تضادّ بعد أن تثبت القيم في الذهن، هو التضادّ بين الجوهر الفطري في الإنسان مع الهويّة الإعتبارية، فبعد حاكميّة القيم في الذهن فإنّ حالات الإنسان الذاتية لا تزول نهائياً، بل تقف بصلابة وبقوّة أمام

هذه القيم الواردة من الخارج، فالفطرة الإنسانية تحاول إزالة هذه القيم لأنّها عارضة خارجيّة (وطبعاً هذه المحاولة لا تكون بصورة واعية بل هي مقتضى خاصيّة الطبيعيّة في الفطرة الإنسانيّة) ولكنّنا نعلم أنّ قوّة هذه القيم والتلقين والتكرار فيها شديد جدّاً، فالقيم الإعتبارية مثلها مثل الجدار الضخم اللامرئي الذي يحيط بذهن الإنسان ويدفع الإنسان من جهة إلى أُخرى، والإنسان أينما يحوّل نظره فإنّه يواجه هذا الحائط اللامرئي فعلى رغم سعي الفطرة فإنّها سوف تغلب في النهاية، وتصبح أسيرة بيد تلك القيم الإعتبارية، ولكنّ هذا لا يعني أنّ الحالات المعنويّة والذاتية للإنسان تزول نهائياً، فهذه الحالات سوف تبقى تقاوم القيم إلى سنوات عديدة، والمجتمع يحاول بشكل عجيب إلى أن يجعل جوهر الفطري فيك يستسلم للأنا التي وضعها فيك، ولكنّ فطرتك تبقى في صراع دائم مع هذه الظاهرة التحميليّة والنتيجة هي الصراع الدائمي وتضادّ الفطرة مع القيم يؤدّي بالإنسان إلى أن يعيش في جميع مراحل حياته في نزاع مع نفسه ومع وجوده، فهو دائماً في حالة حرب مع نفسه وحركاته، إمّا أن تكون غير مؤيّدة من قِبل الفطرة أو غير مؤيّدة من قِبل الأنا، فعلى هذا يكون في صراع دائم.

ومن هذا التضادّ والصراع تبرز عدّة مسائل أساسية، أهمّها عبارة عن نوع من الغضب والتنفّر والحقد المكتوم وحالة العصيان والإحساس بالنقص والشعور بالذنب والإحساس بالغضب والحقد، لأنّ الإنسان يريد أن يعود ويعيش مع أصالته الذاتية، ولكنّه في كلّ خطوة في الحياة يواجه هذه القيم الإعتبارية، وعلى هذا يجد في نفسه حالة العصيان والطغيان ضدّ الأنا والأشخاص الذين وضعوا هذه القيم وأجبروه على قبولها،

وتدريجيّاً ينمو هذا الغضب والكراهية ويجد أبعاداً وسيعة ويكون جزءاً كليّاً ودائماً من وجود الشخصيّة.

وعلّة الإحساس بالإثم والذنب والتقصير هو أنّ الإنسان يجد نفسه من جهة مقابل المعنويات الأصيلة له، ومن جهة أُخرى يرى نفسه مقابل القيم الإعتبارية، ونعلم أنّ قدرة كليهما شديدة جدّاً، فعلى هذا فبأي واحدة يعمل فإنّه يشعر بالخيانة للشقّ الآخر، وأنّه مذنب ومقصّر.

والتضادّ الآخر ناشيء من ماهيّة هذه القيم وتضادّها في ما بينها، فإنّ هذه القيم التي تشكّل الهويّة الفكرية تحصل من تعبيرات وتفسيرات متفاوتة ومتناقضة، وقليلاً ما يتّفق أن يكون عمل معيّن له تفسير واحد، فكلّ شخص يفسّر هذا العمل من جهته وبما يطابق تصوّره الذهني، والتصوّرات والنماذج الذهنيّة متفاوتة فيما بينها، فالطفل عندما يسكت ولا يرد على عدوان طفل آخر فإنّ أُمّه تقول عنه (أنّه طفل هادىء ونجيب) ولكنّ أباه أو شخص آخر يقول (إنّه طفل ضعيف وجبان)، أي أنّ أحد الأشخاص يقيّم عدم الدفاع بمعنى إيجابي، والآخر يعطيه معنىً سلبياً، ومن ذلك يتشوّش ذهن الطفل ويمتلأ من هذه التعابير والمعاني المتضادّة التي تشكّل هويّته.

وعلى فرض أنّه لم تحصل هناك تعابير متضادّة لعمل معيّن، ولكنّ نفس التعبير يحمل في داخله تضادّاً، فعندما يقال للطفل بمناسبة سلوك معيّن أنّك طفل شجاع، وهذه الصفة تُعطى له بعنوان أنّة قيمة إيجابية، فالطفل يستنبط بذاته أنّ عدم الشجاعة شيء سلبي، وكلّ قيمة ذهنيّة تتوائم وتقترن دائماً في حافظة الطفل مع ضدّها، فالطفل يرى تارةً هذا المعنى الإيجابي والأُخرى السلبي، فلو وجد في نفسه صفة الشجاعة فإنّه يسعى دائماً إلى حفظها وإلى الإبتعاد عن ضدّها، وإذا وجد في نفسه عنوان

(الجبان) فإنّه يسعى دائماً إلى الفرار منه وتبديله إلى الشجاعة، ولذلك يفكّر الإنسان دائماً في الوصول والصيرورة، ويحكي عن أنّه غير راضٍ عن التصوير الموجود في نفسه، ويريد أن يستبدله بضدّه، وفي نفس هذا الحدث يكمن التضادّ بين ما هو موجود فعلاً وما ينبغي أن يوجد.

التضادّ الآخر الذي له سعة عجيبة وينجرّ إلى تعقيد «الأنا» في الإنسان ناشيء من الآثار والعوارض الفرعيّة للقيم، فبعض القيم يمكن أن لا تتعارض في ما بينها بشكل مباشر، ولكنّ كلّاً منها له آثار ونتائج تبعيّة تحصل منها، وتلك النتائج متضادّة في ما بينها، فمثلاً أحد القيم الإجتماعية هو أنّ الإنسان يجب أن يكون ذكيّاً وكيّساً، والقيمة الأُخرى هي أن يكون محبّاً للآخرين ويسعى إلى جذب محبّتهم، وهذه القيم في نفسها قد لا تكون متغايرة، ولكن نجد أنّه في كلّ مورد تجتمع في ما بينها، فالإنسان سوف يواجه تضادّاً حادّاً لكي يحصل على عنوان وقيمة (الذكي والفطن) يجب أن يسعى إلى بعض النشاطات والأعمال الذي تستلزم النزاع والصراع والغلبة على الآخرين والتعدّي على حقوقهم والحيلة والمكر وأعمال من هذا القبيل، ولكن من أجل أن يجلب محبّتهم فهو مجبور على الإرتباط معهم وعلى أن يغضّ النظر ويتنازل عن مقدار من حقوقه ويتلائم مع المحيط، ويجتنب كلّ عمل يؤدّي إلى التنافس وتحريك غضب الآخرين ونفرتهم، لأنّ الإنسان لا يستطيع أن يتوقّع من الآخرين محبّتهم وفي نفس الوقت يضع نفسه في مواجهتهم، إذاً فنفهم من ذلك أنّ عنوان (الذكي والفطن) بالرغم من أنّه لا يتعارض مع عنوان (المحبّ للآخرين والمحبوب) ولكنّ كلّاً منهما له نتائج وآثار متضادّة كاملاً.

وبالإلتفات إلى أنّ الهوية الفكرية تتشكّل من مئات القيم المتفاوتة،

وبالإلتفات إلى أنّ كلّ قيمة تتفرّع عليها مـئات النـتائج الفـرعيّة، فـيمكن إدراك إشكاليّة هذه الظاهرة المتضادّة والمـتصارعة، فـذهننا يـتشكّل مـن مئات (الأنا المتفاوتة والمتضادّة) وكلّ واحدة من هذه الأنا الإعتبارية لهـا أهداف متعدّدة وإحتياجات ورغبات تتفاوت وتختلف مع رغبات «الأنا» الأُخرى، فهناك فكر يتضادّ مع فكر آخر وإحساس ضـدّ إحسـاس آخـر، وتضادّ الماضي مع المستقبل، وكليهما مع الحال، وكلّ شيء فـي وجـودنا غير منسجم وغير متلائم مع الأُمور الأُخرى، وفي كلّ زاوية مـن وجـودنا يدعو إلى نفسه ويتنازع مع سائر الوجودات الأُخرى.

وتحصل من تضادّ القيم مسائل عـديدة يـمكن الإشـارة إليـها بشكـل إجمالي، وأحد المسائل الناشئة من التضادّ هو أنّ حياة الإنسان تصبح غير هادفة، فالإنسان الذي يسير في طريق التضادّ لا يستطيع أن يـوحّد قـلبه في كلّ رغبة وإرادة، مثلاً يقول أنـا طـالب للـحريّة ولكـن مـن مـجموعة خطواته وسلوكيّاته يتّضح أنّه لا يريد هذا المعنى بشكل جدّي، فالحرية لا يريدها بجميع وجوده، بل يريد أن يشغل نفسه بها، لأنّ عدم الحرية شـيء سلبي، وليس له إعتبار وقيمة، فلهذا يجد نفسه يقف مقابلته ويـثور عـليه، ولكن هناك عشرات العوامل الأُخرى في نفسه التي لا تريد الحرية وتريد إجباره على مطاليبها، فإنّ رغبة الإنسان الذي يعيش مع أصـالته وفـطرته ويجد نفسه موحّداً في قلبه لا يرى معناً للقول بأنّـني أصـبر ولأرى مـاذا يقول الآخرين، وماذا يعملون حتّى أعمل مثلهم. فالإنسان الذي يشعر في نفسه أنّه إنسان لا مجموعة ألفاظ فإنّه إذا أراد شيئاً فـإنّه يسـعى لتـحقيقه بجميع وجوده، ولا يرى فاصلة بين إرادته وإقدامه العملي لتـحقيق الإرادة (إلّا بأسباب وعوامل خارجيّة لا داخليّة).

التضادّ باعث على أن يشعر الإنسان في أعماق وجوده باليأس والعجز الشديد والتورّط والأسر، وعلى الرغم من التظاهر بـالإقتدار فـإنّه يشـعر باطناً بأنّه موجود أسير وعاجز، وهذا الإحساس يتجلّى أكثر عندما يخلو إلى نفسه ويفكّر عميقاً في ذاته فيرى أنّ باطنه ما يتظاهر به أمام الآخرين، ويجد أنّ حياته رياءً وتظاهراً وكلمات جوفاء لا أكثر من أجـل أن يـغطّي على الإحساس بالعجز والنقص، ولكن فـي لحـظات يـدرك جـميع هـذه الأُمور فمثله مثل الشخص الذي يقف على حافّة الوادي العميق ويـغمض عينه خوفاً من الوقوع فيه.

وهنا يقفز إلى الذهن سؤال يوضّح لنا كـثيراً مـاهيّة (الهـوية الفكـرية) وخاصّة علل غموضها وتعقيداتها ، والسؤال هو أنّه مـع وجـود كـلّ هـذا التضادّ وعدم الإنسجام الداخلي فكيف يمكن للهويّة الفكـرية أن تسـتمرّ في حياتها؟ ومع وجود كـلّ هـذه الفـوضى والتـضادّ الداخـلي يـجب أن يصيب الشلل حياتنا جميعاً، لأنّه في مقابل كلّ إحساس وكلّ فكـر وكـلّ حاجة وكلّ أمل وكلّ هدف هناك إحساس أو أكثر في مقابله، وهناك فكر وإحتياج وهدف يقف في مخالفته، فعلى هذا فنحن ينبغي أن لا نقدر على أداء أي عمل، ولكنّنا عملاً نرى عكس هذا المطلب، وأنّ حياتنا على كـلّ حال لها سلوك معيّن، فيجب أن نرى ما هو السبب في هذا؟

الهوية الفكرية لها حكـم النـظام الحكـومي والدولة المـجهّزة بـجميع الوسائل اللازمة للحكومة والفكر بحكم الهيئة المـركزية لهـذه الحكـومة، ونعلم أنّ شروع الإرتباط مع الحياة قد تحوّل إلى كيفيّة مخادعة، فالفكر لا يهدأ لحظة، بل يسعى دائماً إلى ترقيع هذه البناية للهوية الفكرية، وفي كلّ مورد يجد نقصاً وعيباً يحاول رفعه بأيّ صورة ويجد الحلول لأي مشكلة

حتّى يستمرّ في حياته ويحفظ مسؤوليته من الخطر، وكأنّه قد استأجر بعض العبيد والخدمة لكي يرقّع له كلّ جانب من جوانب هذه الهوية الفكرية الخاوية ويمنعون من تلاشيها، وهناك مجموعة بصفة الشرطة، وآخرين بصفة القضاة والمحامين والسجّانين، والعوامل والقوى المساعد وكلّ ما يلزم إلى حفظ هذه الهويّة.

والوظيفة والمسؤولية الأساسيّة لهؤلاء الخدم هي ظاهرة التضادّ، لأنّ لا يوجد شيء في بناء الهويّة الفكرية أكثر ضرراً وتخريباً من مسألة التضادّ، فلهذا فإنّ مسؤولية هؤلاء الخدم والحشم وكيفيّة عملهم هو ما يرتبط بهذا التضادّ ولابدّ من توضيح ذلك.

إنّ أحد أساليب الفكر لرفع التضادّ هو الإستفادة من (الإرادة) فالإرادة في تنظيم الهوية الفكرية لها دور القوى المساعدة، فعندما يقع الإنسان بين عوامل ودوافع متضادّة ويجد نفسه في موقع حرج ويقف عن الحركة فإنّه ينتخب له أحد الأطراف ويحرّك الإنسان إلى تلك الجهة.

وينبغي الإلتفات إلى أنّ الإنسان الحرّ والفاقد للهوية الفكرية له إرادة أيضاً، غاية الأمر أنّ كيفيّة هذه الإرادة التي نتحدّث عنها تختلف كليّاً مع تلك، فتلك الإرادة هي جزء من ذاتنا وتخدم رشد الإنسان وتكامله ولكنّ هذه الإرادة العنوانية لها حكم الصمغ اللاصق حيث تسعى إلى إلصاق الأجزاء المتناثرة والمتضادّة من الهويّة الفكرية، وحياة الإنسان الحرّ ليست مثل حياتنا المليئة بالتعقيدات والموانع، بل هي حياة مريحة وسهلة ومتحرّكة، فلا يجد نفسه في كلّ عمل مجبوراً على أن يتوسّل بالإرادة، فالإرادة تكون عادة في خدمة الهوية الفكرية وتحكي عن وجود التضادّ القطعي والحتمي، فأنت تريد أن تعمل عملاً معيّناً وعلى سبيل الفرض تريد

أن تتعلّم لغة أجنبيّة، فلو لم تكن هناك عوامل مخالفة تعيقك عن هذه الرغبة فالمفروض أن يكون هذا العمل مريحاً جدّاً وسهل يسير، إذاً فعندما نتوسّل بالإرادة نستخدمها حينما يكون هناك دوافع تريد هذا العمل وأُخرى لا تريده.

فالإرادة الموجودة في أصالة وفطرة الإنسان هي كيفيّة لتحقيق الكمال الإنساني الموجود بالقوّة وجوهر الذات، ولكنّ الإرادة الفعليّة لنا في الحقيقة هي سوط من سياط الأنا الأقوى ضدّ الأنا الأضعف، ونعلم أنّ كثيراً من المواضع المتفاوتة للأنا هناك حكومات متعدّدة على الإنسان، فعلى هذا يمكن القول بأحد المعاني بأنّ الإنسان أساساً ليست له إرادة، فمثلاً أنت لا تستطيع أن تعمل عملاً معيّناً ومستمرّاً وعلى وتيرة واحدة، فعلى سبيل الفرض تريد أن تكون متلائم دائماً فإنّ عملك يرتبط بتلك الرابطة وتلك الوضعيّة الخاصّة، وأنّها ماذا تتطلّب من عمل ينسجم مع بناء الهوية الفكرية لك؟

أمّا الخدم والحشم الذين يخلقهم الفكر فإنّهم لا يعملون بشكل مستقل ومنفرد دائماً، بل يستفيد أحدهما من معونة الآخر دائماً، وبعد أن تأتي الإرادة وتعمل عملها وتؤدّي وظيفتها فهناك خادم آخر مسؤول عن تبرير ذلك العمل وتوجيهه، فيبدأ بعمله هذا، وعندما نتحرّك نحن بمساعدة الإرادة إلى أحد أطراف النزاع والتضادّ في «الأنا» لا تنتهي القضيّة حينئذٍ بهذه الفقرة فإنّه سوف يبرز فوراً أصوات «الأنا» المخالفة، فيجب أن نسعى إلى إقناعهم وتحضير الجواب، ويجب العمل على توجيه وتبرير أعمالنا، وهذه التوجيهات والتبريرات تحكي عن أنّنا نواجه إعتراضات داخليّة كثيراً وكأنّ هناك أشخاصاً يحاكموننا: لماذا فعلت ذلك الفعل؟ فيجب أن تأتي

بالدليل المنطقي على ذلك، فلو أنّك تزوّجت البنت الفلانية، فيجب أن توجّه هذا العمل، وأنّك لماذا تزوّجت بها، وإذا تزوّجت ببنت أُخرى، فيجب أن تجيب عن سؤال: لماذا تزوّجت بها، وإذا لم تتزوّج أساساً فيجب أن تجيب عن عدم الزواج وهكذا لا نعمل أي عمل بدون توجيه وتبرير، وهذا المعنى بنظرنا أمر عادي، وقد نتصوّر أن لا يمكن إلّا بهذه الصورة، فعندما أقول لك أنّني أُريد الذهاب غداً إلى ساحل البحر فإنّه سيقفز إلى ذهني فوراً: أنّ هذا الخبر ناقص، وأنّني أُواجه مدّعٍ باطني يقول لي: أنت تريد أن تذهب إلى البحر بهذه السهولة، كلّا يجب أن تأتي بالدليل الذي يبرّر ذهابك إلى البحر، وسوف أبدأ بعمليّة التوجيه بأنّ أطفالي مثلاً تعبوا من المدينة، وأنّني لم أر البحر لمدّة سنتين وأحتاج إلى تجديد وتغيير في الحياة الرتيبة وأستنشق الهواء الطلق وأمثال ذلك.

وهناك خادم آخر مساعد وهو (لوم الذات) فلوم وتوبيخ الذات في الحقيقة بمثابة رشوة يقدّمها الإنسان للأنا المتكثّرة المخالفة وما يكمن في هذا اللوم والتوبيخ وهو أنّنا نقول للأنا المخالفة التي إعترضت على ذلك العمل بأنّني لم أعمل هذا العمل عن رغبة وطواعيّة وأنّني أرجوالمعذرة وأنّ هذا العمل إشتباه وخطأ منّي وأعدكم أنّني في المرّة الأُخرى سوف أعمل وفقاً لطلباتكم، ولهذا فإنّني أعترف بأنّي مقصّر وأستحقّ اللوم والتوبيخ. وأنت في مقابل عدم الدفاع مقابل الإهانة، تقول: إنّني سليم النفس ووقور أو ذو عفو ومغفرة، ولكنّ الأنا الشجاع والخشن في وجودك يريد جواباً على عدم دفاعك ولهذا تبدأ بلوم نفسك حتّى تسكته وترضيه.

(لوم الذات) له تأثير واسع جدّاً ومخرّب في حياتنا، والسبب في أنّ روحيّاتنا في الغالب منحطّة وأنّنا في كلّ عمل نشعر بالندم وعدم الرضا

والخوف والقلق هو أنّه يوجد دائماً في زاوية من زوايا وجودنا من يعترض على ذلك العمل ويجبرنا على الإعتذار وتوجيه اللوم والتوبيخ إلى الذات، فنحن لا نكتفي فقط بلوم الذات في مقابل الأعمال المنجزة، بل حتّى بدون أن نؤدّي عملاً معيّناً لأنّ التضادّ الجزئي في وجودنا يعني أنّ بعضاً من الأنا يخالف البعض الآخر ويرى وجوده مخلّاً لوجوده، ويعترض علينا دائماً لوجود الطرف الآخر، فنحن نشعر بالملل وعدم الرضا بوجودنا كإحساس دائم، ولا نعلم هل سوف تأتي لحظة في حياتنا نعيشها بفرح في حالة من الفراغ والراحة الروحية وهي الحالة التي يقبل الإنسان فيها وضعه الموجود بلا شرط ولا قيد، ويرضى عنه كاملاً (أرجو أن لا يختلط الأمر بين الفرح واللذّة، فالفرح هو حالة عميقة ليس لها منشأ فكري، ولكنّ اللذّة إنعكاس الفكر، فعلى هذا تكون سطحيّة وتوأم مع القلق).

ورأينا في البحث السابق أنّ الذهن بسبب التجزئة والتقطيع بوسيلة (الأنات) المتعدّدة أصبح في حالة من التهرّء وضيق النظر، وهي كيفيّة تطرأ على الذهن تلقائيّاً، أي بسبب أنّ وجودنا النفسي يصوّر لنا أنفسنا بشكل صور منفردة، ولكنّ الذهن يستعمل هذا التكتيك أي النظر التجزيئي من أجل عدم رؤية التناقضات الموجودة في الهويّة الفكريّة عن عمد وإصرار أيضاً، وفي هذا الحال يضيف إلى هذا النظر الضيّق مسألة جديدة وشديدة، فالذهن يتعمّد أن لا يجعل سلوك الإنسان على شكل مترابط وتيّار واحد حتّى لا يدرك الشخص التناقضات الموجودة في سلوكه، فالذهن يشغل الإنسان بأحد الأنات المتعدّدة أو بأنا معيّنة حتّى لا يلتفت إلى وجود بقيّة الأنات الأُخرى، وعندما يصبح الإنسان أسيراً بيد أنا معيّنة فإنّه لا يمكنه النظر أو التفكّر بأيّ شيء آخر، بل تحيطه من كلّ جانب بحجاب ومثل هذا

الإنسان مثل الشخص الذي تضعه «الأنا» عند حكومتها على الذهن في نفق وتأمره أن يسلك في سائر قضايا حياته من هذا النفق، كما يقال في المثل أنّني في فلان حالة كنت قلقاً ومضطرباً بحيث أنّني لا أدرك ما حولي، وحالنا عندما نصبح أسرى بيد «الأنا» هو هذا الحال عيناً، نحن لا ندرك ما حولنا جيّداً مثل الشخص الذي تلقّى ضربة شديدة على رأسه فأصابه الدوار.

وقبل أيّام كنت أنظر إلى التلفزيون، وكان التلفزيون يعرض الموارد من الحرب، فتألّم أحد الأشخاص الحاضرين لمقتل أحد جنود العدوّ وشرع بالبكاء بدون إختيار، وبعد إنتهاء الفلم ومضيّ فترة ساعتين أعلنت الحكومة عن إستقبالها للمتطوّعين للحرب، فما كان من نفس ذلك الشخص الذي كان يبكي إلّا أن قال بإفتخار (أنا أيضاً سجّلت إسمي وسوف أذهب في الاسبوع القادم إلى الجبهة) فانظروا إلى هذا التضادّ!!

والعجيب أنّ الإنسان نفسه وبسبب ضيق النظر لا يلتفت إلى هذا التضادّ الواضح وكأنّ الشخص الذي كان يبكي يختلف عن الشخص الذي سوف يذهب إلى الجبهة بعد اسبوع، وعدم رؤية هذا التضادّ هو بسبب ضيق الأُفق وحكومة الأنا.

ومقارناً لهذا الأُسلوب للذهن يعمل الذهن حيلة أُخرى لها دور واسع، وهي عبارة عن التوسّل العمدي باللّا شعور، فالفكر لا يقوم بالفرار من الخواء فحسب، بل يسعى من أجل الفرار من التناقضات ومئات المسائل الأُخرى المتفرّعة عليها لكي لا يرى الأُمور بوضوح، وكأنّ هناك غبار لا مرئي يحيط بالذهن ويسعى إلى الحياة خلف ذلك الغبار، وهدف الذهن من هذا العمل أن لا يدعنا نرى وخامة الهويّة الفكرية بوضوح، فلو كان

لدينا ذهن مشرق وواعي وذكي لرأينا بصراحة ووضوح الثعبان الخطير الكامن في رؤوسنا، وفي هذه الصورة سوف تكون حياته معرّضة للخطر.

انتهى كلامنا عن التضادّ لكن قبل الدخول في الأسئلة ينبغي ذكر عدّة مواضيع هامشيّة يمكن أن توجد بعض الإشكال وسوء الفهم، وأحد هذه الموضوعات التي تضمّنها بحثنا هو أنّ هناك بعض المطالب التي يظهر منها أنّها مغايرة للمطالب الأُخرى من بحثنا هذا، فمثلاً نقول في أحد الموارد أنّ إنسان الهويّة الفكرية هو إنسان أجوف فارغ المحتوى، لكن من جهة أُخرى ثقيل الوزر وممتليء الفكر، وهذا المعنى لا ينبغي أخذه بظاهر العبارة، فعندما نقول أنّه إنسان أجوف فمقصودنا أنّه فارغ من الماهيّة المعنوية والفطرية، يعني أنّه لا يحتوي على ما ينبغي للإنسان إمتلاكه، ومن جهة أُخرى فانّ ذهنه مليء بالتصاوير والألفاظ والكلمات، وهذه الكلمات والتصاوير هي السبب في الضوضاء والتشويش والثقل في الذهن، وفي أحد الموارد نقول أنّ حياة الإنسان الذي يعيش بهويّة فكرية ذات رتابة معيّنة وفي مكان آخر نقول: إنّ هكذا إنسان متلوّن ومتغيّر.

والسبب في أنّه هامشي هو أنّه كلّما يفعل فإنّه يدور في حدود القالب الفكري، وكونه متلوّناً بسبب أنّ هذا القالب له كيفيّة متلوّنة، لأنّه يتشكّل من مئات التصاوير التي للأنات المتعدّدة والمتفاوتة، فالشخص في كلّ لحظة ينظر من نافذة أحد هذه الأنا ويحكم ويعمل طبقاً لها، ولذلك تكون حياته متلوّنة.

الموضوع الهامشي الآخر هو توضيح لغوي، فإنّنا في الأبحاث الماضية ذكرنا نوعين من أنواع الرابطة والإرتباط مع الآخرين، وأرجو أن يكون المفهوم والمعنى واضحاً لديكم، فقد ذكرنا عبارات وإصطلاحات مختلفة،

فمثلاً (النظر الواقعي) و (النظر الذهني) و (الإرتباط مع الواقع كما هو) و (الإرتباط الذي يوجده الذهن) و (الرابطة الواقعية) و (الرابطة الظلّية) والكثير من الإصطلاحات الأُخرى، فمع الأخذ بنظر الإعتبار هذين النوعين من النظر يتّضح لنا بصورة أكثر، أنّنا بإمكاننا إستبدال كلّ تلك المصطلحات الكثيرة بهذين الإصطلاحين وسوف نستخدمهما فيما بعد، وطبعاً لا يوجد هناك إصطلاح جامع يمكنه أن يجمع مجموعة الخصوصيات لهذين النوعين والآثار والنتائج المترتّبة على كلّ منهما، ولكن يمكن إنتخاب إصطلاح يجمع في مدلوله الخصوصيات الكليّة على الأقل، ونقرأ في اللغة الإنجليزيّة إصطلاحين يحكيان عن هذه الخصوصيّة وهذين الإصطلاحين هما (**passive**) و (**active**) فالأوّل نستخدمه بدل النظر أو الرابطة الواقعيّة والثاني بدل النظر الذهني، وقد ترجم هذان الإصطلاحان بترتيب (المتأثّر) و (المؤثّر) أو الفعليّة والفاعلية وغير ذلك وأتصوّر أنّ لهما معنىً آخر هو أقرب إلى منظورنا ومرادنا من جميع المعاني فإنّ «**Active**» من كلمة (**Act**) بمعنى العمل و «**Active**» بمعنى كيفية العمل، ونعلم أنّ التفاوت البارز في النظر الواقعي للحياة مع النظر الذهني للحياة هو أنّ النظر الواقعي يجعل الإنسان في حالة من الصيرورة بدون أن يكون له حالة مركزية باسم «الأنا»، وأمّا في النظر الذهني فهناك يوجد مركز يُدعى بالأنا، وهذا المركز له كيفية فعّالة، وذلك بأنّه يعمل دائماً على التخطيط ومشغول باستمرار بحفظ «الأنا» فهو يسعى دائماً إلى أن يرفض ويستنكر في عالم الذات بعض الأُمور، ويريد إزالتها من طريقه، أو يصوّر بعض الأُمور كأُمور مثاليّة ويسعى لتحصيلها، ويسلك بإستمرار السلوك الطفرة والقفز على الحبال حتّى يكون بإمكانه إخفاء بعض الأُمور وإظهار

البعض الآخر، والخلاصة أنّ هذا المركز في حالة حرب وسعي وتنازع بإستمرار من أجل تحصيل شيء، أمّا في حالة إنعدام هذا المركز فلا توجد الطفرة والقفز وكلّ أشكال ذلك السعي، فالإنسان يعيش بنفسه مع الحياة كما هي موجودة فعلاً، ويقبلها برحابة صدر، لا أن يسعى إلى إقناع نفسه بقبولها بل أنّ القبول يكون تلقائيّاً (أرجو أن لا تتصوّروا أنّ كيفيّة القبول تحكي عن المحتوى الباطني المتحجّر والمتوقّف بل على العكس، فإنّ هذه الحالة والكيفيّة للإنسان هي في نمو وتكامل وتغيّر دائم والحالات النفسيّة والفطرية تنضج باستمرار بدون أن يكون هذا المسير إراديّاً للإنسان، ولكن في حالة الحياة مع النظر «الأكتيف» فالإنسان على الرغم من جميع سعيه وطفراته فإنّ تصوّراته المنحصرة في القالب الذهني تكون متحجّرة ومتجمّدة وبالرغم من جميع المشغوليات والتنوّعات في الخارج التي صنعها لنفسه فإنّ باطنه يعيش في قالب ذهني محدود ومحبوس).

وعلى كلّ حال تقرّر أن نستخدم من الآن فصاعداً إصطلاح «النظر الباسيف» بدل النظر الواقعي، و «النظر الأكتيف» بدل النظر الذهني، رغم أنّ اللفظ والإصطلاح غير مهمّ، بل أنّ المهمّ هو المحتوى والمعنى.

وآخر مطلب هامشي ينبغي تذكّره هو أنّنا عندما نتحدّث عن (نحن) فالمراد ليس هو نحن الأشخاص الجالسين هنا أو في هذا المجتمع أو هذا الشعب بالخصوص، بل كلامنا عن الإنسان بشكل عام، ولا في جماعة ومجتمع خاصّ بل يصدق على جميع الناس.

والآن جاء دور الأسئلة.

سؤال: أنت تقول أنّ النظر الباسيف يجعل الإنسان يقبل الحياة كما هي واقعاً، ولكن إذا كان المجتمع يخضع للإستعمار أو أنّ هذا المجتمع لا

يتمتّع بالحرية والعدالة، فهل يجب على الإنسان أن يقبل هذا الواقع السلبي؟

الجواب: نكرّر أيضاً تذكّرنا بأنّه أوّلاً ينبغي الإلتفات إلى أنّ بحثنا يتركّز في الموضوعات النفسيّة، أمّا في الموضوعات الماديّة والفيزيكيّة، فلا معنى لقبول كلّ ما هو موجود واقعاً، ولا يقول أحد بذلك، فلو فرضنا أنّ سقف البيت كان مثقوباً، أو أنّني كنت جائعاً، فلابدّ من السعي لرفعه، وإلّا فمصير الإنسان إلى الهلاك.

وأمّا في مورد الموضوعات والمسائل النفسية فكلامنا عن أنّ الإنسان يعيش في مجموعة من الأحوال والأوضاع بدون «الأنا» أي بدون الظلّ الذي يخلقه الفكر، فالإنسان الذي نتحدّث عنه هو إنسان يرفض الإستثمار والظلم تلقائياً، ولا تصل النوبة إلى مسألة رفعه كما يكون الإنسان الذي يشعر في ذاته بالحريّة، ولهذا فعدم الحريّة تكون بالنسبة له حادثة عرضيّة مخلّة بطبيعته، وطبيعته ترفضها تلقائيّاً، فمثلاً عندما يرد القذى إلى العين فعيننا تدافع عن نفسها طبيعيّاً بواسطة الدموع، فنظام الوجود النفسي للإنسان لو لم يخرج من طبيعته وفطرته، فإنّ له هذه الكيفيّة والحالة، وسوف يدرك أنّ الإستثمار والظلم لا ينسجم مع مزاجه، ولا يمكن قبوله، بل يكون الإستثمار بحكم الشوك في طريقه حيث يزيله تلقائياً ويدفعه طبيعيّاً، لا أن يصبر عليه خمسين سنة أو مائة سنة أو ألف سنة.

الإحساس بالحريّة والإحساس بالعدالة والإحساس بأنّ الإنسان لا ينبغي أن يُستثمر ولا يظلم هي حالات باطنية، والعدالة والحرية الخارجيّة هي تجلّي للعدالة والحرية الباطنية، فلو أنّ الإنسان لم يكن متحرّراً من الداخل ولم يشعر بالحرية فإنّه أساساً لا يدرك الحرية بمعناها الواقعي،

وكلّ نوع من الحرية الخارجيّة بدون الحريّة الباطنية سوف لا يكون لها معنىً، بل هي أمر برّاق وظاهري وعبثي، فالإنسان منذ أن يفتح عينه على الحياة يرى نفسه بيد العوامل الإجتماعية وأسيراً بيد عوامل المحيط، ولا يعرف معنى الحريّة، وعندما نرى بعض ألوان الحريّة في بعض المجتمعات فإنّها كيفيّة برّاقه وظاهرية، ففي بعض الدول زالت حكومة القوّة والسيف، ولكنّ جبر الإعلام حلّ محلّها أو أنّ قوّة الفرد أو الجماعة حلّ محلّها الدولة والحكومة، فعلى هذا لم يحدث تغيير في الموضوع، فأنت سواءً عملت عن إجبار وإخضاع لسلوك معيّن بقوّة السيف والحراب أو بقوّة الإعلام فلا فرق في ذلك، فأنت بإعلامك وتبليغك تجعل ذهني محاطاً بعوامل الضغط والتلقين حتّى لا يمكنني أن أُفكّر بحرية ولا تدع لي فرصة للتفكير بشيء سوى ما تلقّنه لي وتسعى في إيحائه إليّ.

في أحد الأيّام كنت أتباحث مع بنت غربيّة فكانت تقول أنّه في الشرق لا يوجد أي مجال للحرية حتّى أنّ الولد والبنت لا ينتخبون لهم الأزواج بحرية بل أنّ الوالدين يتّخذون تصميمهم في هذا الموضوع. فقلت: إنّ الغرب أيضاً يعيش هذا المعنى، ولكن بتفاوت جزئي ويتظاهر بمظهر جذّاب، فإنّ أبي ينتخب لي زوجة بما يطابق ذهنه وفكره وسليقته وأباك أيضاً قبل ذلك قد لقّنك المعايير والنماذج الذي يرتضيها لنفسك في ذهنه، والآن يقول لك أنّك حرّة في إختيار الزوج الذي يطابق ذوقك (وفي الحقيقة أنّه ذوقه الذي أوحاه إليك) إذاً ففي أصل الموضوع لا تفاوت هناك، وعلى كلّ حال فأنا وأنت نختار الزوج بذوق غيرنا.

سؤال: هل الإنسان السالم يعني الإنسان الذي يعيش بدون هويّة فكرية متضادّة موجود؟ فمثلاً الطفل الذي يعيش في لحظة اللعب أو إكرام

الطفل الآخر وفي لحظة أُخرى لا يكون في نفسه هذا الميل ألا يواجه تضادّاً معيّناً؟

الجواب: نحن إعتدنا على التعبير والتفسير، وكلّ ظاهرة إنما نعرفها من خلال المقايسة مع ضدّها الآخر والحالات المتفاوتة للطفل يعني الكرم وعدم الكرم متضادّة في نظرنا، ولكن هذه الحالات لا تشكّل تضادّاً في الطفل، فالطفل أوّلاً لا يفسّر حالاته النفسيّة حتّى يتصوّر في مقابلها الضدّ لها، فلا يرى التضادّ حينئذ، ثمّ أنّه لا يسمّي عطاءه بإسم (السخاء والكرم) وعدم عطائه بإسم (البخل) فلا يراهما سويّة حتّى يرى التضادّ بينهما، وفي كلّ حالة له يعيش في كيفيّة مستقلّة من دون قياس مع ضدّها الآخر.

ثانياً: إنّ الطفل لا يعيش بزمان ذهني والإتّفاقات والحوادث في الحياة لا تتشكّل في ذهنه على شكل ملفّ وإضبارة، فإنّ كلّ شيء بالنسبة له في حال الوقوع، يعني أنّ الطفل يعيش في الحال الحاضر بإستمرار، وفي هذه الحالة هناك حالة واحدة فقط، وعندما تنتهي هذه الحالة تحدث حالة أُخرى من دون أن يقيس الحالة السابقة باللاحقة، ففي كلّ حالة لها مدلولها ومعطياتها وكيفياتها الجديدة المتفاوتة لا المتضادّة.

سؤال: عندما يقع الإنسان أسيراً بين الأنات أو الدوافع المتضادّة بين الأنات المختلفة أليس من الأفضل أن لا يعمل طبق أيّاً من الدافعين المتضادّين، بل يُسلّم نفسه إلى المنطق ويعمل بحكم المنطقي والعقلي؟

الجواب: من أين يأتي بالمنطق والعقل، فكلّ منطق داخل في القالب الذهني، والمنطق هو صنيعة ذلك القالب.

سؤال: بنظري أنّ الإنسان يمكنه أن يتخلّص من تأثير القالب ويعمل على أساس المنطق العلمي والواقعيّات العينيّة ويصمّم وفقاً لها.

الجواب: لو كانت المسألة هي مسألة عينيّة وعلميّة فإنّه يمكن عمل شيء بشكل معيّن لا بشكل مطلق، وذلك أنّ التفكّر والنظر الأكتيف يجعل من الموضوعات العينيّة والواقعيّة في الذهن خاضعة لتأثيره ومظلمة، ولكن على كلّ حال فإنّ موضوع بحثنا هو المسائل الأخلاقية والنفسيّة، وفي هذه الحال فمع وجود الهوية الفكرية فلا مجال هناك للتفكّر المنطقي، ففكر الإنسان يكون منطقيّاً وعقلانياً في ما لو كانت حالته هي الباسيف، يعني أن لا تكون لفكره فعاليّة، وإلّا فلو لم يكن الفكر يعيش في حالة فعاليّة ذهنية، فذلك يعني أنّ الأنا غير موجودة أصلاً، وبالتالي لا ترى التضادّ.

سؤال: الإنسان الذي تصوّره لنا هو الإنسان الذي لا يفكّر بالقيم، فهل يمكن للإنسان المسؤول والملتزم والمتديّن أن يعيش كذلك؟ ففي نظري أنّ الإنسان الذي تتحدّث عنه تستوي لديه جميع الأُمور والحسنة والقبيحة.

الجواب: بالعكس تماماً، فهكذا إنسان في حالة إلتزام دائم من دون أن يرى نفسه ملتزماً، ومنشأ الإلتزام والتعهّد هو ماهيّة الإنسانيّة، فهو إنسان ملتزم ومسؤول في قبال الإنسان الآخر، ونحن نرى أنفسنا مسؤولين في مقابل حفنة من القيم الوهميّة والإعتبارية التي تصنع الأنا، فنحن ملتزمين في مقابل «الأنا»، ونعلم أنّ «الأنا» ما هي إلّا خليط متضادّ، وعندما يصبح الشخص ملتزماً ومتعهّداً أمام شيء متضادّ لا يمكنه أن يكون ملتزماً واقعاً ويتعهّد بشيء، فالشخص الذي ليس لحياته وحركته جهة معيّنة فكيف يمكنه أن يسير بإتّجاه هدف معيّن، أو يشعر بإلتزام معيّن أمام شيء؟ ومضافاً إلى جنبة التضادّ هذه فإنّ الشخص الذي يعيش أسير العوامل

الواردة عليه من الخارج والحاكمة عليه الآن فإنّه يشعر بالتكليف فقط لا بالإلتزام والمسؤولية والتعهّد، فالإنسان الفعلي أسير التعصّبات النفسيّة وسجين التوهّمات العمياء لنفسه، إذاً فهو ليس حرّاً، والشخص الذي لا يشعر بالحريّة هو شخص غير مسؤول (وينبغي إلى الإلتفات أنّ كلمة «الإلتزام» في مورد الإنسان الحرّ من باب المسامحة، فهذه الكلمات لا تنسجم معه فإنّ في وجوده عاملين قويّين يعني الفطرة والعقل يتعاضدان معاً على سلوكه بكيفيّة مفيدة وأصيلة ومنظّمة ومنسجمة بدون أن يحتاج إلى إلصاق عنوان لنفسه ويصنع منها الأنا المثالية).

سؤال: في نظري أنّ الإنسان المتديّن لا يشعر في نفسه بالتضادّ.

الجواب: كلّا، فإنّ محتوى الدين لا يحتوي على التضادّ، فالإنسان المتديّن لا يشعر بالتضادّ، لا التضادّ مع نفسه، ولا التضادّ مع الدنيا، لأنّ محتوى الدين معناه أن يرتبط مع حقيقة الأشياء والأشياء في حقيقتها لا تضادّ فيها (ينبغي الإلتفات إلى أنّ معنى الإنسان المتديّن يختلف عن الإنسان الذي صنع من الدين هويّة فكرية وصورة من الأنا والأنانية).

* * *

الفصل الخامس

معرفة النفس

تقدّم في الجلسات السابقة الكلام عن البناء الكلّي للهويّة الفكرية، ورأينا كيف توجد وتتشكّل هذه الهوية الفكريّة، وما هي خصوصياتها؟ وما هي المسائل الحاصلة منها؟ والآن لنرى كيف يمكننا التخلّص من أسر هذه الظاهرة الغريبة؟

من المعلوم أنّ موقع الهويّة الفكريّة أو «الأنا» هو الحافظة، فينبغي عليك أن لا تراجع الحافظة، ثمّ أُنظر هل يمكنك تصوّر شيء بإسم «الأنا»؟ من الواضح أنّه غير ممكن، فحافظتك تقول لك بأنّك إنسان متواضع ومحترم أو حقير أو متشخّص أو جبان أو شجاع وأمثال ذلك، فكلّ صفة تطلقها على نفسك إنّما يكون بواسطة الحافظة، ولكن منذ الآن حاول أن لا تستفيد من الحافظة وقل لي ماذا يجري في باطنك؟ وكيف أنت من الناحية النفسية؟

سؤال: بنظري أنّ ذلك غير ممكن، فلو قلت لك أنّني مثلاً إنسان خجول أو جبان، فسوف تسأل بأنّك من أين تعلم بأنّك متّصف بهذه الصفات؟ وأنا بدوري سوف أُجيب: أنّني مجبور على مراجعة الحافظة، فحافظتي تقول لي بالأمس كنت في مجلس وأردت أن تتكلّم ولكن اعتراك الخجل، أو أنّ الشخص الفلاني أهانك ولم تستطع الدفاع عن

نفسك، فعلى هذا فإنّني إنسان خجول وحقير، وبنظري أنّ هذه الحقيقة واضحة، وهي أنّنا لا يمكننا معرفة أو تصوّر الهوية النفسية من دون مراجعة للحافظة.

الجواب: إذاً فقد عرفنا أنّ محلّ الأنا هي الحافظة، فإذا أمكننا إيجاد كيفية وحالة في الذهن لا ترتبط بالحافظة، يعني أنّنا حرّكنا الذهن، ولم تبدأ حركته من الحافظة، فإنّنا لا يكون لدينا حينئذ تصوّر عن الأنا، وفي الحقيقة أنّ الذهن يُخرج ويطرد الأنا من مخزن الحافظة، وهذا المعنى يمكننا أن نبيّنه بهذه الصورة، وهي أنّه لو لم يفكّر الذهن بالزمان الماضي (إلّا في الموضوعات الماديّة) فإنّه ليس هناك ظاهرة بإسم «الأنا» (التفكير بالحافظة والتفكير بالزمان الماضي كليهما وجهان لعملة واحدة وكليهما جريان واحد وفعالية ذهنية واحدة).

إذاً لنرى كيف يمكننا أن نوجد كيفية في الذهن لا تتعلّق بالزمان الماضي، وما نريد أن نقوله في هذا البحث هو أمر بسيط جدّاً، ولكن بيانه وإلقائه يمكن أن يكون مشكلاً، فعلى هذا ينبغي الإلتفات جيّداً حتّى يمكننا إدراك الموضوع بشكل محسوس، فمثلاً إنّ فكرنا دائم النشاط والفعّالية من الصباح حتّى الليل والنوم بلا إنقطاع يتجوّل في أرجاء الدنيا من هنا إلى هناك، ويطرح آلاف الأشكال والصور الخيالية، ويرتّب لنا نشاطات ومنافسات تكون الغلبة فيها لصالحنا، ويهييء لنا إطاراً مجلّلاً من العظمة والشهرة والمقام الإجتماعي وآلاف التصورات الجميلة الأُخرى يقدّمها هديّة للأنا، والهدف من جميع هذه التحرّكات والنشاطات بأيّ شكل كانت هو تغذية وإدامة حياة الهويّة الفكرية.

ونحن عادةً لا نلتفت إلى تجوّل فكرنا في عالم الخيال، وكأنّ ذهننا

ماكنة صغيرة وأداة ميكانيكيّة تعمل أُتوماتيكيّاً من دون حضورنا، فتنسج الأفكار تلو الأفكار، والشيء الذي أُريد أن أقوله هو أنّه تعالوا إلى أن نلتفت إلى هذه التحركات الفكرية للذهن، نحن لحدّ الآن لم نحضر مثل هذه الفعاليّات الذهنية، بل تركناها لحالها تتجوّل أينما تريد، ولكن الآن تعالوا لنحضر هذا التجوال مع الإلتفات إلى ما يصنع الذهن، ولنفترض أنّ أحد الأشخاص يريد أن نهيىء له خبراً مشروحاً عن خيالنا ويقول: اكتب لي كلّما يدور في فكرك وخيالك، فماذا نصنع لتهيئة مثل هذا الخبر؟

من الواضح أنّنا نسعى إلى الإلتفات والتوجّه بدقّة إلى أفكارنا وخيالاتنا بعكس ما يحدث فعلاً، حيث أفكارنا تتجوّل بدون رقابة والتفات ووعي، أجل يمكن لهذا التوجّه والإلتفات أن يكون على صورتين (وطبعاً النوع الأوّل هو ليس التوجّه بالمعنى الواقعي) وأحد صوره أنّ الصور الفكرية ترد الذهن وتنتهي، ثمّ يأتي دور الحافظة حيث تقول لك بأنّك قبل لحظة ماذا كنت تفكّر، وفي أي موضوع؟ ولكنّ الشخص الذي طلب منّا أن نهيّىء له خبراً عن أفكارنا يقول أنّي لا أقبل ذلك، فأنت في أوّل الأمر تفكّر، ثمّ بعد ذلك تلتفت إلى ذلك، وهذا المعنى لا يفيدني شيئاً، أنا أُريد أن تتوجّه إلى فكرة في تلك اللحظة التي تفكّر فيها، لا بعد أن تتمّ لحظة التفكير، هل التفتم إلى الفرق بينهما؟ أنت الآن جالس وتفكّر بأنّ هذا الشخص ماذا يقول من ترهات وخزعبلات، ففي هذه اللحظة التي تفكّر فيها بهذا التفكير ينبغي عليك أن تلتفت إليه، وأنّ تدرك بماذا يفكّر ذهنك من موضوع.

سؤال: نعم أنا أُدرك ذلك جيّداً وقد تمرّنت على ذلك سابقاً وأعلم ماذا تقصد، فالحال كما لو أنّ إنساناً ينظر من خلف هذه العين المادية، أي

بعين باطنية ويرى دماغه وفكره بها، فالعرفاء يقولون: ينبغي عليك الإلتفات بهذه العين الباطنية إلى القلب، والآن أنت تقول ينبغي أن تلتفت وتتوجّه إلى الفكر.

الجواب: أنّ نتيجة كلا الأمرين واحدة، وسوف نوضّح الأمر لاحقاً.

سؤال: (من شخص آخر) ولكن لم ألتفت لمعنى ما تقول، فهل يمكن التوضيح أكثر؟

الجواب: عليك التدقيق في ذلك ولنفرض أنّ هناك ساتر سينمائي أمام أعيننا، وقيل لنا أنّه هناك لحظات قصيرة جدّاً، وسوف تظهر أعداد متفاوتة على هذا الساتر وتزول فوراً، وعليك أن تحسب هذه الأعداد، فماذا نصنع في هذا الحال؟ وكيف تكون حالة ذهننا؟ من الواضح أنّ جميع حواسنا سوف تتّجه بمجرّد ظهور الأعداد إلى قراءتها، والآن تعالوا لنجرّب هذا المعنى في مورد الذهن، فالذهن مثل الساتر السينمائي الذي ترادف عليه الأفكار بلا إنقطاع وتمحى وتزول، ففكرة تأتي وتنتهي وتحلّ محلّها فكرة أُخرى. هذه الأفكار لها حكم الأعداد في المثال السابق، نحن نستطيع التوجّه إلى هذه الأعداد بتلك الكيفيّة الذهنية، وكذلك إلى الأفكار أيضاً، فكلّ فكرة نتابعها منذ تولّدها وخطورها إلى الذهن ونقبض عليها بواسطة التوجّه بدقّة، فلو صنعنا ذلك لرأينا أنّ حياة الهوية الفكرية سوف تنقطع وتزول نهائياً، والدليل على ذلك واضح، فإنّ حالة التوجّه هي كيفيّة ذهنية مربوطة بالحال، وبما أنّ الذهن عندما يكون في زمان الحال فإنّ فعالية الفكر وجولانه سوف تُسلب منه تلقائياً، لأنّ الفكر لا يستطيع في آنٍ واحد أن يكون في زمان الحال، وفي نفس الوقت في الزمان الماضي أو المستقبل، وببيان آخر أنّ كون الذهن في الزمان الحال يمنع من أن يتوجّه الذهن إلى

الحافظة فإنّ الفكر عادةً ينبع من الحافظة والفكر الذي ينبع من الحافظة (سوى في الأُمور الفيزيكيّة والواقعيّة) هو فكر مرتبط مع «الأنا»، أو بعبارة أصحّ أنّ هذا الفكر عين «الأنا»، ففي حافظتنا هناك نوعين من المعلومات والإدراكات: أحدها: علوم واقعيّة مثل أنّنا نعلم أنّ إثنين مع إثنين يساوي أربعة، والآخر: إنّي أعلم بأنّي حقير أو غير حقير، موفّق أو فاشل، ونظائر ذلك، فلو أنّ الذهن لم يفكّر في الكيفيّة في الحافظة، يعني لم يسترفد معلوماته من الحافظة، فإنّ معنى ذلك أنّه لا يوجد شيء بإسم «أنا حقير» أو «غير حقير»، لأنّ الذهن يستلم الأنا من الحافظة ويصنعها.

ويمكن أن يطرأ هذا السؤال أنّه لنفترض أنّنا إستطعنا أن نحتفظ بالذهن في الزمان الحال، وقطعنا إرتباطه مع الحافظة، فهل أنّ مجموعة الظواهر التي تشكّل الأنا والمختزنة في الحافظة سوف تغيب وتُمحى وتزول كليّاً؟ فلو فرضنا أنّنا إستطعنا لمدّة عشر ساعات أو أربع وعشرين ساعة الإحتفاظ بالذهن في هذا الحال، فلم نسمح له بإثبات محتوياته في الذهن وأخذها من الحافظة لإظهارها على شاشة الفكر، فهل أنّه بعد أربع وعشرين ساعة تزول الهوية الفكرية من الحافظة أو أنّها تزول فقط في هذه الأربع وعشرين ساعة التي تعطّلت من الفعالية؟ وإيضاح هذه المسألة مهم جدّاً ويعتبر مفتاح لحلّ المسائل الأُخرى.

نحن ليس لدينا تصوّر جيّد عن الهويّة الفكرية، ونتصوّر أنّ الهوية هذه على شكل (شيء) وأنّها بصورة واقعيّة ووجود حقيقي فينا وجزء لا يتجزّأ من وجودنا، في حين أنّها ليست أكثر من ظاهرة سلبيّة في الفكر والحافظة، فعلى هذا إذا استمرّ ذهننا في حالة التوجّه يعني في زمان الحال، ففي هذه الصورة لا يوجد هناك إمكانية أن يأخذ الفكر من الحافظة، وحينئذ تزول

هذه الظاهرة نهائياً.

وللتوضيح أكثر فإنّ التوجّه ليس هو أمراً موقتاً، بل أنّ الذهن يجب أن يكون في حالة من التوجّه الدائمي، نحن لا ينبغي أن ننظر إلى وضعنا الفعلي، فإنّ جميع فعاليات ذهننا تعمل بصورة غير طبيعية فعلاً، وبما أنّ الذهن قد إعتاد على هذه الوضعيّة الفعليّة من التجوال، فإنّه يبدو بنظرنا أمراً عاديّاً وطبيعيّاً، فمثلاً الآن حيث أتكلّم معكم ولكن جميع توجّهي ليس إليكم وغير مرتبط معكم تماماً، بل جزء من ذهني ملتفت إليكم، والقسم الأعظم منه يتجوّل في أمكنة أُخرى، وفي نفس الوقت الذي أنظر إليكم وأتكلّم معكم أُفكّر أيضاً الآن بأنّ كلماتي وحديثي معكم هل أنّه حديث جيّد وجذّاب، أم لا؟ هل أنّكم تتكلّمون وتتحدّثون أفضل منّي، أم أنا أفضل منكم؟ وهل أنّكم سوف توافقون على أقوالي، أم لا؟ ومئات الأفكار الأُخرى، ولكنّ الذهن السالم هو الذهن الذي لم يخرج عن إطاره وسلوكه الطبيعي ولا يتجوّل هنا وهناك، الذهن السالم ملتفت ومتوجّه دائم، يعني أنّه ملتفت إلى مكان واحد دائماً.

والخلاصة أنّ أهمّ العوامل لحفظ وتداوم الهويّة الفكرية هو الزمان، ولو أنّ الذهن يحدّد في كيفيّة معيّنة من دون أن يقترن بالزمان، فإنّ ظاهرة الأنا لا تتشكّل حينئذ، ومن أجل أن لا نسلّم ذهننا إلى الزمان ولا إلى الحافظة، فيجب أن نتوجّه بدون إنقطاع إلى كيفية فعاليّته، ويجب أن يتوجّه الذهن إلى أنّه ماذا يصنع، وماذا يفعل، وبماذا يفكّر؟ فلو اتّضح هذا الموضوع نأتي إلى موضوع آخر لنرى ما هو العامل الآخر غير الإعتياد على التفكّر في الزمان للذهن؟ ما هو العامل الآخر الذي يسبّب حفظ وتداوم الهويّة الفكرية؟ هناك قصّة للمولوي على شكل تمثيل جيّد عن الوضع النفسي

والذهني لنا، فيقول: إنّ أحد السادة كان له غلام أحول ففي أحد الأيّام قال له: إئتني بالقنّينة الموجودة في الغرفة الفلانية، وبما أنّ الغلام أحول ويرى الشيء إثنين، فعندما دخل الغرفة رجع وقال: سيّدي أنّ هناك قنينتين، فأيّهما تريد؟ فقال السيّد: كلّا إنّها قنينة واحدة، فما كان من الغلام إلّا أن ذهب ورجع مرّة أُخرى وقال: إنّهما إثنان. فقال السيّد: إذهب واكسر أحدهما. فذهب الغلام وكسرها ورجع وقال: لم تبق قنينة بعد ذاك.

نحن منذ الطفولة قد أُصبنا بنوع من الأحولية النفسية، وقد تربّى ذهننا بشكل يرى باللحاظ النفسي كلّ ظاهرة إثنين، وهذه الأحوليّة هي أهم العلل لحفظ وتداوم المركز الذهني للهوية الفكرية بإسم «الأنا»، فلو شعرنا وأحسسنا بهذه الأحولية بشكلها العميق والواسع وأدركنا أنّنا نرى الظاهرة الواحدة ظاهرتان، فحينئذ نفس هذه المعرفة توجب أن تزول هاتين الظاهرتين كليهما.

وينبغي التوجّه إلى أنّ مرادنا من الأحوليّة النفسيّة ما هي؟ وكيف أنّ الذهن يرى الظاهرة الواحدة ظاهرتين؟ فنحن لدينا مركز، ومجموعة نفسية في الحافظة سمّيناها بإسم الهوية الفكرية أو «الأنا»، ونعلم أنّ هذا المركز تشكّل من الصفات والعناوين، وفي الواقع التصاوير الحاصلة من التعبير والتفسير، وبعد ذلك نأتي وننسب لهذا المركز مقدار من الصفات الأُخرى، ونقول: أنا إنسان حقير مثلاً، أو مهمّ، أو جبان، أو شجاع، أنا سفيه أو أحمق ونظائرها، يعني أنّنا في كلّ صفة نحسبها صفتين، أحدها في حساب المركز، والأُخرى صفة متعلّقة به، في حين أنّ الأنا أو المركز ليست ظاهرة سوى هذه الصفات المتقطّعة والمتفرّقة.

إنّ عملنا يحكي عن ذلك الشخص الذي يقول: أنّ الأشجار لا تدع

الإنسان أن يرى الغابة، فنحن بسبب الخداع الفكري والعادة الطويلة للأحولية الفكرية لا نرى هذه الحقيقة وهي أنّ الصفة هي الموجودة فحسب، لا أنا وصفة، فهناك الشجر فحسب، لا الشجر والغابة وعندما نقول: أنا جبان مثل أن نقول (الجبان جبان) وهكذا الحال في صفات التواضع والخوف والحقارة والتشخّص والكرم ونظائرها (والتي جُمعت في إناء الذهن الواحد وادغمت معها صفة الجبان) أليست هذه المجموعة من الصفات هي التي تشكّل «الأنا»؟ فعلى هذا سواء قلنا (أنا جبان) أو قلنا بأنّ صفات التواضع والخوف والكرم وأمثالها هي الجبان لا فرق في ذلك، وهل هناك معنىً واقعي وعقلي عندما نقول أنّ صفة التواضع أو صفة الحقارة أو صفة الخوف والكرم نخبر عنها بأنّها جبان؟!

الهوية الفكرية في الحقيقة هي حاصل نوع من الفعالية الذهنية نطلق عليها اسم (التفكّر الأكتيف) يعني تحكي عن جريان فكري معيّن في كيفية معيّنة، ثمّ نأتي إلى محصول هذا الجريان وهذه الفعالية التي هي في الأصل فعالية فكرية وذهنية فقط، ونكسرها ونضع لقسم منها اسم «الأنا»، وإلى القسم الآخر الصفات المتعلّقة بالأنا، وكلا هذان الأمران في حالة تداخل وتغيّر مستمر، يعني أنّ الصفات تارةً نأخذها بحساب الأنا، وتارةً أُخرى بصفات المتعلّقة بالأنا.

ومن أجل درك هذا الموضوع أفضل نأتي لنرى أنّ مسألة الأحوليّة والإثنينيّة للنظر من أين تبدأ؟ وبأيّ ترتيب؟

لنفترض أنّنا منذ اليوم بدأنا بتفسير وتعبير سلوك الطفل وقلنا له بمناسبة عمل معيّن قام به بأنّك (طفل جيّد)، فكلمة (الجيّد) سوف تثبّت في خلايا دماغه من دون أن يدرك فعلاً بصورة جيّدة معناها، وغداً

وبمناسبة عملاً آخر نقول له بأنّك (طفل سخي وكريم)، فكلمة (الكريم) تذهب إلى مخزن الحافظة وتثبّت هناك، وبعد غد لمّا نقول له بأنّك (طفل شجاع) فإنّ صفة الشجاعة منتسبة إلى تلك الصفتين السابقتين، وتدريجيّاً يتحوّل ذهنه إلى مركز للصفات يطلق عليها بـ(الأنا) وضمناً فإنّ الصفة الثالثة يعني الشجاعة التي أثبتها الطفل في ذهنه تضاف إلى الصفتين السابقتين وتشكّل معها مركزاً لصفة رابعة، والصفة الرابعة تضاف إلى الصفات الثلاثة القبليّة لتكون مركزاً لصفة خامسة، وهكذا، وبعد ذلك عندما نقول له (بأنّك طفل جيّد) فهذه الصفة ينسبها إلى تلك الصفات الأربعة يعني أنّ صفة (الجيّد) والتي هي أحد الصفات الأربعة وأحد أجزاء ذلك المركز يخرجها منه ثمّ يضيفها بعنوان صفة مستقلّة إلى مجموع المركز الذهني، وهكذا الصفات الأُخرى بهذه الكيفية (يجب الإلتفات إلى أنّ الفعل والإنفعالات في ذهن الطفل لا تكون بصورة صريحة ولا تستغرق مدّة قصيرة) والآن بعد أن عرفنا أنّ هناك ظاهرة واحدة في موضوعنا هذا يجب أن نتسائل من أنفسنا بأنّه ما هذه الظاهرة؟ فأنت لحدّ الآن تقول: «أنا شجاع» مثلاً، يعني أنّك ترى بأنّ هذه الظاهرة تتكوّن من عاملين أو ظاهرتين، أحدهما: «الأنا» بعنوان مركز، والأُخرى الشجاعة بعنوان صفة متعلّقة بذلك المركز، ولكنّ الآن علمت بأنّ هاتين الظاهرتين ليستا منفصلتين، فإنّ المركز والصفات المتعلّقة بها في الحقيقة تمثّلان ظاهرة واحدة، فعلى هذا يجب أن تسأل نفسك بأنّ تلك الظاهرة الواحدة أيّاً من هاتين الظاهرتين؟ فلابدّ من وجود ظاهرة واحدة، إمّا بحساب الأنا، أو بحساب الصفات المتعلّقة بالأنا، فإذا كانت هي عبارة عن الصفات، فإنّ السؤال المطروح هو: ما هو المركز لهذه الصفات؟ وبماذا تتعلّق؟ فإنّ الصفة

لا تكون بدون موصوف، فلابدّ من وجود كلّي حتى تنسب إليه صفة «الجمال» مثلاً، فأنت لا تستطيع أن تتصوّر صفة بدون أن تنسبها إلى موصوف، فإذا بقيت ظاهرة واحدة، وهي عبارة عن «الأنا»، فإنّ السؤال المطروح هو: ما هي الصفات؟ فهل يمكنك أن تتصوّر وجود مركز أو ظاهرة نفسيّة من دون صفات؟

فلو أنّنا إحتفظنا بهذه الأسئلة في ذهننا؟ وأدركناها جيّداً وبصورة محسوسة، فإنّ الذهن سوف يتخلّص من الهوية الفكرية تلقائياً، ويفرغ منها، يعني لا تبقى الأنا ولا صفات الأنا، لأنّ حفظ وتداوم هذه الظاهرة الخياليّة لا يمكن إلّا من خلال نظرتين، وما دام الإنسان يفكّر في الأنا على أساس أنّها ظاهرة معيّنة والصفات المتعلّقة بها ظاهرة أُخرى، فإنّ كليهما يمكنه التداوم والبقاء (وطبعاً البقاء والإستمرار الخيالي).

إنّ تيار الإثنينيّة في النظر هو أحد حيل ومكائد الفكر من أجل تداوم وإستمرار الهوية الفكرية فعندما يرى الفكر ظاهرة متزلزلة وخيالية بعنوان هوية وشخصية للإنسان، يأتي إلى هذه الظاهرة ويصنع لها مركزاً بإسم «الأنا»، ثمّ أنّه يصنع من تلك الظاهرة صفات وينسبها إلى ذلك المركز، والهدف من هذه الحيلة هي أنّها يحفظ هذه الصفات بواسطة المركز، ويستمرّ في حياتها، وبواسطة هذه الصفات أيضاً يحتفظ بذلك المركز، فحياة كلّ منهما منوطة بوجود الآخر، وإستمرار وتداوم الأنا مرتبط بوجود الصفات المنفصلة عنه، ووجود الصفات أيضاً منوط بوجود المركز المنفصل عن الصفات، وإذا كان الأوّل غير موجود فالثاني كذلك، وإذا كان الثاني غير موجود فالأوّل كذلك.

وكلّما أحسسنا بهذا الشعور النفسي بأعماق وجودنا يعني أنّنا أدركنا أنّ

الفكر قسّم ظاهرة خيالية إلى قسمين، وعرضها علينا على شكل ظاهرتين وشيئين، وبعد أن يدرك الإنسان هذه الإثنينية فإنّها تمحى من الذهن ويصبح الذهن خالياً منها، ويشعر الإنسان بأنّ مجموعة من التصورات معلّقة في فضاء الذهن من دون أن يكون لها مركزاً تعتمد عليه (يعني الأنا)، وفي هذه الحالة يهدأ الذهن ويحدث فيه تغيّر عجيب، وهذه الكيفيّة هي «**العدم**» يعني الإتّصال بعالم الوجود ككل.

لا أعلم هل إستطعت أن أُوضّح هذا الموضوع بصورة جيّدة أم لا؟

سؤال: لقد أدركت كاملاً ما تقول، ولكنّ الإدراك الذهني هذا ومن أجل أن أتمكّن من الإحساس به في أعماق وجودي يحتاج إلى فرصة من الخلوة والهدوء، ثمّ إنّني فهمت جيّداً ما تقوله حول الظاهرتين ولكنّي لم أفهم ما بعدها.

الجواب: لا ينبغي الإكتفاء بقولي أو قول أحد الأشخاص بأنّه ليست هناك ظاهرتين بالبين، لابدّ من أن تحسّ به في وجودك.

سؤال: لم أُدرك جيّداً القسم الأوّل من الموضوع.

الجواب: لنفترض أنّ مائة شخص دخلوا إلى جزيرة، وهؤلاء من أجل أن يثبتوا موجوديّتهم ويديروا أُمورهم فيما بينهم ينتخبون شخصاً منهم بعنوان حاكم أو أمير، فهل بعد إنتخاب هذا الشخص بعنوان حاكم سوف يصبح عدد الموجود مائة وواحد؟ من الواضح أنّ الجواب بالنفي، فإنّ الصفات التي تتشكّل منها هوّيتنا بحكم هؤلاء المائة نفر، والذين ينتخبون فيما بينهم أحدهم بعنوان «حاكم» أو «الأنا» أو أيّ إسم آخر، وبعد هذا الإنتخاب نتصوّر أنّ المجموع تبدّل إلى مائة وواحد أي حاكم واحد ومائة نفر عضو ورعيّة، في حين أنّ عنوان (الحاكم) ليس هو إلّا كلمة إعتبارية

ومجازية، وينبغي الإلتفات إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ المائة نفر الذين سكنوا المدينة لهم حقيقة واقعيّة في الخارج، ولكنّ المائة صفة التي تحصل في أذهاننا ما هي إلّا خيال ومجرّد فكر، وفي الحقيقة أنّ «الأنا» تخرج أحد هذه العناوين والصفات من بين مجموعة الصفات وتسعى إلى حفظ سائر العناوين والصفات وإرادتها على أساس أنّها ـ أي الأنا ـ مركزاً ثابتاً لسائر التصورات المتزلزلة والصفات الإعتبارية (أو بالعكس بأن نقول أنّ مائة صفة هي التي تقوم بحفظ الأنا الإعتبارية).

والآن إذا أدركنا بعمق بأنّه لا يوجد مثل هذا المركز الثابت، وليس هذا المركز سوى أحد الصفات الفكرية والخياليّة التي أظهرها الفكر لحفظ بقيّة الصفات والتصورات، فما هي النتيجة المتحصّلة من ذلك؟ ينبغي أن تدركوا هذا المطلب بأعماق وجودكم وتلمسونه بنفوسكم، فلحدّ الآن قلت عن نفسي بأنّي إنسان حقير، وشعر فكري بهذه الكيفية المخجلة، فلذلك نجده في إضطراب وسعي جاد إلى إزالة أو تغطية هذه الحقارة أو إزالتها من وجودي، ولكنّ الآن أدرك ذهني أنّ الأنا والحقارة كليهما محصولان لجريان واحد، فإنّ كليهما نتيجة تعبير الفكر نفسه، وكليهما عبارة عن ظاهرة واحدة بماهيّة متشابهة، فهل في هذه الصورة يقوم الذهن بالسعي لإزالة الحقارة هذه؟ من الواضح كلّا طبعاً، فالذهن وجد أنّ «الأنا» عين «الحقارة» والحقارة هي عين الأنا، وكليهما عين الفكر، يعني التفكّر الأكتيف، والأنا والحقارة وكلّ صفة أُخرى نظير الحقارة هي ظاهرة فكرية، ففي هذه الصورة ما حال الفكر؟ وما هي كيفيته؟ فمن البديهي أنّ الذهن سوف يهدأ وسوف يتوقّف عن السعي ومحاولات التنازع والتظاهر؟ وفي تلك اللحظة الذي يتوقّف فيه الذهن عن التفكير ويهدأ

نفسيّاً فإنّه لا وجود للأنا حينئذ، لأنّ الأنا هي نتيجة السعي وتفكير الذهن من أجل الأنا، والأنا يعني هو الفكر نفسه.

ولعلّكم رأيتم أنّ بعض الحيوانات يرى في ذنبه شيئاً مزاحماً ومنفصلاً عن نفسه فيسعى إلى الإلتفات والدوران حول نفسه ليقتلع ذنبه، فالأنا بمثابة الحيوان، والصفات هي ذيل الحيوان، فالأنا تتصوّر بأنّ الجبن والحقارة والعجز والضعف وغير ذلك من الصفات منفصلة عنها، فلهذا نجدها في سعي مستمر إلى إبعادها والتخلّص منها، والتفاوت بيننا وبين الحيوان في هذا المورد هو أنّ ذنب الحيوان له واقعية وحقيقة وجزء من الحيوان نفسه، ولكنّ صفاتنا هي محصّلة ونتيجة فعّالية الفكر ودورانه حول نفسه ومجموعة الهوية الفكرية يعني الأنا ناشئة من دوران الفكر حول نفسه، ففي اللحظة التي تُدرك فيه الأنا أنّ صفاتها (أي ذنبها) جزء منها، فحينئذ لا تسعى إلى إزالتها، ففي هذه الصورة لا الذنب يبقى ولا الحيوان نفسه، لأنّ هذا الحيوان متشكّل من الأعضاء التي لها حكم الذنب، ففي اللحظة التي يدرك فيها الذهن أنّ الأنا والحقارة شيء واحد، فإنّه سوف يتوقّف عن أي سعي من أجل طرد الحقارة وإزالتها، في هذه الحال تحدث في الذهن حالة الهدوء، فيكون خالياً من كلّ تلك التصورات السلبية، لأنّ معنى توقّف الذهن عن السعي لرفع الحقارة هو أنّه يتوقّف في المستقبل عن السعي إلى التشخّص وصيرورته وصيرورة الفرد كيان مهم، والذهن الذي لا يفكّر في المستقبل سوف يخلو من الماضي تلقائياً، لأنّ الماضي النفسي يوجد في الذهن ما دام الذهن يفكّر في المستقبل، والعكس صحيح، فهذان الإثنان في الحقيقة هما إنعكاس الوحد على الآخر، فعندما لا يفكّر في المستقبل فإنّه لا يفكّر في الماضي أيضاً،

فالذهن أبقى عنوان الحقارة في الحافظة (وجميع محتويات الحافظة هي نتيجة التفكّر في الماضي للذهن) وبعد ذلك يتصوّر الذهن عنوان (التشخّص) والمكانة والمنزلة الإجتماعية) التي هي ردّ فعل لعنوان الحقارة، ويتصوّر هذا العنوان في المستقبل ويسعى دائماً إلى نيله، فلو توقّف الذهن عن التفكير بالتشخّص لا يمكنه أن يتصوّر عنوان الحقارة.

إذاً فعندما يدرك الذهن بأنّ الأنا وصفاتها هي ظاهرة وعناوين لا أكثر، فإنّ معنى ذلك أنّه سوف يدرك جيّداً أنّ السعي في هذا الطريق هو عبث، فلا يسعى حينئذ لإزالة شيء، ولا يسعى أن يغيّر شيئاً، أو يخفي شيئاً، أو يبرّر شيئاً، أو يهرب من شيء، أو يقنّع شيئاً، وحينئذ سوف يعمل الذهن كوحدة متكاملة من السعي والإنتباه والصراحة، يعني سوف تكون كيفيّته هي (باسيف) وفي هذه الحالة لا يوجد مركز بعنوان الأنا في الذهن.

وأحد العوامل الأُخرى لحفظ الهوية الفكرية كما نعلم هي الألفاظ والكلمات، فالأنا والفكر (أي فكر الأكتيف) واللفظ والكلمة وكلّ هذه الثلاثة تعتبر ظاهرة واحدة، فلو رفعنا الكلمات عن الهوية فلا يبقى لديها محتوى، فمثلاً هذه الشجرة التي أمامنا هي حقيقة وواقع، ولفظ الشجرة هو ينوب عن ذلك المعنى في الفكر، فلو أنّك طرحت جانباً لفظ الشجرة ولم تطلقها على تلك الحقيقة الخارجية، فإنّ تلك الحقيقة ستبقى، ولكن إذا أزلت الألفاظ عن الهويّة الفكرية فإنّه سوف لا يبقى شيء إطلاقاً، فلنأخذ أحد صفات الهوية الفكرية ونسعى إلى أن نلمس محتواها ونشعر به في نفوسنا من دون أن نطلق عليه أيّ لفظ وكلمة في أفكارنا، فماذا سوف تكون كيفية الذهن؟ فأنت تقول عن نفسك بأنّي (إنسان جبان حقير ناقص متخلّف أو متكبّر أو متواضع وأمثال ذلك) والآن حاول أن تدرك معنى الحقارة

والخوف والتواضع والتكبّر والأُمور الأُخرى في نفسك جيّداً من دون تلك الكلمات والألفاظ التي نطلقها عليها، أي حاول أن تربط نفسك مباشرةً بالمحتوى لتلك الصفات من دون الإستعانة بالكلمات والألفاظ، فإذا فعلت ذلك رأيت أنّه لا يوجد أي محتوى حتّى يكون هو موضوع الفكر، وحينئذ سيواجه الذهن خلاءً مطلقاً.

ومن أجل أن لا ننخدع بحيلة الفكر ينبغي الإلتفات إلى هذه النقاط وهي: **أوّلاً** أنّنا لا ينبغي أن نأخذ الأعمال والسلوكيات بدل محتوى تلك الصفات، لأنّه كما قلنا سابقاً أنّ العمل لا يكون دليلاً على واقعيّة الصفة، وصحيح أنّ العمل حقيقة وواقع، ولكنّ التعبير عنه بعنوان الصفة الفلانية ليس حقيقة، بل هي تعبير لفظي وإعتباري، **وثانياً**: الاتقارن هويّتك مع الآخرين، ولا مع ماضيك، يعني لا تقل بأنّ سلوكي يشبه سلوك الشخص الفلاني، وبما أنّ سلوكه حقير إذاً فأنا أيضاً حقير، أو بما إنّني بالأمس كنت حقيراً وجباناً فالآن كذلك، أنت الآن لا تقول بأنّني بالأمس كنت جائعاً فاليوم أيضاً جائع، بل أنّ جوعك الآن تشعر به فعلاً، ولو أنّك لم تفكّر في كلمة (الجائع) فمع ذلك يمكنك أيضاً أن تشعر بالجوع في نفسك وفي داخلك، وبهذا الطريق عليك أن تسعى إلى إشعار نفسك بالجبن والحقارة من دون إستخدام كلمة في الفكر.

وهذا العمل يمكنك أن تجرّبه في الموارد الأُخرى للإحساسات النفسيّة، من قبيل الإضطراب والغضب والتنفّر واليأس والحسد والإحساس باللذّة والإحساس بالغمّ والحزن وأيّ إحساس آخر، فإنّك مضافاً إلى اللفظ والكلمة فإنّها تحتوي على محتوىً داخلي أيضاً، وعندما تشعر بالغضب والتنفّر والإضطراب واللذّة أو الألم فعليك أن تسعى إلى أن

تدرك وتحسّ بمحتواها الداخلي من دون تدخّل الكلمات، كما يشعر الإنسان بوجع السنّ من دون أن يفكّر بكلمة الوجع، فلو أنّك حصلت على هذه الكيفيّة لرأيت أنّ الإضطراب والغضب واللذّة والغمّ سوف تزول وتحلّ محلّها حالة من الشوق والإنتعاش والراحة تملأ وجودك وروحك، والسبب في هذا الأمر أنّ الإحساسات الفعليّة لنا منشأها الكلمات، أي أنّ وراء إحساساتنا تكمن كلمات وألفاظ وما دام فكرنا مشغولاً بهذه الكلمات، فالإحساس مقارن لها أيضاً، وبمجرّد أن يتوقّف الفكر عن التفكير بالكلمة المحرّكة للإحساس الخاصّ، فإنّ ذلك الإحساس سيزول وينتهي تلقائياً، فأنت تقول لي بأنّك (أحمق)، فأنا أشعر فوراً بالإضطراب والغضب والتنفّر، فهذا الإضطراب والغضب والتنفّر الذي حصل في نفسي لأنّ ذهني أخذ يفكّر في كلمة الأحمق، فلو لم أُفكّر بهذه الكلمة فسوف لا أشعر بذلك الإحساس المقارن لها.

وقبل أن نطرح الأسئلة المربوطة ببحثنا اليوم لابدّ من تذكّر عدّة نقاط فرعية مرتبطة بهذا الموضوع.

وهذه النقاط تدور حول كيفيّة التخلّص من «الأنا» وأنّه لا ينحصر بهذه الصورة، فإنّ كلّ شخص بإمكانه التخلّص من الأنا بشكل من الأشكال، ولكنّ جميع الطرق تعود في النهاية إلى تفريغ الذهن من الفكر، وحينئذ يهدأ ويطمئن.

والمطلب الآخر هو أنّ الأنا بالمعنى الذي بحثناه سابقاً تختلف عن الأنا بمعنى المتداول والمتعارف، فالبعض يرى أنّ هذه الظاهرة محدودة بالغرائز الشيطانية والأهواء المضرّة والصفات المذمومة والسلوكيات السلبية وأمثال ذلك، ولكنّنا في بحثنا هذا عن الأنا يدور كلامنا بشكل

واسع عن هذه الظاهرة.

ويرى البعض أنّ هذه الظاهرة هي ما يصطلح عليها بالنفس الأمّارة، وهذا الإصطلاح جامع ودقيق نسبيّاً، وأحد أهمّ الخصوصيات الهوية الفكرية هي الكيفيّة الأمّارية والجبّارية لها بحيث أنّ جميع وجودنا يصبح أسيراً لها وخاضعاً لسلطانها.

والنكتة الأُخرى أيضاً في ضمن بحثنا هذا من أجل توصيف هذه الظاهرة لهويتنا هي أنّنا نستخدم عبارات مختلفة، فتارةً كلمة «الأنا» وتارةً «الهوية الفكرية» وأُخرى «القالب» والرابعة «التفكّر الأكتيف» وخامسة «التفكّر الوهمي والخيالي» وهكذا، ولعلّه هناك إصطلاحات أُخرى نستعملها أيضاً في هذا المجال، والتوضيح الذي لابدّ منه هو أنّ معنى ومحتوى جميع الإصطلاحات هو شيء واحد، والسبب في إستعمالنا الإصطلاحات المتفاوتة لظاهرة واحدة هو أنّ كلّ إصطلاح يحتوي على جنبة وخصوصيّة معيّنة يوضّح هذه الجهة أفضل من بقيّة الكلمات، فمثلاً كلمة «**القالب**» الذي يعطي معنى الحصر والمحدودية والشعور بالقيد والضغط الناشيء من هذه الظاهرة أفضل من بقيّة الإصطلاحات الأُخرى، وفي نظري أنّ مولوي شبّه هذا القالب الذهني أيضاً بالسير والمشي بحذاء ضيّق في صحراء واسعة، وهذا التشبيه دقيق جدّاً، فهذا القالب الفكري يؤدّي أوّلاً إلى محدوديّة وجودنا ويحصر وجودنا اللّا محدود في داخل قالب معيّن، وثانياً الضغط والألم الناشيء من ضيق ذلك الحذاء.

وهناك إصطلاح «الهوية العنوانية» أو الأنا القيمي أو الصفاتي فإنّه يعطي معنى التقطّع والتجزئة في هذه الظاهرة، فإنّها تتشكّل من مئات الأفكار المنفصلة والمتجزئة، وكذلك إصطلاح «الهويّة الفكرية» فهو من

أجل أن نوضّح أنّ هذه الظاهرة هي صنيعة الفكر لا الحالات المعنوية وراء الفكر، وكذلك «الهويّة اللفظية» فتدلّ على أنّ هذه الظاهرة ليس لها شيء وراء الألفاظ والكلمات، وعلى كلّ حال فتوضيح هذه المطالب من أجل أن لا نضيع في زُحمة الألفاظ والإصطلاحات المختلفة لمعنىً واحد.

وآخر ملاحظة نذكرها في هذا المجال هو أنّ البعض يتصوّر أنّ تزكية النفس يكون في الإعراض والإنقطاع عن تعلّقات المادية والدنيوية فحسب، وهذا التصوّر ناشيء من محدودية رؤية النفس، فمسألة النفس أو الأنا لا تتحدّد بالمتعلّقات المادية، وأساساً فإنّ الأصح أن نقول أنّ الإنسان لا يتعلّق بالماديات أساساً، بل بالتعبيرات والقيم الإعتبارية المترتّبة عليها، فالأُمور المادية في الحقيقة هي عامل مساعد ويدعم القيم النفسية، وتعلّق الإنسان بالماديّات إنّما يكون لهذه الجهة المؤيّدة لها.

والآن فنحن على إستعداد للإجابة على الأسئلة، أمّا بقيّة المسائل فسوف تأتي في الأبحاث اللاحقة.

سؤال: أنت تقول أنّ الإنسان إذا التفت إلى ما يدور في الذهن فسوف يتخلّص من الأنا، ولكنّني حاولت ذلك كثيراً ولم تحصل نتيجة.

الجواب: السبب هو أوّلاً أنّ مدّة التوجّه الذهني كانت قصيرة، فالتوجّه يجب أن يكون بصورة كيفية دائمة، وحالة مستمرّة للذهن.

وثانياً: في أوائل العمل لا يمكن التوجّه الكامل، بل يكون مختلطاً بالفكر، فيمكن أن تحصل القشرة العليا للدماغ على الهدوء، ولكنّ الطبقات السفلى والعميقة للمخ مشغولة بالتفكير بالأنا، وكلّما كان زمن التوجّه أطول فإنّ التوجّه سيكون أكمل وأعمق، وكلّما كان التوجّه أطول وأعمق أيضاً أدرك الإنسان وخامة المسألة أكثر، ففي مثال ستار السينما والأعداد،

فعندما يقال لك بأنّك لو إستطعت أن تحسب الأعداد فإنّك سوف تحصل على جائزة، ويقال لك أيضاً لو لم تستطع أن تحسب الأعداد سوف تعاقب بشدّة، ويقال لك ثالثاً انّك لو لم تستطع أن تقرأ الأعداد ،سوف يكون مصيرك الإعدام. فمن الطبيعي انّك في هذه الموارد الثلاثة سوف يختلف توجّهك، ففي المورد الأوّل وهو إعطاء الجائزة لا تأخذ المسألة بجدّية كثيراً، وحينئذ سوف تكون بعض تفكيراتك أو القسم الأكثر منها تتجوّل في أماكن أُخرى، ولكن عندما يقال لك إنّك إذا لم تقرأ الأعداد فسوف يكون مصيرك الإعدام، فإنّ حالة ذهنك ستكون بكيفية أُخرى وتنقطع رابطة ذهنك مع الدنيا وما فيها، ويقتصر توجّهك حينئذ على ستار السينما ولا يتحرّك أدنى حركة بخلاف ذلك، فلو أنّنا شعرنا كذلك في أنفسنا إلى درجة الشعور بالإعدام فإنّنا سوف ندرك وخامة المسألة أكثر وينحصر ذهننا على التوجّه، ففي هذا الحال سوف يتوقّف من السعي المستمر لحفظ هذه الجرثومة المخرّبة، وسوف يهدأ ويفرغ البال من عذابها وتدميرها.

سؤال: من العسير أن نتصوّر ذهناً خالياً أي فارغاً من الفعاليات ولا يفكّر بشيء.

الجواب: نعم، أنّنا إعتدنا أن يكون ذهننا مليئاً ومشغولاً بالتصوّرات، فلا يهدأ لنا بال من دون سعي وإشتغال، فذهننا يجب أن يكون دائماً في حركة مستمرّة حتّى يحفظ هذه التحفة الذهنية، ويحافظ عليها من التضرّر والضعف، ولكنّنا إذا قطعنا علاقتنا ورغبتنا عن هذه التحفة لكي يعود الفكر إلى العمل بمسؤوليته وبوظيفته الأساسية، لرأينا أنّ الذهن يمكن أن يكون فارغ البال وهادئاً وخالياً من هذا الفكر الوهمي، وسيكون في حالة طبيعيّة، ويجب أن يكون كذلك، فالأصل في كيفيّة الذهن أن يكون سالماً

وهادئاً ولا ينشط إلّا في وقت يرى فيها ضرورة حقيقيّة للحركة والنشاط، كما نستعمل عضلاتنا في العمل المفيد، ولكنّ ذهننا المسكين الذي هو الأصل في وجودنا ويجب أن نحافظ عليه ونهتمّ ونعتني به مهمل، ودائماً نحاول إشغاله وتعذيبه بهذه التصورات، والسبب في أنّ ذهننا في الحال الحاضر يعمل بلا إنقطاع هو أنّ الذهن ينبغي عليه أن يدرك ويعمل في الموضوعات الواقعية، وكذلك الموضوعات الوهميّة التي صنعها لنفسه، في حين أنّ الذهن لو فرغ من الموضوعات المصنوعة والخيالية أي لو تخلّى من الأنا لرأينا كيف أنّه سيكون هادئاً وتحصل له حالة من التغيير العجيب.

سؤال: عندما تقول أنّ فكرنا هو الحاكم على وجودنا هل أنّ منظوركم هو أنّه أهمّ ظاهرة في وجود الإنسان.

الجواب: كلّا فلا شيء وراء الفكر في الإنسان حتّى يمكن مقايسته بالفكر، ولا يمكن قياسه بكلمات مهمّة أو غير مهمّة، كبيرة أو صغيرة، ذات قيمة أو غير ذات قيمة، وأمثال ذلك، فتلك الكيفيات وراء الفكر، ولها حالات ذاتية للإنسان، وتلك الحالات لا يمكن أن تكون قابلة للوصف، ولذا لا تدخل في دائرة الفكر.

سؤال: أنا أتصوّر أنّ حالة الذهن الذي خلا من الفعالية مثل حالة الإنسان قبل النوم يعني حالة التعب في عين الهدوء والخفّة.

الجواب: كلّا إنّه ليس من قبيل التعب، بل هي حالة بسبب الإستراحة الكافية لخلايا الدماغ، فسوف تحصل للدماغ حالة من الذكاء واليقظة فوق العادة، وعندما يحتاج الجسم إلى الإستراحة فإنّه سوف يلجأ إلى النوم تلقائياً حتّى يضمن تجديد القوى والطاقات لخلايا البدن، وفي حالة إنعدام الأنا فإنّ وجود الإنسان سوف يتعادل من اللحاظ الجسمي وأيضاً

من اللحاظ النفسي، ويعود له النظم الطبيعي، ولكنّ الوضع الحاضر جعل أنفسنا في فوضى وعدم إنسجام، فمن جهة بسبب الفعالية الشديدة للفكر فإنّ خلايا الدماغ أصابها التعب الشديد وتحتاج بشدّة إلى الإستراحة، ولكن من جهة أُخرى نحن جعلناها فعّالة وأبقيناها في حالة نشاط وعمل مرهق، لأنّ منزلة الفكر بمثابة مركز قيادة العمليّات لنا، فلهذا لابدّ أن يكون حاضراً دائماً في ميدان المبارزة، وبدون مبالغة يمكن القول أنّه عندما تحوّلت القيم التنافسية في أذهاننا على شكل الأنا فنحن لم نذق طعم الراحة بالمعنى الصحيح للكلمة، فنحن في حالة نوم ويقظة دائمين، فنومنا مثل نوم الجنود في حالة الطوارىء والحراسة، فمثل هذا النوم يكون دائماً في حالة قلق وإضطراب، فنحن حتّى في حالة النوم نجد أنفسنا مضطرين للدفاع وتهيئة وسائل المبارزة، وعندما نتهيّأ للنوم يكون ذهننا ميداناً لجولان الأنا وآمالها وتمنّياتها أو ميدان المبارزة لما تبقّى من اليوم الفائت.

سؤال: أنا لدي سؤال لا يرتبط مباشرةً بكلامك هذا اليوم، ولكن بنظري أن هناك مسألة مهمّة لابدّ من طرحها هنا، فأنت قلت في كتابك (الإنسان الضائع والمعرفة) مع تأكيدات كثيرة أنّ المطالعة عمل مضرّ، في حين أنّني أرى مطالعة علوم الآخرين ونظرياتهم تساعد الإنسان على الإطّلاع، فلماذا تقول أنّ المطالعة مضرّة؟

الجواب: قد أوضحت هناك أنّه أوّلاً المنظور من المطالعة ليست مطالعة العلوم، فأنت إذا أردت أن تكون طبيباً أو مهندساً أو عالماً فيزائياً جيّداً، لابدّ من أن تستفيد من تجارب الآخرين، وهذا أمر بديهي، ولكنّ بحثنا مربوط بالموضوعات المعنوية والأخلاقية، فعلى هذا لابدّ من الإلتفات إلى أنّ كلامنا في هذا المجال ما هو؟ لنفترض أنّك قرأت كتاب

ديوان مولوي، وأدركت معاني قصائدها وكلماته، فسؤالي منك هو: ماذا إستفدت من ذلك؟ ألم تكن أشعار المولوي حاوية على إشارات وتعليمات للوصول إلى الحقيقة وتطهير الذهن من الخيال والتصورات الواهية؟ فهل أنت بعد مطالعتك لهذه الإشارات والتعليمات وصلت إلى الحقيقة؟ ولماذا لم تصل؟ لأنّ ذهنك لم تكن له الكيفية المطلوبة في حالة المطالعة، فأنت قد قرأت مئات وآلاف المواضيع وحفظتها، ولكن لا بالكيفيّة المطلوبة، فلو كان ذهنك يتمتّع بالكيفيّة المطلوبة، فيكفيك عدّة إشارات أو حتّى إشارة واحدة لتوصلك إلى الحقيقة، فلنفترض أنّك قرأت هذا المطلب حيث يقول مولوي: (إنّ أمام عينك زجاجة غامقة ولهذا ترى العالَم غامقاً).

والآن قل لي ماذا إستفدت من هذه الإشارة؟ فلو كان ذهنك مستعدّاً للتعلّم فيكفيه هذه الإشارة حتّى يخلّصك من ظلمات باطنك، وإذا لم تكن لذهنك تلك الكيفية فإنّ آلاف الإشارات الأُخرى نظير ذلك لا تكون ذات فائدة، وكلام المولوي المذكور يُعدّ نظرية مستقلّة وايدلوجيّة سارية، والآن أنا أسأل منك: هل ترى أنّ هذه النظرية صحيحة؟ فماذا جوابك؟ إذا قلت أنّها صحيحة، فأنا أسأل: من أين علمت أنّها صحيحة؟ هل وجدت هذه الزجاجة الغامقة النفسيّة في باطنك وشعرت بها ولمستها؟ فلو قلت: أنّ النظرية خاطئة، فمع ذلك أسألك: من أين علمت أنّها خاطئة؟ هل دخلت عالمك الداخلي وبحثت عن هذه الزجاجة ورأيت عدم وجودها؟ فلو أنّك دخلت في عالمك الباطني فإنّ إشارات المولوي الأُخرى لا تعدّ بالنسبة لك ايدلوجيّة ونظرية فحسب، بل حقيقة قد أدركتها بنفسك، غاية الأمر بمساعدات إشارات المولوي، ولو لم تدرك هذه الحقيقة (سواءً كانت الزجاجة موجودة أم لا) فلا فائدة في هذه النظرية لك وحتّى لو جمعت آلاف النظريات مثلها في حافظتك من دون أن تدرك محتواها، فلا نفع في

ذلك، فلو كان ذهنك طالباً للحقيقة فلا لزوم إلى حفظ كلّ هذه النظريات، بل بمساعدة إشارة واحدة يمكن الوصول إلى الحقيقة، ولا لزوم حتماً أن تكون تلك الإشارة من فيلسوف أو حكيم أو عالم، فالحياة مليئة بالإشارات، وعليك أن تفتح عينك وتراها.

وعلى كلّ حال فإنّ المطالعة بالكيفيّة السائدة ليس فقط أنّها غير مطلوبة فحسب، بل أنّها تبدّلنا إلى إنسان من الدرجة الثانية متفرعن وطاغوتي ومتكبّر ومغرور، والسبب في ذلك أنّ هذا المركز للمطالعة هو عين الفكر الخيالي، والفكر عين الأنا، فعلى هذا فكلّما يحصل بواسطة المركز فإنّ ثقل الأنا سوف يزداد، والأنا عين التكبّر والتي تؤسّر الإنسان دائماً.

سؤال: بنظري أنّ الإطّلاع على نظريات الآخرين أفضل من عدم الإطّلاع.

الجواب: أنت لم تلتفت إلى ما قلناه، فالإشكال ليس في عدم الإطّلاع والعلم، بل في الإطّلاع الخاطىء، فالجهل وعدم العلم بالنسبة إلى الإنسان ليس من أجل عدم معرفته للأشياء بل بسبب أنّه يعلمها علماً خاطئاً، وهذا الإشتباه والخطأ في العلم من أجل أنّ العلم أصبح وسيلة إلى الفكر، وكلامي أنّ علومنا لو حصلت بواسطة القالب فإنّها ليست علوماً فحسب، وليست لا توجب إطّلاعنا على الحقيقة فحسب، بل هي الجهل المتورّم، فالقالب يعني الفكر، وكلّ شيء يحصل بواسطة الفكر يكون وهمي مثله.

* * *

الفصل السادس

بعض المسائل المتعلّقة بمعرفة النفس

الكثير من الأساليب والنظم التي قيلت لمعرفة النفس وجهاد النفس هي في الحقيقة وسيلة للخداع ومشغولية الإنسان، وفي بحثنا اليوم نتعرّض إلى بعض هذه الأساليب بشكل مختصر، ولكن قبل ذلك لابدّ أوّلاً من توضيح أنّ المراد من ذكر هذه الأساليب والنظم للمعرفة هي التعرّف على الخصائص السلبية لتلك النظم والمناهج، لا البحث حول نظام خاصّ وبحث معيّن، أي انّنا نريد أن نرى بأنّ معرفة النفس كيف ومتى تكون غير صحيحة وموجبة للخداع؟ وثانياً: إنّ المطالب المذكورة في هذه الأنظمة والأساليب شاملة لكلّ مكتب ونظام له خصوصيات مشابهة لتلك المذاهب أيضاً، وفي الواقع نحن لا ندرس مذهباً ونظاماً خاصّاً، بل هدفنا من التحقيق في الخصوصيات المانعة للمعرفة، والإطّلاع على المذاهب والأنظمة المعاصرة، والحديث عنها، هو من أجل أنّني لمست عدم فائدتها من قريب واطّلعت جيّداً على عدم جدواها.

على كلّ حال فإنّ أحد هذه الأنظمة هو (**Auto - Conditioning**) ومعناها في ترجمتها هو (تعليم الذات) أو (التعليم الشرطي للذات) وأحد الأنظمة والأساليب الأُخرى هي (بسيك انـاليز) المعروف أو (التحليل النفسي) ونحن نريد أن نرى هل هذه الأساليب تساعد الإنسان واقعاً في معرفة النفس، أو أنّها واقعاً مشغوليات وخداع لا أكثر؟

ومن أجل إيضاح هذا الموضوع أكثر يجب أوّلاً أن نطرح مسألة كليّة وتوضيحها، يجب أن نرى أنّ المسائل الواقعيّة للإنسان ما هي؟ وما هي حقيقة وخصوصيات هذه المسائل؟ لأنّه لو لم يتّضح لنا هذه المسألة، فمن البديهي أنّنا لا نستطيع أن نتحدّث حول الأساليب والكيفيات لرفعها.

في تفسيم الكلّي فالمسائل بالنسبة لنا على قسمين أو نوعين:

النوع الأوّل: المسائل الواقعية والتي لها حقيقة واقعاً، والنوع الآخر: المسائل التي ليست في نفسها حقيقة واقعاً، بل هي ظهرت بصورة مسألة في بناء الهوية الفكرية لنا، وعلى كلّ حال فإنّ كلا هاتين الطائفتين من المسائل هي نتيجة مباشرة أو غير مباشرة لنوع التفكّر الذي نقول عنه بأنّه تفكّر (أكتيف) وهذا النوع من التفكّر يوجّه لطمة وضربة شديدة إلى فطرتنا وماهيّتنا المعنوية والأصيلة، فمثلاً قطع هذا التفكير إرتباطنا مع حالة العشق، وعمل على تجزئتنا وفصلنا عن عالم الوجود، وأعمى أعيننا البصيرة بالحقائق وأتلف طاقاتنا في أُمور خاوية وفارغة بدل من صرفها إلى وجودنا الحقيقي، بل إستخدمها من أجل خدمة الظاهرة الخيالية للفكر، وأهدر تلك الطاقات بوسيلة الحصار الذي أوجده على الذهن حيث جعل من نظرنا محدوداً وضيّقاً، وأدّى إلى أن تكون حياتنا منحصرة بمعناها الضيّق والشخصي والإنفرادي بحيث لا تتجاوز حدّ القالب، وأدّى أيضاً إلى أنّنا نقطع إرتباطنا المباشر بالحياة الحقيقيّة، ونستبدلها بالعلاقة مع الحياة المجازية وعشرات المسائل الأُخرى نظير ذلك، أليست هذه مسألة مهمّة واقعاً ووخيمة جدّاً؟ ولكنّنا لا نلتفت عادةً إلى هذه المسائل، أو أنّنا أساساً لم نطّلع بوجودها، وبدلاً عن ذلك أشغلنا ذهننا ببعض المسائل التافهة على أساس إنّها مسائل واقعيّة وحقيقيّة في نفسها، مثلاً

ظاهرة بإسم الحقارة أو الخجل أو الجبن أو الضعف والعجز وأمثال ذلك فالهويّة الفكرية أيضاً هي التي تشخّص لنا ماهيّة الأعمال وتفسّر لنا الحقائق، فتارةً تفسّر عملاً معيّناً بأنّه حقارة، وأُخرى بأنّه شجاعة، وآخر بأنّه جبن، أو رياء، أو تظاهر، أو ذلّة وأمثال ذلك، بل أنّ هناك مسائل في باطن الهوية الفكرية تظهرها على أساس أنّها مسألة مهمّة، وبما أنّ أساس هذه الهوية يقوم على الفكر وكلّما يرتبط بها فانّه محصول هذه المسائل وتلك التعبيرات وهي مجرّد فكر وإعتبار فحسب لا واقع وحقيقة.

ولنفترض أنّ جيش العدو ـ مثلاً جيش المغول ـ قد جاء واستولى على بلادنا، فهذا الجيش يمكن أن يخلق لنا مسألتين، إحداهما: أنّه يؤسّرنا ويصادر حريتنا ويؤذينا ويربك حياتنا. والأُخرى: هي أنّ أفراد هذا الجيش غير متلائمين وغير منسجمين بينهم ومتناقضين، فإنّ لسان وتفكّر الأكتيف بمثابة هذه الجنود للأعداء، فنحن حينئذ نواجه في حياتنا مشاكل مهمّة بالنسبة إلى أصالتنا المعنوية، ومن جهة أُخرى أنّه يعاني من التضادّ في داخله، مثل التضادّ الموجود بين جنود العدوّ، فمسألة الحقارة والجبن والذلّة ونظائرها الكامنة في الهويّة الفكرية وماهية هذه المسائل بمثابة الجنود والآن لنتوجّه إلى أصل الموضوع ونطرح هذا السؤال وهو أنّ (التعلّم المباشر) و (بسيك انااليز) وأي مذهب آخر في علم النفس والذي يرتبط بالمسائل النفسية والأخلاقية للإنسان، فما هو موضوع هذه المذاهب من هاتين الطائفتين من المسائل؟ هل أنّهم يريدون أن يطفؤوا عشقنا وثمّ يوقدوه مرّة أُخرى ويعودوا بنا إلى أصالتنا؟ هل يريدون أن يوصلونا إلى التوحّد والوحدة النفسيّة بعد ما حلّ بنا من كارثة التجزئة والتشتّت؟ هل يريدون أن يوقظونا من الجهل العميق الناشيء من الهوية

المبتنية على الوهم والتفكّر؟ هل يريدون أن يستبدلوا نظرنا القديم بنظر جديد، أو هل يريدون إزالة صفة الخجل والحقارة والضعف والعجز منّا؟ وبشكل عام فإنّ هذه المذاهب النفسية هل تريد أن تخلّصنا من وجود جنود الأعداء الذين دمّروا أصالتنا وحقيقتنا ووجودنا، أو يريدون أن يحلّوا التضادّ بين جنود الأعداء؟ هذه مسائل لابدّ من توضيحها.

فأوّلاً نرى بأنّ (التعليم النفسي المباشر) ماذا يقول؟ فهناك قصّة التجربة المعروفة لـ«بافلوف» مع الكلب ونعرفها جميعاً، ولا ضرورة لتكرارها، وجاء علماء النفس بعد ذلك وإستفادوا من هذه التجربة لحلّ المسائل النفسية والمعنوية للإنسان، فقالوا بأنّ المجتمع قد أورد صوراً عديدة في حافظتنا، والآن فإنّ سلوكنا وأعمالنا متأثّرة بتلك التصاوير، مثلاً السبب في أنّ سلوكي سلوك حقير لأنّني أتصوّر أنّني إنسان حقير، وقد ثبت هذا المعنى في حافظتي، والآن إذا أردت أن أُطهّر حافظتي من هذه الصورة السلبية بواسطة (التلقين النفسي المباشر) أو بواسطة (التلقين للذات) الذي هو أحد الوسائل المعروفة لهذا الهدف وأستبدل تلك الصورة بصورة إنسان غير حقير أو ذكي أو إنسان جيّد، فحينئذ سوف يكون سلوكي الواقعي جيّد وغير حقير، وهذا خلاصة ما ذكروه في هذا الباب.

جيّد، لنرى ما مقدار صحّة هذا الكلام، ومقدار الخطأ، وهل أنّ هذا العمل يُعدّ حلاً أساسياً، أو أنّه مجرّد ترقيع وسدّ الثغرات؟ والمقصود من (التفكّر الشرطي) هو أنّ المجتمع عندما لقّننا تلك التصاوير وبوسيلة التكرار حمّلها وأثبتها في أذهاننا، فنحن الآن نعمل ونسلك بحكم تلك التصاوير، يعني أعمالنا ما هي إلّا ردّ فعل لتلك التصاوير الذهنية، والمطلب لحدّ الآن صحيح تماماً، فإنّ التصاوير المثبّتة في ذهننا تشكّل لنا

القالب الذهني، ونحن الآن في كلّ عمل وفي كلّ سلوك نقع تحت تأثير ذلك القالب، ونعمل به، وهذا هو ما يقال أنّنا أصبحنا شرطيّين، بهذا المعنى أنّ أعمالنا وسلوكنا مشروط بأمر ذلك القالب، فكلّما نسجه لنا من أوامر وأحكام فنحن نسلك ذلك السلوك المتأثّر به.

والموضوع لحدّ الآن صحيح فنحن أوّلاً أصبحنا شرطيّين، وثانياً نحن نستطيع بواسطة (التلقين للذات) أن نوجد تغييرات تكون مطلوبة ومناسبة بنظرنا للقالب الذهني، وكما يقال أنّه قالب جديد للتفكّر، يعني أن نقول أنّ التصاوير والمفاهيم جعلها المجتمع في ذهننا من دون إختيار وإرادتنا وإطّلاعنا، ونحن الآن نريد بإختيارنا وإطّلاعنا أن نكسر هذا القالب ونصنع قالباً جديداً آخر.

ولكن في هذا الصدد هناك عدّة أسئلة وملاحظات دقيقة لابدّ من إيضاحها، والسؤال الأوّل: هو من يشخّص أنّ هذا التصوير غير مطلوب، أو أنّ التصوير الفلاني يجب أن يحلّ محلّ التصاوير القديمة؟ وما هو العامل في تشخيص ذلك؟ في حين أنّ عوامل التشخيص هي جزء من ذلك القالب، ثمّ أنّه من يقول بأنّه يجب تغيير جميع القالب أليس أنّ القالب بنفسه يقول ذلك؟ ونعلم أنّ ذهننا له نوعان من الفعاليات، أحدهما: فعالية «الأكتيف» أو فعالية التعبير والتفسير. والأُخرى: فعالية «الباسيف» في كيفية الباسيف ذهننا يرى الواقعيّات كما هي من دون أي تعبير وتفسير ذهني، وفي هذا النوع من التفكّر فإنّ ذهننا يرى عدم دفاعنا أو سكوتنا مجرّد عدم دفاع وسكوت، لا بعنوان أنّه حقير أو خجول وما إلى ذلك، ولكنّ تفكّر الأكتيف أو التفكّر المفسّر يقول إنّ سكوتك في ذلك المجلس يُعطي معنى أنّك خجول.

جيّد، والآن أنا أُريد أن أُقيم القالب الذي يعيش في ذهني وأُريد تغييره وتجديده، فما هي الوسيلة للتقييم؟ حتماً هي الفكر بلا شكّ، والآن يجب أن نتسائل من أنفسنا عندما نريد التقييم، ما هي حالة الذهن وبأي وسيلة يقيّم هذه المسألة من تلك النوعين من الفعالية؟ هل يعيش في كيفية «الباسيف» أو «الأكتيف»؟ من الواضح أنّها كيفية «الأكتيف» لأنّنا قلنا أنّ كيفية «الباسيف» للذهن ليس فيها تفسير وتعبير، فكلّ حقيقة وشيء يراه الذهن كما هو، لا بمعنى الحقارة، ولا بغير الحقارة، لا ذو قيمة، ولا عديم القيمة، إذاً فالذهن يكون حينئذٍ في حال التقييم، وعندما نقول أنّ هذه التصاوير لا نحبّها ويجب إستبدالها بتصاوير أُخرى، هذه الكيفية هي كيفية «الأكتيف» وكلّ حركة أكتيف للذهن بمعنى الحركة في القالب، أو بعبارة أدقّ: إنّ حركة الأكتيف للذهن عين القالب، فإنّ القالب والأنا ليس شيئاً سوى فعالية الذهن التفسيرية.

إذاً فالتقييم يتمّ بوسيلة القالب حتماً، وعلى هذا فأوّلاً من أين يمكننا نعلم بأنّ التصاوير التي ينتخبها القالب بعنوان تصاوير مطلوبة أو غير مطلوبة ويريد إستبدالها هي واقعاً مطلوبة أو غير مطلوبة؟ أليس أنّ هذا القالب يعمل في أذهاننا بدون إرادتنا وإطّلاعنا، وقد دخل إلى دائرة الذهن من دون إختيارنا؟ فعلى هذا فإنّ كلّ حركة ومنها حركة التقييم أيضاً هي كيفيّة عمياء وجاهلة، ومعنى هذه الحقيقة هو أنّ الشيء الذي نراه مطلوباً أو غير مطلوب نعلم بأنّ تشخيص ذلك تمّ بوسيلة القالب الذهني، فيمكن أن يكون واقعاً مطلوب أو غير مطلوب حقيقةً، بل أنّ بناء القالب المخصوص لنا قد صوّره لنا بصورة المطلوب وغير المطلوب وفسّره بذلك.

ثانياً: إنّنا نسأل من هذا المذهب النفسي الذي يقول بـ(التعلّم المباشر للذات) ولنفترض أنّنا شخّصنا المطلوب والغير المطلوب واقعاً، وكان تشخيصنا صحيحاً واقعاً، ونحن نستطيع أن نستبدل التصاوير الغير المطلوبة من قالب الهوية الفكرية بتصاوير مطلوبة، وعلى كلّ حال فإنّ المسألة هنا شيء آخر، المسألة هي أنّ القالب في وجودنا أساساً هو ظاهرة أجنبية عنّا وزائدة فكرية يجب أن تقلع من الجذور، فعملنا الأساسي يجب أن ينصبّ على سلب إرتباطنا بهذا القالب، لا أنّه نهتمّ لترميمه وإصلاحه حتّى لو كان إصلاحه بتصاوير جيّدة وبرّاقة، فعندما أشعر أنا بعدم الرضا من تصوير الحقارة أو الخجول وأُريد أن أستبدلها بضدّها فمثلي كمثل ذلك الجندي المغولي الذي لم يعجبني وأُريد أن أستبدله بغيره، ولو تقدّمنا خطوة إلى الأمام ودرسنا الموضوع بدقّة لرأينا أنّه حتّى هذا التعبير وهو أنّني لا أُحبّ هذا الجندي المغولي وأُحبّ ذلك الآخر هو أيضاً بدوره جندي من جنود المغول، وله ماهيّة مخرّبة.

(العمل الشرطي الجديد) يدور في دائرة القالب والهوية الفكرية، فهو فعل وإنفعال وإستبدال غير منسجم ومنسوخ، ويميل القالب إلى وضعيّة وكيفيّة غير منسجمة أكثر من السابق، وفي بناء القالب تكمن رابطة العلّة والمعلول بصورة غير سليمة طبعاً، فعلى هذا فالصور الجديدة التي ترد إلى الذهن بواسطة (الشرطي الجديد) أو بواسطة (التلقين للذات) هي أوّلاً تصاوير غير منسجمة وغير مترابطة مع مجموعة القالب. وثانياً: أنّ التصورات الجديدة لا يمكنها أن تمحو التصورات القبليّة المضادّة لها تماماً من الذهن، لأنّ كلّ تصوير في مجموعة البناء القالبي له جذور مترابطة وخفيّة، والشيء الوحيد المتحصّل من إستبدال التصاوير الجديدة

بالقديمة هو أنّ التعادل المريض والمخلّ الموجود في القالب سوف يزداد إختلالاً، ويؤثّر على سلوك الإنسان بشكل سلبي أكثر، ويكون تصنعيّاً بصورة أشدّ، فهذا الجريان للأنا في كثير من الأشخاص الذين إستفادوا من هذه الوسيلة اتّضح بعد ذلك أنّ كيفية مشيهم وسلوكهم الإجتماعي مثل مشي الغراب المقلّد للآخرين.

وجميع هذه المسائل موجودة في «البسيك انااليز» وخلاصة ما يقوله هذا المذهب النفسي هو أنّ السلوك الظاهر للإنسان خاضع لتأثير الدوافع والمحركات الباطنية واللاشعورية، ويقولون أنّ الشخص بواسطة تحليل وتفسير السلوكيات وربطها مع بعضها يمكنه أن يدرك العلل المخفيّة للسلوك المرضي والسلبي والغير الطبيعي، وكما يقول الأطباء النفسانيين (نرمالاً) وأيضاً يقولون أنّ العلل الخفيّة للسلوك الفعلي يجب أن تبحث في العوامل المؤثّرة على الشخصية منذ زمان الطفولة، فأساس كلامهم هو هذا، وما بقي فروعات وأغصان متفرّعة عن هذا الأصل.

وقلنا أنّ كلّ حركة للذهن في كيفية «الأكتيف» وخصوصياتها تحكي عن أنّ الذهن لا زال يفكّر بجنود العدو ومسائلهم، ولهذا السبب تصبح المسألة أكثر غموضاً حيث يقوم الذهن بتغذية هؤلاء الجنود، لأنّنا نعلم أنّ هؤلاء الجنود في وجودنا ليسوا سوى حركة «الأكتيف» أو حركة التفسير للذهن، فلو أنّنا أردنا أن نحلّ المسألة بالذهن الذي يعمل بكيفيّة التفسير أو «الأكتيف» وكأنّما أردنا أن نطفأ النار بالنفط.

فلابدّ أوّلاً من توضيح كيفية هذا الجريان للطب النفساني، فمثلاً أقوم بمراجعة الطبيب النفساني، ومرضي هو أنّني مثلاً حسّاس وأتألّم بسرعة، فإذا واجهت إهمالاً وعدم إعتناء شخص بالنسبة لي فإنّني أتألّم بشدّة، أو

أنّ مرضي هو أنّني خجول أو أشعر بالحقارة مثلاً، ثمّ يقوم الطبيب النفساني بسؤالي عن وضعي العائلي، وكيف كانت طفولتي، ويسأل عن تحصيلي العلمي وتربيتي ووضعي المالي والأشخاص المسؤولين عن تربيتي ومن هذا القبيل من الأسئلة حتّى يتّضح له ما هي العوامل التي سبّبت هذا المرض في مرحلة الطفولة.

فإذا دقّقنا النظر لرأينا أكثر هذه الخصوصيّات الأساسيّة هي من التفكّر «الأكتيف» يعني التفكّر الذي يقوم على أساس الوهم والتصوّرات، فأوّل خصوصية له هو خاصيّة (التعبير والتفسير)، فمنذ اللحظة التي دخلت على الطبيب النفساني وذكرت له مسألة أنّني خجول أو أشعر بالحقارة أو الخوف وأمثال ذلك، فذهني مشغول بهذه التعبيرات التصويرية، وبعبارة أدقّ: إنّني طرحت مسألة من صناعة ذهني إلى الطبيب النفساني، لا المسألة الواقعية، وهذا الطبيب الذي يستلم تصوّري هذا بعنوان مسألة سلبية ويسعى بوسيلة التحليل النفساني للوصول إلى جذورها، وفي الحقيقه هو شريكي في ذلك التصور الذهني، يعني أنا والطبيب نسعى إلى رفع مسألة (وهميّة) لا مسألة واقعية.

وفي التحليل النفساني مضافاً إلى وجود الصفات الذهنية في التحليل فإنّ الذهن ومن أجل العثور على العلل لتلك المسائل فإنّه مشغول بالتجوال في زمان الماضي، ونعلم أنّ كلّ حركة وهميّة للذهن في الأُمور النفسانية هي عين تداوم تلك المسألة، وحركة الذهن في الزمان الماضي أو المستقبل لها حكم البنزين المحرّك للهويّة الفكرية أو الهوية التصورية، ونعلم أنّ مرضنا في الأساس هو هذه الهوية الفكرية.

والشيء الوحيد الذي يمكن أن يفيدنا به هذا الطبيب أو أيّ شخص

آخر هو تفهيم هذه الواقعية، وهي بأنّك لست مريضاً إطلاقاً، بل هي مجرّد تصورات مرضية، فشعوري بالحقارة أو الخوف أو النقص أو أي مسألة أُخرى ليست شيئاً سوى تعبيراً ذهنياً، وليست سوى مسألة مصنوعة للذهن.

وممّا تقدّم من المطالب نحصل على عدّة نتائج ضمنية، منها: إنّ الشفاء التدريجي والإصلاح النفساني بمرور الزمان لا معنى له، بل يجب التحوّل الآني والتغيير الفوري، يعني أنّ التصورات المترسخّة في أذهاننا والتي نطلق عليها إسم «الأنا» إمّا أن تخرج من الذهن فوراً، أو أنّها ستبقى، ولا معنى لمقولة التدرّج، واليوم وغداً، وإحتمال أن أكون أحسن حالاً غداً أو في السنة المقبلة ليس سوى مكيدة وخدعة فكريّة، حتّى يستمرّ وجودها في الإنسان، فالنتيجة نكون غافلين عن التغيير الأساسي والجبري (ينبغي إلى الإلتفات أنّ بحثنا عن الهوية الفكرية لا المعنوية الذاتية للإنسان).

إذاً رأينا بالنسبة إلى الهويّة الفكرية أنّ التحسّن التدريجي لا معنى له، وفي هذه الصورة يمكن تصوّر إحتمالات عديدة، أحدها: أنّنا نريد أن نحتفظ بالهوية الفكرية، غاية الأمر نعمل على تحسينها، ومن خلال الأدلّة التي ذكرناها لحدّ الآن اتّضح أنّ حفظها وتحسينها وعلاج هذه الظاهرة لا معنى له أصلاً، فهذه الظاهرة غريبة وأجنبية في وجودنا، ويجب قلعها من الجذور والقضاء عليها، ودخالة الفكر في الأُمور المعنوية هي تدخّل فضولي، فالفكر ليس وسيلة مناسبة للإرتباط مع المعنويات، فلهذا يجب أن نمنع تدخّله الغير المناسب في المعنويات بصورة عامّة، أمّا أن نسعى إلى تحسينه وإصلاحه فغير ممكن.

أرجو أن ندرك جميعاً هذه الحقيقة ونلمسها بعمق وجودنا وندرك

جيّداً الخدع الشيطانية للفكر.

والآن نصل إلى هذا السؤال، وهو هل أنّ التدمير والقضاء على هذه الظاهرة الفكرية الوهمية يجب أن يكون بصورة فورية أو بالتدريج؟

ومن أجل الجواب على هذا السؤال يجب البحث في خصوصيات الهوية الفكرية مرّة أُخرى، ففي بناء هذه الظاهرة الفكرية هناك بعض الأُصول ومقدار من الفروع والأغصان والأوراق لتلك الأُصول، أمّا أُصول هذا البناء الفكري فهو تلك القيم التي عرضت علينا منذ الطفولة وترسّخت في أذهاننا، مثلاً أنّك يجب أن تكون أذكى من الآخرين، ويجب أن تكون عالماً بكلّ شيء أو شجاعاً ومقتدراً، يجب أن تنجح في هذه المسؤولية، ويجب أن تكون محبوباً من الجميع، ويجب أن تكون مستغنياً عنهم، وتعتمد على نفسك، ويجب أن لا تقهر، وسوى من ذلك القيم الإجتماعية.

وبعد ذلك هناك مقدار من النتائج الفرعية على هذه الأُصول مثل الحسد والتنفّر والحساسيّة والحقارة والخوف والجبن واليأس والشعور بالنقص والجهل واللوم وتقريع الذات والتضادّ وغير من ذلك المسائل الكثيرة التي هي جميعاً مرتبطة بالقيم الأُصولية ومن نتائجها الحتميّة.

والآن لنرى أنّ موضوع التحسّن التدريجي بالنسبة إلى هذا البناء الفكري مع هذا المحتوى والخصوصيات ماذا يعني؟ في نظري أنّه من الواضح جدّاً أنّنا في المسائل الفرعية لا يمكننا عمل شيء، فالشعور بالحسد والحقارة والخوف والإضطراب والجهل ونظائرها ليست مستقلّة، بل هي فرع على مسائل أُخرى، فما دمت محتاج إلى أن أكون أقوى منك وأذكى وأنشط وأجمل وأقوى فمن المعلوم أنّ علاقتي معك تكون مبنية على الخوف والإضطراب والقلق، وبالتالي أنّني أشعر بالحسد لك، وسوف

أكون حسّاساً ومعرّضاً للخطر، ويضاف إلى ذلك سوء النيّة والتنفّر، وكذلك تكون حياتي مليئة بالرياء والتظاهر وأنواع المسائل الأُخرى، إذاً فلا يمكنني عمل شيء باتّجاه هذه المسائل الفرعية ما دامت المسائل الأصليّة موجودة في نفسي.

ويبقى الأصل وهي القيم والصفات، هل أنّ طرد هذه القيم والصفات يتمّ بصورة تدريجيّة، أو لابدّ من إزالتها فوراً؟ إنّ تصور إمكانية إزالة هذه الصفات بصورة تدريجية ناشيء من نظر غير صحيح بالنسبة إلى ماهيتنا الفكرية، والسبب في أنّ الإنسان في طول التاريخ لم يستطع أن يتغلّب على هذه الظاهرة المخرّبة هو عدم معرفته بخصوصيات وماهيات «الأنا»، فنحن نتصوّر أنّ الهوية الفكرية هي غير الفكر، وجميع توجّهنا إلى ظاهرة منفصلة عن الفكر، لا إلى نفس الفكر، فنحن ننظر إلى «الأنا» لا إلى خالقها وهو الفكر، وهذا هو السبب في بقاء هذه الظاهرة وإستمرارها، وبالتالي البقاء وإستمرار المسائل الفرعية، فنحن نقول كيف يمكننا إزالة «الأنا» في حين أنّنا غافلون أنّ «الأنا» ليس لها وجود حتّى يمكن طردها وإزالتها، فمسألتنا هي عبارة عن إشتباه ذهني، ورفع الإشتباه الذهني هو الموضوع لا إزالة شيء، ولنفترض أنّ هناك نقص في نظامي الفكري، وبسبب هذا النقص أتصوّر وجود أشباح في هذه الغرفة، وفي هذه الصورة هل أنّ مشكلتي هو إزالة الأشباح، أو رفع النقص في نظامي الفكري؟

العلّة الأساسية لهزيمة الإنسان ومغلوبيته لمواجهته للأنا هي هو أنّه يتصوّر وجود أشباح، ولا يهتم برفع النقص الفكري، وتصوّر الشفاء التدريجي في إزالة الأنا بمرور الزمان ناشيء من هذا التفكّر الخاطىء بالنسبة إلى الموضوع، فالإنسان ما دام يرى أنّ الأنا والقيم بعنوان ظواهر

منفصلة عن الفكر، يعني أنّه يفكّر بالأشباح، فيأتي موضوع الشفاء التدريجي وطرد هذه الأشباح بمرور الزمان، ولكن لو فكّر بإصلاح نظامه الفكري لرأى أنّ التدرّج في الإصلاح والتكامل في الشفاء وطرد الأنا التدريجي ليس لها معنىً واقعي.

وأحد الأدلّة الأُخرى على مقولة التكامل والتحسّن التدريجي هي أنّنا نتصوّر أنّ الصفات التي تتشكّل منها الأنا لها واقعيّة، في حين أنّها ظلّ الواقع، أي ظلّ ما هو موجود في الذهن من الواقعيّة، بل ليست هي ظلّاً حقيقيّاً للواقع، فنحن نتصوّر بأنّها ظلّ للواقع، أي أنّ ذهننا هو الذي أوجد هذا الظلّ، ومن خلال إدراك هذه الحقيقة بأنّنا نتصوّر أنّ الظلّ بدل الواقع تحصل نتيجة دقيقة ينتفي معها موضوع الشفاء التدريجي كليّاً، فينبغي الإلتفات جيّداً للمقصود، فمثلاً أنّني أعرف لغة أجنبية، ولي بيت مجلّل، وسيّارة آخر موديل، وأُمور أُخرى كثيرة، فهذه ثلاث مواضيع متفاوتة، ولكنّ «الأنا» المتولّدة منها ليست نفس اللغة الأجنبية والبيت والسيارة، بل القيمة الإعتبارية لكلٍّ منها التي أتصوّرها لهذه الأُمور، فعلى هذا بالرغم من أنّ الموضوع مختلف في هذه الثلاثة أُمور ولكنّني أشعر بشعور واحد من هذه المواضيع المختلفة، وهي أنّني أشعر فقط بالقيمة والإعتبار، ولا أشعر بقيم متعدّدة، فالموضوع ذو قيمة متعدّدة، ولكنّ ذهني يفكّر في مطلق القيمة.

ونصل الآن إلى الجواب عن هذا السؤال وهو كيف يمكنني إزالة هذه القيمة الواحدة؟ وهل يمكنني إزالتها فوراً أم بالتدريج؟

وينبغي للجواب على هذا السؤال الإلتفات جيداً أنّه صحيح أنّ الأنا وردت علينا من الخارج بواسطة العوامل الخارجية واستقرّت في ذهننا، ولكن لا يوجد سبب لحفظها وبقائها سوى أنا وأنت، فعلى هذا فلو كنّا

صادقين في رغبتنا في التخلّص من هذه الظاهرة الذهنية وإزالتها فسوف تخرج في لحظة واحدة، فهذه الظاهرة الذهنية وردت في ذهننا وإستقبلناها وأبقيناها بعنوان كنز ثمين وضرورة مهمّة، فلم ندرك إطلاقاً أنّها وهمية، بل لا نشكّ أبداً في أصالتها، وذلك بسبب أنّنا غرباء عن ذواتنا، وبسبب الجهل والحيل الأُخرى للفكر لم نتوجّه إلى المسائل والمشاكل والمصائب المتولّدة من هذه الظاهرة، وبما أنّنا كنّا نجهل هذا الأمر، فلذلك التصقنا بهذه الظاهرة بقوّة، والآن بعد أن التفتنا إلى وخامة هذه القضيّة، وأردنا بصدق التخلّص منها، فإنّها سوف تفنى وتنعدم في لحظة واحدة، فنحن الذين نمدّ هذه الظاهرة بالحياة يوماً بعد آخر، ونمدّها بالقوّة والنشاط، فلو أنّ ذهني وذهنك لم يفكّرا قطّ ولم يرغبا في هذه الظاهرة الخيالية وفي حفظها، فلا وجود إطلاقاً لهذه الظاهرة، فعدم الرغبة الصادقة فيها وإنعدامها يتحقّقان في وقت واحد، فلو أنّني أيقنت بوخامة وضرر هذه الظاهرة الخيالية، وأنّ فكري هو السبب في وجودها وتداومها، وأردت بجديّة إزالتها، فلماذا لا يتوقّف ذهني عن التفكير فيها فوراً؟

ولو أنّني توجّهت والتفت إلى وخامة الهوية الفكرية فلماذا لا أُزيلها فوراً؟ لماذا أقول اليوم وغداً؟ التأجيل هو حيلة من حيل الفكر لإستمرار وجود الأنا، فالفكر يقول لنسامح الأنا اليوم. ومن الأفضل العمل على إزالتها غداً، ولكن هيهات، فالآلاف من الغد يأتي ويذهب وهذه العجوزة الخبيثة لا تتحرّك من مكانها قيد شعرة. وأرجو أن لا ننخدع من الآن فصاعداً بهذا التأجيل والتسويف لإبقاء «الأنا»، فينبغي أن نلتفت بصدق إلى أنّ تسويف الذهن يساعد في إبقاء الهوية الفكرية وإذا كان صادقاً فإنّه يمكنه في لحظة واحدة أن يقطع حياة هذه الظاهرة، أو بعبارة أصحّ: إنّ الفكر إذا عزم على

ذلك في لحظة واحدة فإنّ الهوية الفكرية سوف لا يكون لها وجود إطلاقاً، لأنّ نفس الفكر هو الذي خلقها وأدام حياتها.

وينبغي إلى الإلتفات لأصل أساس في طريق الإدراك والتخلّص من هذه الزائدة حتّى لا ينخدع ذهننا بالمكائد الفكرية ويحذر الوقوع في الإشتباه والخطأ، وهو أنّه لا ينبغي التفكير بالصور والأشباح، يعني الأنا، بل ليكون جميع توجّهكم معطوفاً على كيفية حركة الذهن نفسه، فعندما تفكّر أنت بالأنا فإنّك بشكل ضمني إعترفت بها بأنّها حقيقة وواقعيّة، وما دام الذهن يتصوّر الواقعيّة لهذه الظاهرة فإنّ تداومها أمر حتمي، وفي اللحظة التي يتوقّف فيها الذهن عن التفكير بالأنا، ويسعى في حركته إلى مراقبتها بدقّة فإنّ «الأنا» سوف تمحى وتزول نهائياً.

ومن محتوى ما ذكرنا نحصل على نتيجة ضمنية أُخرى، وهي أنّ جميع الأشخاص الذين يعيشون بهوية وقالب فكري يتساوون في الأُصول النفسية والخصوصيات الكليّة، والتفاوت الذي نراه في الأفراد هو تفاوت في نوع القالب، وفي أشكال التظاهر والسعي لحفظ هذه «الأنا»، فمثلاً أحد خصوصيات هذا القالب هو الجهل، فالقالب الفكري ليس فقط يحدّد فكرنا ويسجنه في إطار ضيّق ويشغله عن موضوعه الأصلي، بل إنّ المشغولية هذه أساساً تصورية لا واقعية، بهذا المعنى أنّ الإنسان القالبي يعيش في نوم وظاهراً مستيقظ وفي جهل كلّي وعدم إطّلاع عميق، ومن حيث الأصل فإنّ هؤلاء الأشخاص كلّهم في عرض واحد، وهنا لابدّ من تذكّر عدّة ملاحظات من قبيل الشفاء الترتيبي، وكذلك تفاوت الناس ما بينهم، فيمكن أن يطرح هذا السؤال: وهو كيف يمكن القول أنّ شخصاً مارس العرفان مثلاً عشرين سنة، أو في معرفة النفس أو في أيّ نظام في

علم النفس كيف لا يختلف عن الشخص الذي بدأ بذلك حديثاً؟

وفي الجواب نقول أنّه لا تفاوت فيما بينهما في جهة معيّنة، وهناك تفاوت من جهة أُخرى، فالتفاوت بين الشخص الذي بدأ بمعرفة النفس قبل عشرين سنة مع الشخص الذي بدأ حديثاً هو أنّ الشخص الأوّل يمكن أن يدرك لزوم التخلّص من أسارة النفس أكثر من الآخر، لنفترض أنّ لدينا عدّة أشخاص يتوجّهون إلى قرية فما دمنا لم نصل إلى القرية فنحن جاهلون عمّا يجري في القرية، ولا فرق بيننا من هذه الجهة، ولكن من جهة يمكن أن تكون أنت قد سبقتني بعدّة خطوات، وشخص آخر تفصله عن القرية مائة قدم، وثالث يفصله ألف قدم، فمن هذه الناحية هناك فرق بينهم، ولكنّ حالة عدم الإطّلاع على أُمور القرية هي بمثابة الحالة المجهولة وراء الفكر والتي نحن في عدم معرفتها سواء، فالإنسان إمّا أن يكون في تلك الحالة أو لا يكون، فتصوّر أنّ هناك حالة بين تلك الحالة الواقعيّة والقالب الفكري، وهناك حدّ وسط هو تصوّر خاطىء، وهذه حيلة القالب الفكري لتبرير وتوجيه نشاطاته الوهميّة، فعن هذا الطريق نريد أن نتغافل عن الموضوع الأساسي، ولزوم وضرورة التغيير الجبري، فلو أنّنا طالعنا ديوان المولوي بدقّة لوجدنا هذا المعنى بوضوح، فإنّ المولوي يشير إطلاقاً إلى النسبة في الوصول، والشدّة والضعف في وجود «الأنا» ففي مورد يقول (أنّ الأحول يشفى تدريجيّاً) ولكن لا يقول (أنّ النفس سوف تضعف تدريجيّاً) ونحن نرى جميعاً أنّ النفس مترادفة للشيطان والصنم والقبح ونظائرها، لا أنّها تعني نصف شيطان ونصف صنم وأمثال ذلك، والوجود من دون «الأنا» أي النفس بإصطلاح المولوي هو كيفية رحمانية وملائكية، والإنتقال من تلك الحالة السلبية إلى هذه الحالة النورانية

والرحمانية لا يكون إلّا بالموت الكامل للنفس، أو في (لا) والعدم لا في تضعيف النفس.

وقبل أن نختتم بحثنا اليوم لابدّ من الإشارة إلى نكتتين:

النكتة الأُولى: هي أنّ منظورنا من القول بأنّ الناس في الهوية الفكرية لا يتفاوتون فيما بينهم في الأصل فإنّنا لا نقصد التوجّه إلى الشخصية والكيفية الروحية للآخرين، بل نظرنا وعملنا إلى العمل الفردي لا الجمعي، وهدفنا هو معرفة الذات لا الآخرين، **والنكتة الأُخرى**: هي أنّنا لمّا نذكر شعراً من المولوي أو نشير إلى نظره في المسألة الفلانية فنظرنا هو بيان هذه المسألة بشكل أدبي وجذّاب وليس مرادنا القول بأنّ فلان شخص يؤيّد هذه المسألة فإذاً هي صحيحة ورأيي مطابق للواقع، كلّا فانّي لا أقصد بكلام المولوي أنّه حجّة وسند لكلامي، وطبعاً لا أقول أنّ نظره ليس حجّة مطلقاً، فيمكن أن يرى المولوي أو أي شخص آخر الحقائق بوضوح، إلّا إنّ ما أُريد قوله هو أنّ إشاراته إرشاد ووسيلة توصلنا إلى إدراك الحقائق بصورة مباشرة، لا أنّه تعبّداً نقول مثل قوله وأنّ قوله هو الحقيقة.

سؤال: نظراً لما تقول أنّ بحثنا لا يدور حول فرد معيّن أو مجتمع خاص، بل نبحث عن الإنسان الكلّي، وقبول مثل هذا الكلام وأنّ الناس في جميع المجتمعات سواء ولا فرق بينهم مشكل جدّاً، وبعيد عن الواقع، لأنّنا نعلم أنّ هناك أفراداً في العديد من المجتمعات مختلفون فيما بينهم بشكل أساسي.

الجواب: أوّلاً، ينبغي الإلتفات إلى أنّ الناس في الهوية الفكرية لا يختلفون فيما بينهم، ثانياً: نقول أنّ الناس في الأُصول والأُسس لا

يختلفون، فمثلاً الشعب الألماني يختلف مع شعب ايران إختلافاً كبيراً، هناك قيم إجتماعية وعادات وأساليب في الحياة وروابط الناس وإطاعة القانون وغير ذلك من الأُمور تختلف كثيراً عن الشعب في ايران، ولكن هذه ليست أصل في الإنسان، بل فقدان العشق بمعناه الواقعي هو الأصل، وأن نعيش في ثياب قديمة للحياة هي الأصل، والتغرّب عن الذات أصل، وأنّ ثقل الهويّة الفكرية ليست من ذات الإنسان بل من العوامل الخارجية الحاكمة عليه، أو أنّ وجود الناس بالهوية الفكرية هي كيفية تلقينية وتبليغية، أي أنّ الناس القالبيّين عبارة عن مقدار من الإعلام والتبليغ بمعناه الواسع، وهذا هو الذي يجعل الناس متفاوتين فيما بينهم ونظري إلى نفس التبليغ، وأنّه يبدّل الإنسان بشكل كلّي إلى موجود بدون إرادة وبدون إختيار وبدون وعي وبدون تشخيص وتمييز، فالإنسان الذي يقع تحت غائلة التبليغ والإعلام، يعني أنّه إنسان من الدرجة الثانية، إنسان يعيش بنظريات الآخرين ويرتبط مع الحياة بأفكارهم لا بشكل مستقيم وإدراك واضح، فأنت عندما ترى روابط الناس في ألمانيا وحياتهم الإجتماعية تتصوّر أنّ كيفية حياتهم أفضل من حياتنا، فالناس لا يهتّمون ولا يتدخّلون بأعمال الآخرين، ولا يزاحمونهم في أُسلوب حياتهم، ولا يتدخّلون في أُمورهم، ويطيعون القانون، وأنّ الخشونة التي نراها بيننا لا توجد هناك، وهناك حرية سياسيّة وإجتماعية أكثر، وغير ذلك من الإختلافات الأُخرى، ولكنّنا نرى أنّ ذلك الشعب الذي يشعر بالمسؤولية والحرية كيف وقع أسيراً بيد أحد الأشخاص من جرّاء التبليغ والإعلام المكثّف، وأدّى ذلك إلى أن يدمّر كلّ شيء باسم النظم والقانون والثقافة والتمدّن، فالمسؤولية الإنسانية لم تنبع من داخلهم وأعماق وجودهم،

فالإنسان القالبي لا يعمل بدافع الشعور والوعي الحرّ، بل يعيش مجموعة من السلوكيات والكيفيات العمياء، فالمراد من الأُصول هذه الأُمور، وطبعاً نجد في حاشية وهوامش هذه الأُصول بعض الإختلافات الجزئية والظاهرية، ولكن في بعد واسع وعميق للإنسان لا يحسّ بالمسؤولية، ولكن في الأُمور الجزئية مثل مسؤولية العمل ومسؤولية العائلة والمسؤولية الوطنية ونظائرها يرى نفسه مسؤولاً، وهذه المسؤوليات هي التي تؤدّي إلى الدمار، فالفرد الامريكي يرى نفسه مسؤولاً في مقابل الامريكي الآخر، ولكنّه عدوّ للروس، والروس أيضاً في مقابل امريكا كذلك، والعرب في مقابل العجم، والبيض في مقابل السود، وهذا الشعب في مقابل ذلك الشعب، وهذه العائلة في مقابل تلك وهكذا، ففي جميع هذه الأُمور نجد التعصّبات المفرّقة للأنا.

سؤال: هل يمكن القول بأنّ الناس لا يختلفون في مورد الجهل والعلم أيضاً؟

الجواب: الإختلاف الذي في نظرنا إختلاف في مورد العلم والمعرفة، فأنت يمكن أن ترى أُموراً لا أراها ولا أعلمها، إذاً فعلمك أكثر من علمي، ولكنّ مرادنا من الجهل والعلم شيء آخر، فالذهن الذي يرى الحياة من خلال القالب الفكري يعيش في جهل مطبق، فالقالب قد سجن ذهننا في ظلمات، وبهذا المعنى نحن متساوون ولا إختلاف بيننا، فلنفترض أنّني لم أخرج من القرية التي ولدت فيها، فعلى هذا أتصوّر أنّ الدنيا هي عبارة عن تلك المنطقة المحدودة التي أعيش فيها، وأنت مضافاً إلى قريتك رأيت القرية المجاورة وتصوّرت أنّ الدنيا محدودة بهاتين القريتين، والآخر مضافاً إلى قريته رأى مدينة، وتصوّر أنّ الدنيا عبارة عن هاتين القريتين

وتلك المدينة، فنحن الأشخاص الثلاثة نشترك في أصل كلّي، وهو عبارة عن أنّنا جميعاً نتصوّر أنّ الدنيا محدودة بحدودنا التي نعيش فيها، ولكن نختلف بأنّني أُحدّدها بقريتي، وأنت بقريتين، والثالث بقريتين ومدينة، فالمحدودية الذهنية هي القالب لنا، وصغر القالب وسعته ليست أمراً مهمّاً، المهمّ هو نفس القالب.

سؤال: بالنظر إلى أنّ الوصول إلى الحالة الروحية المطلوبة من خلال هذه الأبحاث مشكل جدّاً، وحتّى يمكن القول أنّه غير ممكن، وخاصّة عندما نقول أنّه يجب إزالتها تماماً والوصول إلى الحقيقة، ألا يؤدّي كلامك بالإنسان إلى اليأس، فنحن إلى الآن نسير في طريق خادع، أو أنّنا نشغل أنفسنا بأُمور تافهة وخادعة، ولكنّنا الآن نشعر من جهة بأنّ حياتنا مع الأنا وخيمة ومضرّة، ومن جهة أُخرى نشعر بأنّ ترك هذه «الأنا» مشكل جدّاً.

الجواب: أوّلاً: إنّ كلمة مشكل وصعب كلمة غير صحيحة فترك الأنا ليس مشكلاً، بل مخيفاً.

ثانياً: أيّاً من هذه المطالب تبعث على الإنسان باليأس، فأنت إذا أحسست بهذا المعنى عميقاً وأنّ «الأنا» في وجودك ظاهرة أجنبية، فالمفروض أن تشعر براحة أكثر من السابق، فالآن إذا جاء أحد الأشخاص فأهانك، فسوف تغضب فوراً وتشعر بالحقارة، ولكنّك لو رأيت أنّ هذه الإهانة وعدم الإحترام متوجّه إلى ظاهرة غريبة عنك، وأجنبية تعيش في وجودك، فهل ستشعر أيضاً بالحقارة؟ هل أنّك تتأثّر من ذلك؟ فأنت تقول لي أنّني أتكلّم كلاماً سخيفاً وغير منسجم، وأنا بدوري أشعر بالتأثّر من كلامك هذا، وبعد لحظة تقول أنّ كلامك جيّد وجميل، فأنا أشعر بلذّة وإنبساط نفسي، فعلى هذا فأنا أكون مثل المتسوّل والمتملّق، وأربط

شخصيتي وروحيّتي بما يخرج من فمك لأرى ماذا تقول، وماذا تقضي عليّ، وماذا تحكم عليّ، وماذا تأخذ من هويتي، وماذا تضيف عليها؟ والآن إذا أدركت هذا المطلب بأنّ إهانتك وتحسينك لي ليس له أساس معقول أوّلاً (لأنّ معاييرك الذهنية من صناعة ذهنك أنت) وثانياً: إنّ إهانتك وتحسينك لي متوجّه إلى هويتي الفكرية، أي تلك الظاهرة الأجنبية عن وجودي والتي ليست لها أصالة في ذاتي، ألا تكون رابطتي وعلاقتي معك أفضل من السابق؟ ألا يزول الخوف والإضطراب وذلك الإرتباط السلبي ومئات المسائل الأُخرى التي تربطني معك؟!

سؤال: (لسائلٍ آخر) مَثَلُ هذا مِثل شخص صفع أحد جنود المغول، أو أهدى لهم بعض الحلويات، فمن البديهي أنّ جنود المغول لا يرتبطون بي حقيقة، بل إرتباطهم هو مجرّد أنّهم يعيشون في مملكتي وبلادي، فعلى هذا لماذا أجد في نفسي إحساساً متناقضاً مريحاً أو مؤلماً بالنسبة لهم؟!

الجواب: صحيح كاملاً، فإنّ الإهانة أو التحسين والتمجيد تتوجّه لجنود المغول، غاية الأمر أنّها في بيتي، ولو تقدّمنا خطوة للأمام لرأينا هذه الحقيقة، وهي أنّه حتّى أنّ الظاهرة التي تتألّم من الإهانة أو تفرح من التحسين والتمجيد هي أيضاً من جنود المغول، وقد تقدّم أنّ كلّ إحساس يقوم على ردّ الفعل للفكر هو في خدمة الهوية الفكرية، فعلى هذا يكون سطحيّاً واللذّة والحزن الذي تنشأ من القيم الفكرية ليست عميقة، ألا يوجب الإطّلاع على هذه الحقائق أن نتخلّص من هذا العفريت الأجنبي ونعيش مع أصالتنا الحقيقيّة، ولا نصرف عمرنا وطاقاتنا في خدمة ذلك الأجنبي؟!

مضافاً إلى ذلك أنّك تقول (إنّنا نعيش الآن في راحة) ولكنّك لو دقّقت

النظر لرأيت أنّ ميزان الألم والخوف والحقارة والإضطراب والإحساسات السلبية أكثر من المطلوب بكثير.

سؤال: أنا أشكّ في التحسّن لو فقدنا هذه الأنات المتعدّدة فلعلّ وضعنا الروحي يكون أسوء، يعني أنّنا مع زوال الأنا سوف نتبدّل إلى شيء.

الجواب: أحد الأشخاص أعطى قنينتين من الخلّ إلى آخر وقال له: إشرب منها وانظر أيّاً منها أكثر حموضةً، فذاق ذلك الشخص الخلّ من أحد القنينتين وقال: هذا أكثر حموضة. فقال له صاحب الخلّ: أنت لم تذق القنينة الأُخرى بعد، فكيف علمت بأنّ هذه أكثر حموضة؟ فقال: إنّ حموضة هذه كانت بدرجة أنّني لا أظن أنّ هناك خلّ أكثر منه حموضة.

وقصّة الهوية الفكرية ووضعنا الحاضر والحالة التي لم نجرّبها بعد ولم نلمسها مثل هذه القضيّة، حياتنا الفعلية إلى درجة من الوخامة والحموضة بحيث لا نظنّ أنّ هناك حالة أسوأ منها.

وأمّا قولك بأنّ تلك الحالة المجهولة للإنسان يمكن أن تتبدّل إلى شيء، وتخاف من تلك الحالة، في حين أنّ جميع معنى الوجود والحياة يكمن في حالة اللّا شيء، فكلّ شيء في حالة اللّا شيء من دون أن يتبدّل إلى شيء أو يمكن وصفه.

ومن المهمّ الإلتفات إلى هذه الحقيقة، وهي أنّنا لا ينبغي أن نفكّر في تلك الحالة ونبحث عنها، بل يجب أن ننظر إلى حالتنا الفعلية، فعليك أن تنظر إلى حالة الخوف هذه من دون أن تنظر إلى الشجاعة وتفكّر فيها، فما دمت تفكّر في الشجاعة فأنت لا تصل إليها، لأنّ كلّ تصور عن الشجاعة يكون بواسطة الفكر، والفكر لا يمكنه أن يدرك محتوى الشجاعة، لأنّها حالة وكيفية مجهولة، فكلّ حالة معنوية عندما يفكّر فيها الإنسان ستكون

بحكم السراب، ومنشأ هذا السراب هو فكرنا، بالرغم من أنّنا نتصوّر أنّه ماء، وكلّما سعينا وراءه لم نصل إليه، ودائماً يكون الماء أمامك بفاصلة مائة قدم، فكلّما تقدّمت أكثر إبتعد عنك، وهكذا في البحث عن الشيء النفساني، فكلّ هدف وأمل نفساني لابدّ أن يطرح في المستقبل حتماً، وهذا الزمان هو بحكم فاصلة مائة قدم عن الماء في المثال المذكور، والحلّ الوحيد هو التخلّص من الحصار والقالب الفكري الذي يحيط بأذهاننا، والنظر إلى نفس الحصار لا التفكير في خارجه، لأنّ كلّ تصوير عن خارج الحصار مختلف عن التصوير في داخل الحصار، ولكن أساساً وماهية ولوناً فإنّه يتلوّن بلون الحصار، أرجو أن نلتفت إلى هذه النكتة الدقيقة والأساسية وأنّ الحصار المضروب حولنا هو الفكر، وكلّ حركة فكرية للخروج من الحصار بمثابة تقوية الحصار.

سؤال: نحن بغير الفكر بأيّ وسيلة يمكننا التخلّص من الحصار؟ فأنت تقول أنّ الفكر ليس وسيلة مناسبة لحلّ المسائل النفسية، إذاً ماذا نصنع؟

الجواب: إذا التفتم إلى ما قلناه لحدّ الآن فسوف يتّضح جواب هذا السؤال، فإنّ الفكر له نوعين من الفعالية، أحدها: فعالية «الباسيف» والأُخرى: فعالية «الأكتيف»، وإدراك هذه الحقيقة أنّ كلّ حركة أكتيف للفكر تبعث على إشتداد المشكلة أكثر ويكفي لحلّ المسألة أن يكون الذهن بحالة «الباسيف».

* * *

الفصل السابع

ملاحظات حول الحوار

أرى من الضروري قبل أن نبدأ بموضوعات أُخرى في الجلسات المقبلة أن نطرح قبل موضوع الحوار بعض النقاط المبهمة، ففي المطالب السابقة اتّضحت بعض الأُمور، ولكن من أجل أن يكون بحثنا له طابع الحوار، ولا يتّخذ طابع الجدل والعناد، يجب أن نتحدّث بشكل مختصر عن الحوار الصحيح والمفيد، ونذكر المسائل المخلّة في البحث الصحيح والمنطقي، وطبعاً قبل ذلك وبعد إنتهاء كلّ موضوع كانت لدينا أسئلة وأجوبة، ولكنّ بحثنا لم يكن خالياً من الإشكال، فعلى هذا نسعى اليوم للتحدّث عن المسائل الأساسية التي ترتبط ببحثنا، ونستمع إلى الإشكالات والإنتقادات ونجيب عليها.

فأوّلاً يجب أن نرى أنّه ما المقصود من الحوار والنقاش؟ ولماذا نجلس للتباحث في هذه الأُمور؟ فالبحث فرع على وجود مسألة، فلابدّ أن يكون هناك موضوع على شكل مسألة حتّى نبحث أنا وأنت حولها، ومع الإلتفات إلى هذه الملاحظة فما هي نوع الرابطة التي تربطني أنا وأنت؟

ومن البديهي أنّه يجب أن تكون الرابطة رابطة تعاون، فنحن لو أردنا أن ندرس موضوعاً مجهولاً، مثلاً أحد النباتات، أو صخرة، أو نظام فلسفي، أو أخلاقي، أو أي شيء آخر، وكنّا نبحثها ونبحث أدلّتها حتّى نكشف

حقيقتها، ففي هذه الصورة كيف يكون ذهني وذهنك؟ هل أنّني أقف في مواجهتك في هذا البحث وأقول أنا على الحقّ وأنت على الباطل؟ من الواضح كلّا، فلو أنّني أنظر بهذا المنظار وكانت نيّتي منذ البداية هي هذه، فإنّه لا معنى للحوار، وعندما نبحث حول موضوع معيّن ولنفترض أنّ هذا الموضوع كان مجهولاً لنا، ونريد بمساعدة أحدنا الآخر أن نخرج من حالة الإبهام والغموض، في حين أنّني منذ البداية أرى بأنّني على الحقّ وأنت على الباطل، وأنت أيضاً ترى هذا النظر، فمعنى ذلك أنّ الموضوع لكلٍّ منّا كان واضحاً لنا قبل البحث، وفي هذه الصورة لا داعي للبحث والحوار.

إذاً فالبحث والحوار بمعناه الواقعي عبارة عن تعاون وتعاضد عدّة أشخاص لتوضيح موضوع معيّن له نقاط مبهمة وغير واضحة، ولكن ما يدور بيننا يدلّ بوضوح أنّ إرتباطنا مع بعضنا يفتقد إلى التعاون والرغبة في إيضاح الأُمور، بل أنّ الحوار يتبدّل إلى رغبة في التغلّب على الخصم بأيّ حجّة وذريعة، فيجب أن نرى ما هي علّة هذا الأمر؟ ولماذا أنّنا في الحوار والبحث نتبدّل إلى رقباء يقابل أحدنا الآخر، ونتّخذ حالة دفاعية ومخرّبة ويكون بحثنا سلبياً؟

من المعلوم أنّ جميع الروابط التي تربطنا واقعة تحت تأثير الهوية الفكرية وإحتياجاتها وخصوصياتها، وأساساً نحن نرتبط مع بعضنا الآخر بواسطة هذه الظاهرة المخرّبة، فلو لم تكن تدخّلات هذا العفريت المخرّب الواضحة والخفيّة في علاقاتنا وأبحاثنا، لم تنقلب أبحاثنا في كلّ موضوع إلى حالة من الجدل والمراء بحيث أنّنا لا نفكّر في التعاون لتوضيح الموضوع والمسائل المحيطة بها، فهناك عشرات الخصوصيات السلبية والمخرّبة للهوية الفكرية التي تتدخّل في كلّ رابطة وتبدّلها إلى كيفيّة

مخرّبة ومضرّة، فمثلاً أحد الخصوصيات الأساسية للهوية الفكرية هو الفرار والخواء، والآن لنرى ماذا يتفرّع على هذه الخصوصية من مسائل تؤثّر على أشكال البحث والحوار بين الأفراد، وتبدّله من حوار مفيد ورابطة بنّاءة إنسانيّة إلى ميدان للصراع والنزاع والجدال؟ وقلنا في أحد البحوث السابقة أنّ الهوية الفكرية ليست سوى مجموعة ألفاظ ليس لها محتوى، ومواجهة هذا الفراغ والخواء مخيف جدّاً، فعلى هذا يقوم الفكر من أجل حفظ هذه الهوية الخاوية إلى السعي والقفز من هنا وهناك حتّى يجبر الفراغ الباطني لهذه الظاهرة، ويشعر الإنسان بنوع شبه المحتوى، وأحد الحيل الفكرية لإيجاد شبه المحتوى هذا أنّه يتعمّد أن يشغلنا في مسائل مثيرة حتّى يحقّق بواسطة نوع من الهيجان والإضطراب في وجودنا، ولعلّكم إلتفتم إلى أنّ الإنسان عندما يواجه أحد المسائل كيف يشعر بالهيجان والحرارة والحياة المعنوية، وكأنّه هناك شيء يغلي في داخله ويعطيه حالة من الحرارة والتحرّك، ودور هذه الحرارة والحركة النفسية هي إملاء ذلك الفراغ، فحالة الغليان والحرارة هذه ناشئة من أنّ الإنسان يراها كأنّها حالة معنوية حتّى يجبر ذلك الفراغ ولا يشعر بالخواء للهوية الفكرية.

ومع الإلتفات إلى هذه الخصوصية يمكننا فهم أنّنا ليست لنا الرغبة الصادقة في حلّ المسائل، بل أنّنا نتعمّد في أن نبحث في كلّ موضوع صغير ونجادل ونناقش حتّى يمكننا خلق مسألة مهمّة من التوافه لتستمر حالة النقاش والحرارة، وفي الحقيقة أنّ المصلحة النفسية لنا هي في إيجاد وحفظ هذه المسألة والنزاع معها لا توضيحها ورفعها، فلو أنّه اتّضحت المسألة فإنّ الإنسان لا يجد ما يجادل عليه، وعندما يكون هذا الدافع

الباطني هو الحاكم على بحثنا وحوارنا، فهل نتوقّع أن نتعاون فيما بيننا؟

وقد التفتم إلى أنّنا مستعدّون أن نخلق من كلّ مسألة وموضوع للنقاش ونتّخذه وسيلة ومستمسك للمخالفة وللبحث والجدل، والتفتم أيضاً أنّنا عندما نطرح الموضوعات فإنّنا نطرحها بشكل خشن، وكأنّنا نقول (هل من مبارز)؟ أي أنّنا نثير المخالفة للطرف المقابل، ونرغب قلبيّاً إلى أن يرد الآخرين نظراتنا حتّى تكون لنا ذريعة للجدل والنقاش.

فمثلاً لو قلت للشخص الذي طرح نظريته ودافع عنها: أنا أيضاً موافق لما تقول، لوجدنا أنّ الطرف المقابل سوف يهدأ ويتراجع كالبالون خرج منه الهواء، والملفت أكثر أنّه في كثير من الموارد يسعى بمهارة إلى تغيير موضوع الحديث حتّى يجعلك في الطرف المقابل، وينتظر كلمة منك في مخالفته حتّى يتصدّى للدفاع والجدال، وبعض الأشخاص يخلقون في أوهامهم بعض المخالفين الخياليين ويبدأوا بالبحث معهم والجدال، وفي أكثر الأوقات نحن نجادل مع أنفسنا، وهذا الإستعداد والقابلية للجدال والنقاش يحكي عن أنّ إيجاد موضوع معيّن ثمّ جعله محوراً للجدال والنقاش يُرضي في أنفسنا حاجة نفسيّة، وله دور نفسي مهمّ، فأنت ترى مجموعة سياسيّة أو دينية على إختلاف مع مجموعة أُخرى في النظر والفكر، ثمّ نرى بعد فترة أنّ أفراد المجموعة الأُولى يحصل بينهم إختلاف وتنافر، وبعد فترة أيضاً نرى أنّ كلّ فئة من المجموعة الأُولى أيضاً إنقسمت إلى فئات وشُعب عديدة وهكذا، وهذا يحكي عن أنّ المخالفة لنا بمثابة الدواء النفسي، فعندما نكون في موضع المخالفة ونجادل ونناقش فإنّ ذلك بمثابة الوقود للهوية الفكرية، ومخالفتنا نوع من التحرّك وشبه الحياة النفسية للأنا، فعلى هذا نحن أساساً لا نريد حلّ المسألة والمشكلة.

وأحد النتائج الفرعية على هذه الحاجة النفسية هي أنّ الأفراد في طرحهم للموضوعات يهتّمون بالجانب المهيّج والمثير أكثر من إهتمامهم بالجانب المفيد والنافع، فأنت ترى أنّ الأكثرية القاطبة للموضوعات التي يتحدّث بها أفراد المجتمع البشري لها هذه الكيفية، فلو أنّنا كنّا كتّاباً فنسعى إلى كتابة كتاب له جانب مهيّج ومثير للقيل والقال، لا أنّه مفيد، فمثلاً نتظاهر بالصورة الثورية والجرأة أمام أصحاب القدرة والسلطة، وإذا كنّا من السياسيين، فنحن دائماً لدينا ورقة مهيّجة في عالم السياسة، ولو كنّا من الصحيفيين فنختار الأخبار المثيرة والحارّة والمهيّجة لا المفيدة، فمثلاً تكتب الصحف عن (الكشف عن آخر رسالة لنابليون إلى زوجته المحقّقون مشغولون بالتحقيق في أصالة هذه الرسالة أو عدمها، أو يقال (العثور على درع حربي يقال أنّه متعلّق برستم وآخرون يقولون أنّه متعلّق بسهراب) وتبدأ كلا الفئتين بالنقاش والمناظرة والجدال لكي تثبت رأيها وإبطال رأي الطرف المقابل دون النظر في الفائدة المترتّبة على هذا الموضوع وهذا البحث.

وعلى فرض أنّنا علمنا أنّ الرسالة لنابليون، أو أنّ الدرع لرستم أو سهراب، فما هي النتيجة المستفادة من ذلك؟ وطبعاً القدرة المنطقية من خواص الهوية الفكرية نستعملها حتّى نصوغ نتيجة مفيدة لهذا الموضوع، مثلاً نقول أنّه لو ثبت هذا الدرع الكبير يعود إلى سهراب، فالنتيجة أنّ سهراب لا يمكن أن يكون قد قتل على يد رستم، لوجود هذا الدرع، وإذا سألنا مرّة أُخرى: ثمّ ماذا؟ فإنّ الذهن سوف يصوغ نتيجة أُخرى ويجعلها مستمسكاً للبحث.

وفي البحوث السابقة أشرنا إلى أنّ أحد طرق الفرار من الخواء الباطني

هو أنّ الإنسان يلصق نفسه بمقدار من الظواهر ويقيم علاقة بينه وبين تلك الظواهر، يعني أنّ هويّته عبارة عن هذه الظاهرة الواقعية، وهذا الأمر أيضاً هو أحد الأسباب الأساسيّة لتغيير كيفيّة البحث والجدال من جانبه التعاوني إلى التضادّ والمخالفة، فأنت تعتقد بالشيوعية وقد بنيت شخصيّتك وهويتك على أساسها، وأنا أيضاً في الطرف المقابل وعلى الضدّ منك، والآن أنا وأنت ظاهراً تبدأ بالبحث والجدال حول النظام الشيوعي أو ضدّه، ولكنّ باطن القضيّة هي أنّنا قد جعلنا هويتنا الفكرية موضوعاً للبحث، ونسعى إلى إثبات حقّانية هوية كلّ منّا، والدفاع عنها، لا عن الشيوعية وغير الشيوعية، وفي هذه الحال فهل يتوقّع من هذا البحث والنقاش بيني وبينك أن يتّخذ طابع التعاون لحلّ غوامض المسألة؟ مسلّماً كلّا، فإنّ الرابطة بيني وبينك هي رابطة النزاع والصراع والسعي لإثبات هويتي وبطلان الطرف المقابل، وما لا يكون له أدنى أثر في النقاش هو الموضوع الأصلي للنقاش.

النتيجة الفرعية لهذه الكيفية وهذه الحالة هو أنّ الأفراد في طرحهم للموضوعات ينظرون إلى الجانب العظيم والكبير للموضوع أكثر من جانبه المفيد، وبما أنّ الأفراد والأشخاص يلصقون أنفسهم بمذاهب ونُظُم فكرية ويجعلون منها هويتهم الفكرية، فهم يتصورون أنّه كلّما كان الموضوع أو المذهب أو النظام الفكري الذي يتكلّمون عنه أكبر وأرفع مستوى فإنّهم وبتبع ذلك أكبر وأرفع مستوى، غافلون عن أنّ الإنسان الصغير أي الإنسان في إطار الهوية الفكرية كلّما تحدّث عن شيء كبير فلا يؤثّر ذلك في صغرنا وحقارتنا.

وهنا من المناسب أن نتوقّف قليلاً ونشير إلى موضوع هامشي يرتبط

ببحثنا الحالي، وهو أنّ بعض الأُخوان أشار ضمن بحوثنا السابقة إلى موضوعات لها جنبة فلسفيّة، أو أنّها أساساً لا ترتبط ببحثنا، ونريد أن نقول إنّ الدخول في مثل هذه الموضوعات لا يساعدنا شيئاً في حلّ المسألة، فالمسألة نحن وذواتنا والأنا الفكرية، فما لم نحلّ هذه المسألة لا يمكن حلّ بقيّة المسائل، والسبب في ذلك واضح جدّاً، وهو أنّ الأدوات والوسائل للتحقيق والبحث في المسائل هو ذهننا، وهذه الوسيلة أصبحت فعلاً في كيفية سلبية، ونعلم أنّ ذهننا قد أصبح عشّاً لبعض التصوّرات الوهمية، وهذه التصورات الذهنية هي وسيلة للإرتباط، وهذه الوسيلة جعلت من إرتباطنا بجميع الأُمور مخدوشاً ومظلماً، وعلى هذا كيف يمكننا أن نحكم على المسائل الحيوية بهذه الوسيلة بوضوح ونراها كما هي واقعاً؟! إذاً فأهمّ عمل قبل كلّ شيء هو تطهير الذهن من هذه التصورات، وما دمنا لم نتمكّن من التعرّف على ما يدور في دماغنا، وما دمنا لم نتمكّن من إزالة هذا الظلام من هذه الوسيلة الإرتباطية، فكيف يمكننا أن نبحث في موضوعات أكبر من قبيل فلسفة الوجود والمعنى والهدف من الحياة والحقائق في عالم الوجود ونظائرها؟! ومع هذا التوضيح أرجو أن تكون الموضوعات التي تطرح على مائدة النقاش تساعدنا في إدراك ما يدور في أذهاننا.

والآن لنعود إلى الموضوع الأصلي للبحث وننظر له من بُعد آخر فأنتم تتذكّرون أنّنا قلنا أنّ المسائل والموضوعات في الحياة بشكل عام على نوعين: **أحدها:** الموضوعات والمسائل الواقعية، **والأُخرى:** الموضوعات والمسائل الذهنية والإعتبارية، فمثلاً السنّ الفاسد أو البطن الجائعة هي مسألة واقعية، ولكن عنوان الرجل المعتاد أو تصوّر عنوان

الفقير والمسكين هو حاصل تعبير وتفسير الذهن لتلك الحالتين الواقعيتين، وأحد العلل المخرّبة للبحوث العلمية هو أنّنا نختار العناوين كموضوعات للبحث (أي الرجل المعتاد لا الأسنان الفاسدة) يعني أنّنا في الغالب نتحدّث عن مسألة ذهنية وإعتبارية، ونناقش فيها، فنطرح ظاهراً مسألة الأسنان الفاسدة، ولكن في الباطن نتصوّر الرجل المعتاد، وهذا العنوان هو الحاكم على أبحاثنا وحواراتنا، وهذا الأمر أيضاً أحد الأسباب في الإختلاف بيننا في النقاش، وفي موارد نادرة عندما يدور البحث واقعاً حول الأسنان الفاسدة، فيتدخّل عنوان الرجل المعتاد أيضاً ويمنع من الرؤية الواقعية لتلك المسألة، لأنّه بمجرّد أن يدور البحث في الذهنيات والإعتباريات تتبدّل الرابطة بين المتباحثين، وتقوم على أساس الدفاع والهجوم وضدّ التعاون، فذهنيّاتنا عبارة عن هوياتنا، ونحن أقمنا قيم لإعتقاداتنا وبنينا على أساسها هويتنا الفكرية، فالآن إذا أردت أن أصغي إلى الآخرين بأُذن حرّة وأردت أن أتحقّق من صحّة كلامهم بموضوعية، فأنا في الحقيقة سوف أكون مستعدّاً أن أُسلّم هويّتي وشخصيتي إلى الطرف المقابل، فأنت عندما تتكلّم معي فإنّ هويتي الفكرية ترى أنّ كلماتك مثل السهام في قلبها وتريد أن تزيلها وتدمّرها، ولذلك تأخذ لنفسها حالة دفاعية وكيفية خشنة، فالقالب الفكري يجعل نفسه درعاً واقياً أمام سهامك، والسبب في أنّنا لا نصغي إلى الآخر بأُذن فارغة من التعصّب وذهن حرّ هو هذا الأمر.

ومضافاً إلى تلك العوامل فإنّ الهوية الفكرية أساساً هي ظاهرة مخرّبة وغير منسجمة، ونحن نرتبط مع العالم الخارجي بهذه الوسيلة المخرّبة، فلذلك تكون علاقاتنا مهزوزة من الأساس، ونرى الخارج بمنظار مظلم

من التنفّر والغضب والخوف وعدم الرضا والميل إلى التغلّب على الطرف المقابل وعشرات الخصوصيات المخرّبة الأُخرى، فعلى هذا كيف يمكننا بهذه الوسيلة المخرّبة أن نقيم رابطة مفيدة وبنّاءة؟!

إنّ أنواع القيم لها حكم العمود والدعامة للهوية الفكرية، فتدخل في روابطنا وتبدأ ببثّ سمومها، مثلاً إنّ أحد القيم في أفكارنا هي (أنّني في كلّ مورد يجب أن أكون عالماً بكلّ شيء) وهذه القيمة والعنوان تؤدّي إلى تبديل حالة التعاون لإيضاح المطالب إلى ساحة للتفاخر والتظاهر بالعلم، فلو كنت في أحد المواضيع لا أعلم شيئاً فإنّني سوف أبدأ في الحديث حول هذا الموضوع من الجنبة التي أعلمها حتّى لو كانت هذه الجنبة والجهة لا إرتباط لها بأصل الموضوع، وأسعى إلى التلاعب في الكلمات وتهميش الحديث والقفز على الحبال حتّى أُظهر علمي الواسع، وأطرح المواضيع التي حفظتها من الكتب بصورة غير مرتبطة وغير منسجمة، والخلاصة أنّني أسعى إلى طرح ألف مسألة للتغطية على جهلي، ولكي لا أعترف بأنّي لا أعلم.

أو على سبيل المثال أنّ القيمة والعنوان هو (أنا متفوّق على الآخرين) وهذا العنوان يدفعني إلى أن لا أكون مستمعاً جيّداً، ولذا عندما نستمع إلى الآخرين نستمع ونحن في حالة من العجلة وعدم الصبر، وبمجرّد أن نعلم أنّ الطرف المقابل ماذا يقصد، وماذا يريد أن يقول، نقطع إرتباطنا مع كلامه حتّى من دون إدراك المطلب بصورة جيّدة، ثمّ نسعى بجديّة إلى الإجابة على كلامه وكأنّنا نوجّه سهماً إليه، والسبب في هذا الأمر أنّ الإنسان في موضع الإستماع يجد نفسه ضعيفاً، ويشعر بالمغلوبية ويتصوّر أنّ الغلبة للطرف الآخر، لا للمستمع الذي يكون في حالة من التسليم للكلام

الناطق، وكلّنا قبل أن نكون مستمعين جيّدين فإنّنا متكلّمين جيّدين، وقبل أن نستمع نتكلّم، لأنّنا نحن عبارة عن الكلمات التي نعلمها، فعلى هذا نتصوّر أنّنا كلّما تكلّمنا أكثر فإنّنا موجودين بصورة أقوى وأشدّ، في حين أنّ الإستماع ليس له هذا الدور.

والآن نسعى لتوضيح سائر المسائل والنقاط المتعلّقة بهذا البحث والحوار ضمن أسئلة وأجوبة، وأرجو بعد هذه التوضيحات أن نحصل على كيفية من التعاون البنّاء، ونتجنّب في حوارنا اللجاجة والخشونة والتعصّب، ونتكلّم بلسان هادف، ونستمع بأُذن حرّة، ونسعى إلى أن ننظر إلى الموضوعات بدقّة، ونلتفت جيّداً إلى أنّ ما نقوله لا يكون صادراً من القالب ومنسوجاً بوسيلة القالب، وعلينا أن نكون واعين على أنّ روابطنا ومنطقنا وتقييمنا وفلسفتنا وهدفنا من الحياة وكلّ شيء لا يكون تحت تأثير القالب الفكري، أو يتمّ تعيينه بواسطة القالب فالقالب ليس شيئاً إخترناه بوعينا وتشخيصنا، بل هو معيار ننظر به لقضايا الحياة قد تمّ تحميله من الآخرين على أذهاننا، فعلى هذا نحن لا نستطيع أن نقيّم القضايا بدقّة وإطمئنان، ونفس هذا التوجّه يعيننا على أن نخوض الحوار بروح هادئة وغير متعصّبة.

والآن نرد البحث الحرّ في المسائل والموضوعات المترتّبة على أبحاثنا أو كلّ موضوع يساعدنا على معرفة الذات.

سؤال: أنت تقول أنّ جميع الحركات ومنها البحث والحوار تكون تحت تأثير القالب الفكري، والآن هل أنّ مجرّد الإطّلاع على هذه الحقيقة يكفي في إبطال تأثير القالب؟ ومقصودي أنّنا نعيش في حال القالب، فعلى هذا ما هي النتيجة من معرفتنا أو عدم معرفتنا بأنّ سلوكنا هذا تحت تأثير

القالب؟

الجواب: إذا اطّلعنا على حيل ومكائد الأنا أو القالب فإنّ نفس هذا الإطّلاع وهذه المعرفة سوف تغيّر من كيفية إرتباطنا مع بعضنا، وقد تحدّثت عدّة مرّات عن تدخّل القالب الفكري هذا في روابطنا، وأنّنا لا نشعر بهذا التدخّل، فعلى هذا تتّخذ جميع روابطنا صفة التعصّب، وتكون النتيجة الجهل والعمى (التعصّب نتيجة الجهل وعدم العلم) ولكنّ الآن بعد أن علمنا بأنّ روابطنا غير مصونة من تدخّلات القالب، فنفس هذا الإطّلاع يدفعني إلى التواضع الباطني والرابطة التي تنشأ من وجود هذا التواضع غير تلك الرابطة القائمة على التعصّب، فأنا لحدّ الآن كنت أتصوّر أنّ عقائدي ومعياري ومنطقي ومعتقداتي وجميع محتويات ذهني صحيحة وعلى الحقّ، ولكن الآن فهمت أنّ هذه النتيجة وبهذه التصورات وبذلك المعيار ليست قابلة للإطمئنان، فأساساً أنّها ليست تابعة لنا فهل بعد هذا سوف أصرّ على التعصّب واللجاج؟

سؤال: أنا أقول أنّه إمّا أنّ القالب موجود أو غير موجود، فلو كان القالب موجوداً في أذهاننا، فإنّه سوف يتدخّل في جميع روابطنا.

الجواب: كلّا، إنّه لا يتدخّل دائماً إلّا عندما تربطني (بسبب عدم الإطّلاع) مع موضوع البحث رابطة (الأكتيف) فأنت عندما تبحث وتدرس حجراً أو نباتاً معيّناً فإنّ لك قالباً فكرياً، وعندما تدرس نظاماً أخلاقياً فإنّ لك ذلك القالب الفكري، ولكن هل أنّ كيفية ذهنك في دراسة كلا الموضوعين واحدة؟ فأنت عندما تدرس حجراً فإنّ قالبك الفكري موجود، لكنّه لا يتدخّل في دراستك، لأنّك ليست لديك علاقة شخصية نابعة من الأنا من الحجر، ولا تقول بما أنّ هذا الحجر شريف ومحترم ومن عائلة كريمة

فإنّ بيني وبينه نوع من التعلّق والإرتباط العائلي، فأنا أُؤيّد أصالته العائلية، بل أنظر له نظر الذهن الكلّي في مقابل (الذهن التجزيئي)، وفي هذه الصورة أنت تدرس هذا الموضوع بصورة مستقلّة، لا بنظر الدفاع عن شرف وكرامة الحجر، ولكنّك في دراستك إلى النظام الفلسفي أو الأخلاقي لا ترى المسألة من هذا المنظار، لأنّنا عادة نرتبط فلسفيّاً وأخلاقياً برابطة مع أحد الأنظمة الفلسفية أو الأخلاقية، وهذه العلاقة هي التي تشوّش على أنظارنا، وهذه العلاقة أيضاً هي التي لا تدعنا نبحث الأمر بمعناه الواقعي، بل تثير فينا جانب الدفاع المتعصّب ولإثبات حقّانية هذا الإرتباط.

والآن إذا اطّلعت على هذه النظرة عند دراستك نظاماً أخلاقيّاً، فإنّ نفس هذا الإطّلاع سوف يبعث على قطع الرابطة العائلية والنسبة الشخصية بينك وبين هذا النظام الأخلاقي، ويمكنك بالتالي من أن تنظر إلى هذا النظام كنظرك إلى الحجر وإلى النبات.

سؤال: الحجر أو النبات يختلف عن النظام الأخلاقي والإجتماعي، فهل يمكن للإنسان أن ينظر إليه كنظره إلى الحجر، مثلاً عندما يدرس النظام الشيوعي؟

الجواب: إنّ المسألة المهمّة في الموضوع هي ليست نفس موضوع الدراسة، بل المهمّ هي كيفيّة ذهننا بالنسبة إلى ذلك الموضوع، فالمهمّ أنّنا بأيّة كيفيّة ذهنية ننظر إلى ذلك الموضوع، فإذا نظرنا إلى النظام الشيوعي أو أي نظام إجتماعي آخر بدون دخالة «الأنا» فإنّه يمكننا أن ندرسه كما هو واقعاً، أي كما ندرس الحجر أو النبات، فكلّ نظام أخلاقي له واقعية، وكذلك له مقدار من الظلال الذهنية التي يوجدها الذهن، فلو رفعنا وأزلنا الظلال عن ذلك النظام، فسوف نرى واقعيّته، وهذه الحقيقة والواقعية

يمكنها أن تكون موضوعاً للدراسة كما في موضوع الحجر.

سؤال: أنت تقول أنّنا لا ينبغي أن نطرح موضوعات فلسفية، ألا تجد أنّ الأفضل أن ننظر إلى المسائل بنظر فلسفي حتّى يمكننا أن نجد الحلّ بصورة أفضل؟

الجواب: البحث الفلسفي والفكر الفلسفي أمران، فنحن ليس لدينا نظر فلسفي، بل نبحث أبحاثاً فلسفية، وبحثنا ونظرياتنا في مستوى كبير وعال، ولكن محتوى حياتنا صغير، فنحن ندرس ونبحث مسائل تافهة وصغيرة وشخصية ومحدودة، مثلاً نبحث عن الفراغ وخواء الحياة بحثاً فلسفياً، ولكن عندما نسمع بأنّ السيّدة الفلانية لم تدعونا لضيافتها، فإنّ هذا الموضوع سوف يشغل ذهننا أيّاماً وأشهراً، وهكذا تحلّ المسائل الصغيرة في حياتنا مكاناً محورياً، ولكن في البحث وعالم النظريات نتناول مواضيع فلسفية مهمّة، والمفروض أنّنا بدل البحث الفلسفي ننظر إلى الآخرين نظرة فلسفية، فلو كان لدينا نظر فلسفي فسوف لا نكون أسرى بأيدي الأنا والنظريات الضيّقة، ولا نتصوّر أنّ هذه الظاهرة الفكرية تلفّ جميع وجودنا في إطار ضيّق، ولو أنّنا التفتنا إلى ذلك لأمكننا أن نخلّص هذه الوجود التافه ونصل إلى عظمة الوجود، بدل أن نلتصق به ونحترق معه.

* * *

الفصل الثامن

الحوار الأوّل

في هذه الجلسة نتعرّض إلى الحوار الحرّ، وأرجو الإلتفات إلى ما تقدّم في الأسبوع الفائت بأن يكون حوارنا بعيداً عن اللجاج والتعصّب والأحكام المسبقة، لأنّ الحكم المسبق كالشيء الذي يُلقي بظلّه على الحقائق ويكدّرها، إذاً لنسعى أن نرى الموضوعات كما هي وكأنّها لم تطرق أسماعنا وأذهاننا سابقاً، والآن ننظر إليها لأوّل مرّة يعني، لنسعى إلى أن نترك إستنتاجاتنا ونظرياتنا السابقة ونرى الموضوعات بصورة جديدة وندرسها، ولابدّ من الإلتفات إلى أنّنا لو نظرنا إلى الموضوعات من خلال إستنتاجات قبلية فسوف لا يكون معنىً واقعياً لدراستها، لأنّ ثبوت حقانية الإستنتاجات المسبقة سوف يحول بيننا وبين الموضوعية في دراستنا، وفي هذه الصورة لا يتّضح شيء لنا، لأنّنا سوف نقذف باستنتاجاتنا القبلية على الطرف المقابل بشكل كلمات وعبارات من دون أن نحصل على نتيجة.

والآن بالإلتفات إلى هذه المقدّمة نسعى بالتعاون فيما بيننا لإيضاح المطالب.

سؤال: بنظري أنّك بشكل عام بحثت الموضوعات منذ البداية ولحدّ الآن من بُعد واحد، ونظرت إلى مسائل الإنسان من جهة نفسية فقط، من

دون أن تهتمّ بالمسائل الغير النفسية للإنسان، فعندما تقول أنّ المنافسة تؤدّي إلى مشاكل كثيرة، فهذا صحيح، ولكن هل فكّرت في أنّ المنافسة من أين تبدأ؟ وما هو السبب في ذلك؟

الجواب: بنظري أنّ الإحاطة والإطّلاع على السبب الأوّلي للمنافسة لا يعيننا في بحثنا، المهمّ أن نرى أنّه لماذا الآن تحصل المنافسة بين الأفراد؟ وكيف يمكن التخلّص منها؟ فلو أنّ بيتي إحترق بالنار، والآن أيضاً في حالة الإحتراق، فالمسألة الفورية والجديّة هنا هي أنّه كيف أطفىء النار؟ لا معرفة السبب والعلّة في إحتراق البيت، وهكذا نجد أنّ جميع مشاغلنا وأعمالنا هي نوع من الخداع للذات، ولذلك لا نشعر بإحتراق البيت وحرارة النار، نحن لا ندرك جيّداً وخامة الأمر الذي نعيش فيه، فلو أنّنا أدركنا ذلك جيّداً فإنّنا نترك سائر المشغوليات والنشاطات الأُخرى ونتوجّه بجميع وجودنا إلى هذه المسألة.

إنّ البحث في العلل التاريخية إنّما هو من أجل الفرار من المسألة الموجودة والخوف من مواجهتها، فالفكر ومن أجل أن لا يرى المسألة الحاضرة والفعليّة، يشغل نفسه بالعلل التاريخية والبعيدة حتّى يجعل الإنسان غافلاً عن هذه المسألة الحاضرة، وعندما يذهب الذهن وراء العلل التاريخية ففي الحقيقة أشغل نفسه بفرضيات ونظريات مربوطة بهذه المسألة، لا بنفس المسألة، وفرق كبير بين هذين الإثنين، فواقعيّة المسألة شيء، والفرضيات المربوطة بها شيء آخر، فالواقعية تكون في الحال، ولكنّ الفرضيات الذهنية تجرّك إلى الماضي والزمان، وكلّ حركة ذهنية في الزمان هي عين تداوم المشكلة (وأُكرّر القول بأنّ بحثنا يدور حول المسائل النفسيّة للإنسان لا الموضوعات الماديّة والفيزيكيّة).

سؤال: من الممكن أن تكون تلك الأسباب هي الأصل في إيجاد تلك المسألة، والآن أيضاً موجودة، وهي السبب في تداوم هذه المسألة.

الجواب: على فرض أنّ الأمر كذلك، فلابدّ أن نرى ونـنظر إلى هـذه العلل والأسباب الآن، وفي الحال الحاضر، لا بإعتبار أنّها كانت في زمـان علّة لإيجاد هذه المشكلة، وينبغي الإلتـفات إلى أنّ مـوضوعاتنا لا نـنظر إليها من جهة فلسفية، لأنّ النظر الفلسفي وبسبب أصل الحركة لا يمكن أن تثبت أية علّة، أي أن تكون علّة بصورة دائمية، فكلّ علّة تؤثّر فـي لحـظة قصيرة جدّاً وتنتهي وتخلّي مكانها إلى علّة أُخرى، والمعلول سوف يكون علّة للمعلول البعدي وهكذا، فعلى هذا فالعثور عـلى السـبب يسـتلزم أن تتوقّف الحركة لا أقل في لحظة من الزمان، فمقصودنا من العلّة هو أقـرب العلل لا العلل البعيدة، ولنفرض أنّ المنطقة التي نعيش فيها هي منطقة أهوار ومستنقعات، فالمستنقع هو السبب لإيجاد بعوضة (آنوفل) فعلى هذا تكون بعوضة الآنوفل معلولة للمستنقع، ثمّ أنّ هذه البعوضة لسـعتك ونـقلت إلى بدنك المكروب (فالبعوضة علّة والمكروب المعلول)، ثمّ أُصـبت بـمرض (فالمكروب علّة والمرض معلول)، فنحن من أجل مـعالجة هـذا المـرض نواجه مكروباً وندرسه ولا ندرس المسـتنقع، لأنّـنا إذا أردنـا أن نـدرس المستنقع يجب أن ندرس علّة إيجاده وهكذا الأمر يتسلسل إلى ما لا نهاية.

سؤال: جيّد، ألا تفكّر أنّ مكروب المسـائل والمشـاكـل المـوجودة للإنسان هو الحرص والإرتباط الغير السـليم فـي العـلاقات الإقـتصادية والتوزيع الغير العادل للـثروة؟ ألا يـمكن لهـذه المسألة أن تكـون البـناء التحتي والعلّة الأوّلية لجميع المسـائل والمشـاكـل البـعدية؟ بـنظري أنّ الحرص وعدم العـدالة فـي تـوزيع الثـروات فـي المـجتمع إذا زالت مـن

المجتمع فإنّ جميع المسائل الفـرعية سـوف تـزول بـزوال تـلك المسألة الأصلية.

الجواب: جيّد، لنرى ما مقدار صحّة هـذا المـطلب، فـلا شكّ فـي أنّ الحرص والطمع وعدم التساوي في تـوزيع الثـروات وإسـتثمار الإنسـان بوسيلة الإنسان ومسائل أُخرى كثيرة من هذا القبيل لا شكّ فـي وجـودها بأي معيار ومنطق كانت، سواءً كانت بالمعيار العـقلي والإنسـاني، وحـتّى بالمعيار الحيواني، لو نظرناها بكلّ معيار لرأينا الوضـع الحـالي لعـلاقات التوليد والتوزيع غير منطقية وغير عادلة وكلّ خـلل وعـدم إنسـجام فـي مجال الروابط الإجتماعية يؤثّر عـلى جـميع الأبـعاد الأُخـرى ويـربكها، ونحن نقول أنّ الله تعالى خلق النـاس بـالسويّة، وهـذا الأمـر ليس شـيئاً تظاهريّاً أو فاقداً للمحتوى، فالمساواة هنا بـمعنى أنّ جـميع النـاس لهـم الحقّ في الإستفادة من الإمكانات والمواهب في الطـبيعة، ولكـنّ الحـال الحاضر ليس كذلك، ولم يبق من (قانون المساواة) سوى تـعارفات جـافّة وخاوية، والإمكانات الواقعية أصبحت بيد عدّة مـعدودة، وبـذلك إرتـبك الأمر في المجتمع، وأُصيب النظم الإجتماعي بضربات قاصمة، إذاً فلا شكّ في وجود التفاوت وعدم المساواة، ولا شكّ أنّه يجب إزالتها، ولكن قـبول أنّ هذه المسألة هي مسألة أصلية وأنّها بحلّها والقضاء عليها سـوف تـحلّ جميع مشاكل الإنسان مشكل جـدّاً، وقـابل للـمناقشة، كـما أنّ التـجربة الواقعية لا تؤيّد هذا المطلب، ففي بعض المجتمعات تمكّنوا من القضاء على التفاوت الطبقي والإقتصادي والإستثمار المادّي، ولكن هـل تـمكّنوا مـن القضاء على جميع مشاكـل الإنسـان؟ وهـل أنّ أفـراد هـذه المـجتمعات يعيشون كالإنسان بمعناه الواقعي والمحترم؟ أرجو أن ندرك جيّداً بعد هذه

المناقشات الأُسلوب والمنهج الجامع للإنسان السالم والمجتمع السالم، ولا نحصر مشاكل الإنسان بحدود ضيّقة وسطحية، فالمجتمع السالم لا يكون فقط بمجرّد أنّ أفراده يعيشون بالسوية، ويلبسون بالسوية، ويذهبون للمدرسة بالسوية، ويتناولون الدواء والعلاج بالسوية، ويذهبون إلى المسرح والسينما ونظائرها، المجتمع السالم هو الذي يهيىء لأفراده إمكانية العمل لتفتّح طاقاتهم وإبراز قابلياتهم، فالتربية والتعليم لا ينبغي أن تكون مانعة لإستقلال وحرية الفرد النفسية والباطنية (والتي هي أهمّ من الحرية الظاهرية بمراتب) والأفراد لا يكونون كالعبيد المطيعين للإعلام الحكومي وتستفيد الدولة منهم كأدوات بدون إختيار ووعي وتمنع من نمو العشق بمعناه الواقعي بينهم (لا العشق للروسي والتنفّر من الامريكي والعشق للصيني والتنفّر من الياباني والعشق لليهودي والتنفّر من المسلم)، فهل تجد مثل هذا المجتمع في الحال الحاضر؟ ولنفترض أنّنا نحسن النيّة ونقول بوجود المساواة في بعض البلدان بحيث يمكن للأفراد الإستفادة من جميع الإمكانات، أو أنّ الدولة في تلك البلدان لا تستثمر أفرادها، ولا تكون قيّماً عليهم، ولكن هذا الأمر ينحصر في داخل إطار تلك الدولة، وأمّا في خارجها فتفسح المجال للإستثمار والإستعمار والتعدّي على حقوق الآخرين، في حين أنّ الإنسان بمعناه الواقعي لا يستثمر الإنسان، لا أنّه لا يستثمر الروسي أو الامريكي أو العربي.

والسبب في أنّ الإنسان لحدّ الآن لم يستطع أن يحقّق عملاً الجنّة الموعودة في ذهنه على الأرض هو أنّ هذه الجنّة يجب أن يزرعها في نفسه أوّلاً، ولكن في ماهيّته لا يوجد حسن النيّة إطلاقاً، فهو ظاهرة شريرة مطلقاً، والظاهرة الشريرة لا يمكنها أن تكون مصدراً للخير، مثل أن

يقوم الشيطان بخلق جنّة، فكلّ حركة وهدف صادر من الأنا وسوف يصدر فهو شرّ، فالأنا أساساً لا تعرف الخير، والإنسان ما دام موجوداً ومقترناً ويعيش مع الأنا فإنّه غير صادق في إدّعاء الجنّة، فكلامي أنّه تعالوا قبل كلّ شيء لنزرع الجنّة في أرواحنا، فما دام الإنسان لم يهذّب نفسه ولم يطهّرها فلا أمل في صدور الخير منه إطلاقاً، ولا يمكنه ذلك.

سؤال: لا دخل لحسن النيّة أو سوء النيّة، فأنت تريد أن تبني مثلاً جسراً، فلا دخل لحسن نيّتك في ذلك، بل المفروض أن تبنيه على الأدلّة العمليّة والواقعيات العينيّة.

الجواب: لنفترض أنّ بناء الجسر لا يلزمه حسن النيّة، ولكن بناء المجتمع يختلف عن بناء الجسر كثيراً، فهذه الأُمور ليست لها كيفيات متشابهة، فلبناء المجتمع يلزم وجود العشق، فالعمل الذي لا ينبع من العشق لا يكون منسجماً ومتلائماً، فمن الممكن أن نبني زاوية منه ولكن مع إنهدام زاوية أُخرى، فالعمل الذي لا ينشأ من العشق يعني أنّه ينشأ من الأنا، وجميع الخصوصيات المخرّبة للأنا تكون دخيلة فيه.

سؤال: إذاً فماذا يجب أن نصنع؟ هل نقف أمام هذه الظلامات والأحداث الغير العادلة مكتوفي الأيدي ونكتفي بالكلام فقط؟

الجواب: أنا لا أقول لا ينبغي العمل، بل أقول يجب على العامل أن يكون لديه معرفة حتّى يكون عمله صادراً عن خير وعلم، فالعمل الناشيء من «الأنا» فمضافاً إلى أنّه مضرّ وله كيفية عمياء، فإنّه يفتقد الخير والصلاح، وهذه الظاهرة بسبب ماهيتها الخاصّة لا تعرف الخير إطلاقاً، فالهوية الفكرية بُنيت على الشرّ، ويكفي أن تتذكّر بعض الخصوصيات لهذه الظاهرة حتّى ترون كيف أنّ هذه الخصوصيات المخرّبة تتدخّل

تدريجيّاً في روابطناوفعالياتنا ونشاطاتنا وتصوغ منها كيفية منسوخة وغير منسجمة وبلا محتوى، فانظروا مثلاً التضادّ بيننا، ونعلم أنّ نتائج التضادّ أنّه يؤدّي إلى ضياع حياة الإنسان وتلفها، ويبعث على أن يكون الإنسان متفرّق الميول ولا تكون لديه جديّة في شيء، فانظروا بدقّة إلى حياة وسلوكيّات الأفراد الذين هم من هذا القبيل حتّى ترون كيف أنّ هذه الخصوصيات قد مسخت سلوكياتهم وحوّلتها إلى كيفية غير منسجمة؟ فقبل عدّة ليالي كنّا ضيوفاً عند أحد الشباب الذي كان عضواً في أحد الأحزاب الشيوعية، فلمّا جلسنا دار الكلام عن قبح إستثمار الإنسان للإنسان وإستغلاله، وضمناً كان هذا الشاب طيلة مدّة جلوسنا عنده يأمر خادمته العجوز، وكانت هذه المرأة العجوز التي لا طاقة لها على السير مجبورة لإطاعة أوامره لأجل لقمة العيش، وأعرف شخصاً آخر مليونير ويؤيّد من جهة نظرية تعدّد الثروة، ولكنّه لا يتوقّف لحظة عن السعي في تراكم ثروته وتكاثرها لكي يصير بليونراً، وأنتم أنفسكم رأيتم في الأُسبوع السابق في هذا المنتزه أنّ عدّة أطفال كانوا يركبون الأُرجوحة وجاء شابّان في حدود العشرين سنة، وأنزلا الأطفال من الأُرجوحة بالقوّة، وجلسا بمكانهم، وبدءا بالبحث عن الحرية!! وأُريد أن أقول أنّ هذه نماذج من الأُناس المنادين للخير في المجتمع الذين يعيشون مع «الأنا»، ولا تتصوّروا أنّ هذا النوع من السلوك المنسوخ والفاقد للمعنى يختّص بفئة معيّنة، بل أنّنا جميعاً لدينا هذا الحال، غاية الأمر بأشكال مختلفة، أو في موارد أُخرى، وهذه النماذج التي ذكرناها تعتبر نماذج لأحد الخصوصيات للهوية الفكرية، وهناك عشرات الخصوصيات الأُخرى في هذه الظاهرة المخرّبة، ولكلّ منها القدرة على تدمير زاوية من حياتنا

وسلوكياتنا، فمع وجود هذه الظاهرة الغير منسجمة كيف نستطيع أن نحلّ المسألة بشكل أصلي؟ فنحن إذا لم نستطع حلّ مسألة الأنا، فلا نستطيع إطلاقاً حلّ جميع المشاكل بصورة أساسيّة وحقيقيّة. هذا هو كلامي.

سؤال: لنفترض أنّ الإستثمار والطمع والإحتكار هي مسائل ليست أساسية، فهل في نظركم أنّ الفقر الناشيء من عدم التوزيع العادل للثروات ليس مهمّاً في نفسه حتّى يلزم من أجل رفعه إقدامات جديّة؟

الجواب: طبعاً من اللازم، فإلى جانب الأبعاد النفسية فإنّ الفقر الناشيء من الإستثمار والإحتكار بنفسه مسألة مهمّة، فنحن لدينا آلاماً روحية، وكذلك ألم الجوع أيضاً، ورفع الآلام الروحية هو أمر فردي، ويجب على الأفراد أنفسهم أن يقدموا على رفعها وإزالتها، يعني كلّ شخص مسؤول عن ألمه الروحي، ولكنّ عذاب الجوع هو مسألة إجتماعية، ويجب لرفعه إقدامات إجتماعية بنّاءة لا مخرّبة.

سؤال: أنت تقول أنّه يجب لرفع الجوع أن تكون إقدامات إجتماعية فسؤالي هو هل أنّ كلّ كلمة وحركة تؤدّي إلى إنحراف هذا الإقدام الإجتماعي أو تعطيله مضرّة؟

الجواب: أيّ من المواضيع التي أقولها مخلّة لهذا الإقدام؟ ألا ينبغي من أجل كلّ إقدام إجتماعي مفيد أن يبتدأ الأفراد بالإطّلاع والعلم؟ ألا ينبغي لأفراد المجتمع أن يصلوا إلى مستوى من الرشد الذهني والنضج الفكري حتّى يعرفوا حقوقهم بعنوان أنّهم من أفراد الإنسان؟ ألا ينبغي أن يعرفوا ما هو الحقّ؟ وما هي الحرية؟ ما هو الإستثمار؟ فالإنسان يجب أن يطّلع على هذه الأُمور أوّلاً، ثمّ يقدم عليها، وفي هذه الصورة تكون إقداماته إيجابيّة وبنّاءة، لا مخرّبة ومنتقمة، فالإقدامات التي تصدر من الإنسان الواعي

المخلص تكون في مسار خير الإنسانية لا إلى جهة «الأنا» ومصالح «الأنا».

ما أقوله هو أنّ القالب الذهني الذي يتكوّن من «الأنا» يمنع إطّلاع الإنسان ومعرفته فإذا إستطعت أن تكسر هذا القالب وترى الحياة بدون هذا القالب فإنّ كلّ الأشياء سوف تظهر وتتجلّى أمامك بشكل وكيفيّة لا تقبل القياس مع الوضع الحاضر، فالقالب يبعث على أن لا يرى الإنسان إلّا خطوة واحدة أمامه، يعني أنّه يجعل من نظر الإنسان محدوداً، يقع الإنسان مسحوراً ومجذوباً إلى درجة أنّه لا يستطيع أن يرى خارج محتويات القالب، فالقالب يجعل حالة من الإعتياد في الذهن، يعني أنّ الذهن يعتاد على أن يرى أُمور الحياة والظواهر والجريانات من زوايا هذا القالب، والله يعلم ماذا سوف يرى الإنسان من الحقائق في حال إنعدام الأنا؟!

والآن أيضاً نرى في كثير من المجتمعات أنّ هناك مسائل ومواضيع حيوية، إلّا أنّهم لا يرونها إلّا من قالبهم الإجتماعي الخاصّ، أي أنّ القالب الإجتماعي لهم يمنعهم من رؤية وخامة وشدّة تلك المشاكل كما هي في الواقع، فنحن نقرأ في التاريخ أنّ الإنسان في الزمان الماضي كان يباع ويشتري، فنتعجّب كثيراً من وجود هذه المسألة، ويعسر علينا تصديق بأنّ الإنسان كان في زمان يُباع ويُشترى، ولكن هذا الموضوع كان إعتيادياً بالنسبة لأفراد تلك المجتمعات، لأنّ قالبهم الخاصّ في ذلك الزمان وضعهم في إطار محدود لا يرون خارجه بحيث أنّه جعلهم يقبلون هذه المسألة بعنوان أنّها أمر طبيعي وعادي، ويتصوّرون أنّ أُمور الحياة يجب أن تكون بهذه الصورة. وفي الحال الحاضر أيضاً هناك بعض الأُمور تجري حولي وحولك نرى أنّها إعتيادية تماماً، لأنّنا قد تربّينا في جوٍّ

مخصوص في قالب خاصّ من هذا الزمان، فهذا القالب جعلنا نرى هذه الرؤية، ولكن هذه الأحداث في نظر الإنسان بعد مائة سنة، أو ألف سنة تكون بصورة غير عادية، وغير قابلة للتصديق، ففي تلك الأيّام سوف يتسائل الإنسان أنّه هل يمكن تصديق أنّه في زمان الماضي كان المجتمع البشري على هذه الكرة الأرضية التي تتعلّق بجميع الناس كان هناك أفراد جياع ولم يبق منهم سوى العظم والجلد، وفي زاوية أُخرى من هذه الكرة الأرضية تحرق المحصولات الزراعية أو تلقى في البحر؟!

ولكن هذه المسألة فعلاً بالنسبة لنا أمر عادي، والسبب في أنّ أفراد كلّ عصر لا يدركون أبعاد وعمق المسائل والمشاكل التي تدور في زمانهم هو أنّهم غرقوا في قالبهم الخاصّ، وهذا القالب يبرّر لهم كلّ شيء، ولكنّ الأشخاص في العصور اللاحقة ليس لهم هذا القالب ولا لهم هذه التبريرات، ويمكنهم رؤية هذه المسائل بصورة أوضح وكيفية أُخرى، ونريد أن نقول أنّنا لو نظرنا إلى المسائل من خارج القالب لرأينا وخامتها ومصيبتها غير القابلة للتحمّل، ولا نستطيع أن نتحمّلها ونقبلها لحظة، وسوف نسعى بشكل مفيد ومنطقي إلى رفعها فوراً، ولكن في الحال الحاضر عندما لا ندرك عمق هذه المسائل نكتفي لإرضاء التنفّر والخشونة بالقيل والقال والمؤتمرات والحوارات تحت عناوين حقوق البشر والمحبّة الإنسانية وحبّ النوع ومسؤولية المثقفين ونجاة البشرية وأمثال ذلك.

وأقول إنّ العمل الصادر من الأنا بنفسه مسألة مهمّة تطرح للبحث لا العمل الصادر منها، لأنّ أعزّ شيء لإنسان الهوية الفكرية هو ذاته الفردية، وهكذا إنسان يكون أسيراً للأنانية ويرى كلّ شيء يدور حوله، ونعلم أنّ

أحد خصوصيات الأنا هي أنّها قائمة على أساس الغضب والتنفّر والعدوان وتقف خلف جميع الأعمال والسلوكيات السلبية، ويقف خلف جميع السلوكيات والأهداف لهذا الإنسان التنفّر والحقد والكراهية، غاية الأمر أنّها تكون بلفّافة جميلة وقناع برّاق من التبريرات والتوجيهات كما يقول المثل (لا لحبّ علي بل بغضاً لمعاوية).

ويمكن رؤية هذا الأصل في خطوة خطوة من حياة وروابط الناس، فنحن نقول قوموا لتخريب بيوت المستعمرين ـ بالكسر ـ من أجل إحياء بيوت المستعمرين ـ بالفتح ـ والظاهر أنّ هدفنا إحياء بيوت المستضعفين والمستعمرين، ولكن في الباطن بالعكس، ولعلّكم تتذكّرون أنّه كيف أنّنا في فترة كنّا نؤيّد فرد أو جماعة سياسيّة، ونخالف جماعة أُخرى ونثور ضدّها، ولكن ما أن يتغلّب أحدهم على الآخر ونهدأ فترة إلّا ونؤيّد فرداً آخر أو فئة أُخرى، ونؤيّدها على حساب الفئات السياسيّة الأُخرى.

سؤال: أُريد أن أسأل سؤالاً خارج الموضوع بما أنّ الجلسة مفتوحة للحوار الحرّ، والسؤال هو عن السنّ التي تكون رابطة «الاكتيف» مؤثّرة سلبية على الفرد وحاكمة على وجود الإنسان؟

الجواب: بنظري أنّ هناك عقد ضمني أو صريح بيننا، وهو أنّه عندما يطرح سؤال فإنّنا جميعاً لدينا الحقّ في أن نطلب التوضيح من السائل أنّه ما هو هدفه من طرح هذا السؤال؟ وما هي النتيجة التي يتوخّاها من سؤاله؟ فيمكن أن يكون السؤال لغواً من الأساس؟ ولسنا مجبورين على الكلام على موضوع تافه ولا يساعدنا من شيء في بحثنا؟ ولا أُريد أن أقول أنّ سؤالك غير مفيد؟ ولكن أُريد أن أفهم أنّ توضيح موضوع هذا السؤال ماذا سوف ينفعنا في هذا الحوار؟ وينبغي الإلتفات إلى أنّنا لا نريد

أن نجمع معلومات عن علم النفس فقط، ولا نريد أن نثبت نظرياتنا، بل نريد أن ندرك وجودنا وذواتنا ببصيرة وبشكل مباشر، وهذا لا يتوائم مع الفرضيات ونظريات علم النفس، حتّى لو كانت نظريات علم النفس صحيحة، ولنفترض أنّه اتّضحت هذه المسألة بأنّ لسان الأكتيف يجعل الذهن تحت سيطرته منذ السنة الأُولى أو السنة العاشرة، فما فائدة هذا الموضوع؟

سؤال: على فرض أنّ لي طفلاً له ثمان سنوات من العمر، فأُريد أن أعلم هل أنّه واقع تحت تفكير الأكتيف وذهن التعبير والتفسير، أم لا؟ فلو لم يكن واقعاً تحت تأثيره، فماذا يمكن أن أصنع حتّى أمنع من تأثير هذا النوع من التفكير والآلام الناشئة منه؟

الجواب: يجب عليك أن توضّح أوّلاً أنّه هل أنّ الهوية الفكرية حاكمة على الرابطة بينك وبينه أم لا؟

سؤال: نعم بالتأكيد ..

الجواب: ففي هذه الصورة كيف يمكنك أن تربّي طفلك بحيث يكون مصوناً من تأثير هذه الظاهرة؟ فإرتباطنا أنا وأنت مع جميع مظاهر الحياة ومن جملتها أطفالنا واقعة تحت تأثير هذه الظاهرة، فنحن أساساً عبارة عن هذه الظاهرة، ولسنا شيئاً غير ذلك، فعلى هذا فإنّ الوسيلة الإرتباطية بيننا وبين الآخرين ليست سوى هذه الظاهرة المخرّبة.

وأنا أتعجّب من الأشخاص الذين يؤلّفون كتباً بعنوان (كيف تربّي طفلك) ونظير ذلك فإنّ جميع هذه الكتب يجب أن تتحدّث حول تربيتنا نحن، فنحن المحتاجون إلى التربية لا الأطفال، فإذا استطعنا أن نتخلّص من الهوية الفكرية ونخرجها من أذهاننا فإنّ حياتنا وروابطنا وسلوكياتنا

ستكون بصورة مفيدة ومعقولة ومنطقية ومنسجمة، وفي هذه الصورة لا نحتاج إلى أن نسأل من الآخرين كيف نربّي أطفالنا؟ فنحن سنتمتّع حينئذ بوجود معنوي سليم، وذلك يؤدّي بدوره إلى التربية المعنوية السالمة للأطفال، ولكن ما دام القالب الذهني حاكم على وجودنا، فإنّ آلاف الكتب والتعليمات التربوية سوف تكون بدون تأثير، لأنّ النظريات التي نتعلّمها من الكتاب سوف تكون في أنظارنا بصورة مُثُل وأشكال نموذجية، ولكنّنا في رابطتنا الواقعية مع الآخرين سوف نضيف إلى هذه الرابطة عملاً من ذواتنا وقالبنا الفكري، ومع وجود القالب الفكري الذي هو أساس الشرّ والشيطنة فإنّ السعي إلى التربية الصحيحة إلى الأطفال بمثابة أنّ الشيطان يريد أن يربّي ملائكة، فالشيطان لا يعرف سوى الشيطنة، ولا يتمكّن عن سلوك طريق سوى طريق المكر والخديعة.

سؤال: بعد الإطّلاع إلى أنّ «الأنا» هي ظاهرة مخرّبة، فهل يمكن أن نصون أبناءنا منها؟

الجواب: هذا يرتبط بكيفيّة التعليم، فإذا كان علمنا وصل إلى حدّ أنّنا شعرنا ولمسنا وخامة المسألة وضرر هذه النفس، فذلك يؤدّي إلى أن نسعى إلى تخليص أنفسنا أوّلاً من شرّها، ونعيش في وجود حرّ وبدون تعقيد ومليىء بالعشق في إرتباطاتنا في الحياة، ولو لم يصل علمنا ومعرفتنا إلى درجة نكون مستعدّين معها إلى التخلّص من هذه التحفة، فإنّ معنى ذلك أنّنا لم نصل لحدّ الآن إلى إدراك وخامتها، بل نراها ضرورية لنزاعنا وتنافسنا، ونستفيد منها بعنوان حربة وآلة حربية، وما دمنا نجدها ضرورية لنا فإنّنا نجدها أيضاً ضرورية لأطفالنا وجميع المتعلّقين بنا، لأنّنا نستخدم هؤلاء المتعلّقين بعنوان وسائل وأدوات نافعة لتلك المنافسة

والنزاع، فعلى هذا يجب أن نجهّزهم ونزوّدهم بأدوات التنافس هذه.

سؤال: يعني أنّك تريد القول بأنّنا بعد أن أدركنا مضارّ المنافسة والصراع لا نتمكّن من أن نربّي أطفالنا بحيث يتجنّبون هذا النوع من المنافسة ويعيشون بشكل طبيعي بعيد عن جو المنافسة!!

الجواب: لا شكّ أنّه من غير الممكن ذلك، وقد نستطيع بعد إدراك مضارّ المنافسة بعقولنا أن نتجنّب بعض مواردها، ولكن كيفيّة حياتنا في المجموع وبشكل عميق وأساسي متوغّل في هذا الشكل وهذا النمط من الحياة، فنحن من حيث لا نشعر يمكن أن نقول أنّنا لا نريد أن نربّي أطفالنا على المنافسة، ولكنّ الطفل يتأثّر بشكل كبير في سلوكياتنا اللّاشعورية أكثر من تعاملنا الواعي، فحينئذ يجد أنّ المنافسة هي الأصل في سلوكياتنا اللّاشعورية.

سؤال: قلت في الأُسبوع الماضي وضمن موضوع الحوار أنّ الإنسان يمكنه أن يعيش في قالب فكري وفي نفس الوقت لا يستخدمه في الحوار، والآن تقول أنّ الإنسان ما دام يعيش في القالب والهوية الفكرية لا يستطيع من تربية أطفاله بعيداً عن القالب، وأرى أنّ هذين الكلامين متناقضين، فأمّا أن يتدخّل القالب الفكري في جميع مجالات الحياة أو لا يتدخّل، فلو إستطاع الإنسان أن يحجزه عن التدخّل في الحوار، فكذلك يستطيع بالنسبة إلى تربية الأطفال، وإذا لم يستطع في الأوّل ففي الثاني كذلك.

الجواب: أنّ القالب موجود في الذهن دائماً لكنّه في بعض الموارد والروابط يتدخّل وفي بعضها لا يتدخّل، وفي الأُسبوع الفائت قلنا أنّ القالب يتدخّل في بعض الموارد عندما تكون الرابطة الذهنية بين القالب

والموضوع رابطة تعلقيّة، يعني أنّ القالب يجعل نفسه مع الموضوع برابطة (الاكتيف) فأنت عندما تنظر إلى التلفزيون وترى أحد الأشخاص رجلاً ياباني يتصارع مع آخر تايلندي، وفي يوم آخر ترى على شاشة التلفاز مصارعة بين ايراني وآخر تايلندي فأنت لديك قالباً فكرياً في كلا الموردين، ولكن هل أنّ كيفية الذهن وإحساسك عند رؤية الموردين واحدة؟ كلّا طبعاً فأنت عندما رأيت المصارعة بين الياباني والتايلندي فذهنك كان متفرّجاً فقط، يعني أنّ القالب لن يتدخّل في رؤيتك، ولكنّك عند رؤيتك لفلم المصارعة بين التايلندي والإيراني فإنّ ذهنك وبما أنّك ايراني يتّخذ كيفية أُخرى، فلو أنّك في موردنا هذا وهو الحوار لم يكن لديك في موضوع البحث رابطة تعلّقية فيمكنك أن ترى بوضوح وبدون تعصّب، يعني بدون تدخّل القالب الفكري، لكنّك بالنسبة إلى إبنك لديك إرتباط تعلّقي حتماً، فعلى هذا فإنّ الرابطة التربوية لا تمكن أن تكون مصونة من تدخّل القالب.

سؤال: فعلى هذا أنت تنفي موضوع التربية كليّاً من الأساس.

الجواب: لا تطرح الموضوع بهذه الصورة، فأنا أوّلاً أرجو أن لا يشتبه الأمر عليك بين التعليم والتربية، فأنا يجب أن أُوفّر لطفلي وسائل التعليم، يجب أن أُعلّمه أنّ إثنين مع إثنين يساوي أربعة، وكيف يصنع الكهرباء، وكيف تتحرّك السيارة وأمثال ذلك.

والآن إذا لم أعلم أنا أنّ إثنين مع إثنين يساوي أربعة، أو لم أكن أعلم بقوانين الفيزياء، فهل ترى أنّني أستطيع أن أكون معلّماً جيّداً؟ كلّا طبعاً، وسوف تقول لي أنّك ينبغي أوّلاً أن تتعلّم الرياضيات والفيزياء، ثمّ تأتي لتعلّم طفلك.

فهل أنّ هذا الموضوع البديهي لا ينبغي أن يكون في مورد التربية؟ فلو أردت أن أُربّي طفلي تربية صحيحة ألّا يجب أن أبدأ بتربية نفسي تربية صحيحة؟ وما دمت أعيش مع هوية فكرية فإنّ التربية لا تمكن أن تكون صحيحة، وأساساً فإنّي لا أعرف التربية الصحيحة، إذاً فأنا لا أنفي ضرورة التربية، بل أقول أنّنا يجب أن نربّي أنفسنا تربية صحيحة ثمّ نربّي الآخرين.

سؤال: لنفترض أنّي أُدخّن السجائر أو أكذب، فهل لا أستطيع أن أُفهّم الطفل بأنّ التدخين مضرّ أو الكذب عمل قبيح؟

الجواب: أوّلاً إنّ بعض هذه الأمثلة تكون في دائرة العلوم الواقعيّة، وثانياً أنت لفظاً بحسن نيّة ظاهرية تقول لإبنك أن لا يدخّن أو لا يكذب، فإنّ الكذب والتدخين شيء قبيح، ولكنّ مجموعة الرابطة اللّاشعورية التي تربط بينكما تسوق الطفل إلى التدخين وإلى الكذب.

وبالنسبة إلى هذا الموضوع نذكر أمراً هامشيّاً أيضاً لتتّضح مسألة النسبيّة بشكل أوضح.

أنت تقول إنّني أُريد أُربّي طفلي تربية جيّدة، وأُريد أن أُربّيه ليكون أفضل منّي، وأُريد أن أُبعده عن الصفات السلبية التي في شخصيتي، وأُريد أن لا يكون مثلي ومن الواضح أنّ أباك كانت له هذه النيّة بالنسبة لك، وهكذا بالنسبة إلى جدّك مع أبيك، كلّ واحد كان يقول أُريد أن أُربّي طفلي بحيث أن يكون أفضل منّي، وهكذا يستمرّ الحال حتّى يصل إلى الجدّ المائة، يعني أنّ أجدادي وأجدادك إلى المائة جدّ كانوا يقولون ويسعون لتربية أطفالهم تربية جيّدة أفضل من تربيتهم، جيّد فلو أنّ هذه التربية الأفضل كانت مؤثّرة عملاً فالمفروض أن تكون الدنيا مليئة بالأشخاص الملائكيين، وأفرادها كأصحاب الجنّة، في حين أنّنا نرى عملاً أنّ الدنيا

هي جهنّم التي كانت قبل ألف سنة، وأرجو أنّ الأشخاص الذين يرون في الأخلاق أنّها نسبيّة أن يدركوا هذا الأمر بوضوح، فلو كانت الأُمور المعنوية نسبية، فلابدّ أن نتحرّك في جهة واحدة مع هذه النسبية.

سؤال: لعلّ هذه النسبية تسير في الجهة الأسوأ.

الجواب: الحالة ليست بأسوأ ولا بأفضل، فعندما ننظر إلى الوقائع بشكل موضعي ومن زاوية واحدة، فانّنا نرى أنّ الحادثة الفلانية أو النمط الفلاني من الحياة والمعيشة أفضل أو أسوأ من ذلك النمط الآخر، ولكن إذا نظرنا إلى الحياة والسلوك بشكل واسع وكما يقول الغربيّون (هلُ اسكو) لرأينا أنّ حياة الإنسان تشبه الحياة في المستنقع، والأفراد دائماً يركضون وراء سراب الأفضل، ولكنّ الناس هم أُولئك الناس الفاسدين منذ القديم، غاية الأمر أنّ المظاهر والحالات الظاهرية متفاوتة.

وأُريد أن أذكر شيئاً لتوضيح الأمر بصورة أحسن فنحن نسمع دائماً بعض الشعارات الأخلاقية الكلمات الدينيّة، ونحن معتقدين بها، ولكن في العمل لا نعمل بأيٍّ منها وكأنّه لا فرق هناك بين أن نعرفها أو لا نعرفها، أو نعتقد بها أو لا نعتقد بها، فمثلاً نسمع مقولة الإمام علي عليه السلام عندما يقول: **(لا تعلّموا أبناءكم أخلاقكم فانّهم خلقوا لزمان غير زمانكم)**.

جيّد، ماذا إستفدنا عملاً من هذا الإنذار؟ وأساساً لابدّ أن نسأل من أنفسنا أنّ المراد الواقعي للإمام من هذا الكلام ما هو؟

أنا أسأل منكم: ماذا إستفدتم عمليّاً من هذا الحديث أو الشعار التربوي؟ فلو أنّكم لم تكونوا على علم بهذا الشعار، فماذا سوف يكون سلوككم مع أبناءكم؟ والآن بعد ما عرفتم هذا الشعار فما هي الرابطة بينكم؟ وعندما تحاولون تربية أطفالكم فهل أنّكم تفكّرون أساساً بأنّه يجب أن نربّي أطفالنا على وفق أُمور زمانهم؟ فلو فكّرتم بذلك فيمكن أن تقولوا كيف نراعي هذا الأمر عملاً؟ وكيف نسعى لأنّ نربّيهم لزمانهم في حين أنّك تسعى لنقل القالب الذهني لك بنفسه إلى ذهنه؟!

سؤال: لا أظنّ أنّ واحداً من كلّ ألف واحد يدرك جيّداً المعنى الواقعي لهذا الحديث الشريف، وأنّ الإنسان كيف يمكنه العمل به، وفي نظري لو أنّنا سألنا عن معنى هذا الحديث من بعض الناس وكيف يمكن تطبيقه لكان جوابهم أنّ معنى الجملة واضح، فالمراد أنّه عليكم تربية أطفالكم لزمانهم وكفى.

ولكنّني لديّ سؤال آخر خارج للموضوع وهو هل أنّ الحياة المادية في هذا العصر أدّت إلى أن يتسافل وضع الإنسان الروحي وإلى تجديد حالة الإضطرارب والإختلاف بين الناس؟

الجواب: أوّلاً، كلّا فإنّ تيمورلنك قبل سبعمائة سنة كان يحارب بالسيف والسهم، والآن الحرب بالقنبلة الذرية، فعلى هذا فإنّ ماهية القضية لا تختلف، فالناس يتحاربون ويتقاتلون فيما بينهم بآخر وأمضى الأسلحة وثانياً على فرض أنّ الحياة المادية أدّت إلى إنحطاط الحياة المعنوية والروحية للإنسان وأن تكون الروابط سلبية أكثر، ففي هذه الصورة يجب أن نتساءل لماذا أصبح حال الإنسان بهذه الدرجة من الإنحطاط بحيث أنّه يتأثّر سلبياً لمصنوعاته؟ فإنسان الهوية الفكرية هو إنسان متأثّر وضعيف وحياته تافهة، فهكذا إنسان يتأثّر بأي شيء، وبدلاً أن يحكّم الأجهزة المتطوّرة على حياته يحكّم شيئاً آخر ويكون تحت تأثيره.

* * *

الفصل التاسع

الحوار الثاني

مع التوضيحات المذكورة سابقاً ومن كيفية الأسئلة التي طرحت في الحوار السابق كانت يتّضح بأنّنا لم نعرف بشكل دقيق ماهية المسألة، ولم نعرف ماذا ينبغي أن نصنع؟ فعلى هذا أسعى قبل طرح الأسئلة لهذا اليوم أن أُوضّح المسألة مرّة أُخرى حتّى تتّضح خصوصيات الموضوع جيّداً.

نحن نعلم أنّ الوسيلة لإرتباطنا في الحياة وبجرياناتها هو الفكر، ونعلم أيضاً أنّ هذه الوسيلة مع هذه الكيفيّة التي تعمل فعلاً هي وسيلة ناقصة ولا تخلو من إشكال، إنّ فكرنا وبسبب إختلاطه مع تلك الظاهرة أصبح وسيلة سلبية لإرتباطنا مع الآخرين وغير مطمئنة، فعلى هذا فإنّ أهمّ الأُمور قبل كلّ شيء هو إصلاح هذه الوسيلة، فما دامت هذه الوسيلة ناقصة وغير مطمئنة ولم نسع إلى إصلاحها فإنّ مجمل حياتنا وإرتباطنا مع الآخرين ومع الله ومع الأخلاق ومع أنفسنا ومع المجتمع هي كيفية مخدوشة ومظلمة، فلو أنّني كنت أتحدّث معك تلفونيّاً، وكان الصوت في التليفون بسبب النقص الغني غير واضح، فقبل كلّ شيء يجب أن أسعى لرفع هذا النقص، وبعد ذلك أستخدمه كوسيلة للمكالمة، وهكذا بالنسبة إلى الذهن، فالذهن هو وسيلة إرتباطنا بعالم الخارج، فعلى هذا يجب أن نطمئن إلى صحّة عمله أوّلاً، فمثلاً الآن أنّني أتحدّث معكم وأنتم تستمعون إليّ، فهناك رابطة بيني وبينك، وهذا الإرتباط إنّما يكون بوسيلة الذهن، فهناك مطالب

ومفاهيم تطرأ على ذهني وتظهر على شكل ألفاظ وكلمات لتصل إلى أذهانكم كما هو الحال بالضبط بجهاز الإرسال والإستقبال، ألا ينبغي قبل كلّ شيء أن نتأكّد من صحّة هذا الجهاز أوّلاً؟

إذاً فالمسألة هي إصلاح الوسيلة، فما لم تصلح هذه الوسيلة فإنّ كلّ تحقيق وإستعمال وحكم يصدر من هذه الوسيلة سوف يكون مشكوكاً، ومع الإلتفات إلى هذه الحقيقة أرجو منذ الآن فصاعداً أن تكون جميع الأسئلة حول كيفية إصلاح هذه الوسيلة، فبعض السادة يسألون مثلاً أنّ هذا النظام أحسن أو ذاك، أو هذا الشخص أحسن أو ذاك، أو أنّ الفرد أفضل أو المجتمع، أو أنّ هذا المجتمع أفضل أو ذاك وغير ذلك، وفي مقابل جميع هذه الأسئلة نحن يحقّ لنا أن نطرح هذا السؤال عن وسيلتنا لميزان هذه الأُمور، فالوسيلة يجب أن توضّح هذه المسائل وتجيب عليها، فهل أنّ هذه الوسيلة سليمة أم لا؟

سؤال: يمكن أن تكون هذه الوسيلة الإرتباطية تعمل بصورة صحيحة لدى البعض، ففي هذه الصورة هل يمكن لهم توضيح المسائل الإجتماعية للآخرين؟

الجواب: لنفترض أنّ ذهنك يعني وسيلتك ميزان الأُمور صحيحة، وتعمل بصورة صحيحة، فعلى هذا تكون جميع المسائل الفردية والإجتماعية واضحة لديك، ولكنّ ذهني ليس كذلك، فالآن قل لي بشكل دقيق ماذا تستطيع عمله لمساعدتي.

سؤال: يمكنني أن أُقدّم لك وللآخرين المساعدة لكي تتّضح لديك الأُمور والمسائل الإجتماعية.

الجواب: ينبغي أن تلتفت إلى فرضيات المسألة، فقد إفترضنا أنّ

ذهنك يرى المسألة بوضوح وذهني يراها غامضة، وأنت تريد أن تساعدني في إيضاح مسائل الحياة، فالمسألة واضحة بالنسبة لك، فأنا بذهني الأسود كيف أتمكّن من تشخيص أنّ ذهنك منير وشفّاف، وأنّ ما تقوله مطابق للحقيقة؟

سؤال: نعم، فأنت تقول بأنّه لا يمكن بذهن مظلم إيضاح الحكم، ولكن بنظري أنّ هذه المطالب مبالغ فيها، فالذهن لا يكون غامضاً إلى درجة أن لا يرى البديهيات والحقائق الواضحة ولا يمكنه تشخيصها.

الجواب: الشيء الذي تراه بديهيّاً بنظرك يمكن أن لا يكون كذلك بنظر الآخر، فما هو السبب في كلّ هذا الإختلاف بين البشر؟ أليس ذلك لأنّ كلّ شخص له مفاهيم وأفكار يراها أنّها حقيقيّة وبديهيّة ويتعصّب لها؟

ثانياً: على فرض أنّنا نحسن الظنّ وأنّني أستطيع أن أُدرك وضوح فكرك وذهنك، ففي هذه الصورة هناك سؤال، وهو كيف يمكنك أن تساعدني على إدراك حقائق الحياة كما هي؟ إنّ مساعدتك إنّما تكون مساعدة حقيقيّة إذا أزالت أسباب الغموض والظلمات عن ذهني حتّى أستطيع أن أرى الحقائق بذهن واضح ومنير كما تراه أنت، يعني أنّ كلّ ما تستطيع أن تفعله هو أن تساعدني في إزالة الغبار عن ذهني وفي غير هذه الصورة لا يسمّى فعلك مساعدة ومعونة، فمساعدتنا لأحدنا الآخر ليست مساعدة حقيقيّة عادةً، فأنت تأتي وتذكر الحقائق التي تعتقد بها وتشرحها لي، فعلى فرض أنّ وصفك وشرحك هو عين الحقيقة، ولكنّه بالنسبة لي لا يكون كذلك، فصحيح أنّك رأيت الحقائق بصورة مباشرة، ولكنّني سمعت وصف هذه الحقائق، فأنت فما رأيته كان حقيقةً، وما سمعته أنا من الحقيقة كان فرضية تتعلّق بالحقيقة، والفرضية المنسوبة إلى شيء تختلف عن ذلك

الشيء نفسه إختلافاً كبيراً حتّى لو كانت الفرضية مطابقة للحقيقة، وهذا هو مقصودي من القول بأنّنا أشخاص من الدرجة الثانية، فنحن لا نتملّك الذهن الواضح، بل نرتبط بالحياة عن طريق الفرضيات والنظريات فقط.

أرجو مع هذا التوضيح للمسألة أن ندرك جيداً ما هي الجهة التي لابدّ أن نتحرّك فيها، فأهمّ مسألة بالنسبة لنا هي مسألة «الأنا»، فما لم نحلّ هذه المسألة فإنّ مجموعة حياتنا وسلوكياتنا تكون في كيفيّة عمياء، والآن إذا كان لديكم أسئلة فتفضّلوا مع إجتناب الأسئلة التي تساعد على حلّ مسألة الأنا.

سؤال: من مجموع البحوث السابقة يظهر أنّك تعتمد على الفرد، وعلى هذا فإنّك لا ترى الأُمور الإجتماعية ذات قيمة كعلم الإجتماع مثلاً، أليس كذلك؟

الجواب: لا تهتم لكلامي، أُنظر أنت هل لها قيمة أم لا؟ فالمطلب الذي قلناه عام وكلّي ويرتبط أيضاً بعالم الإجتماع، فأوّلاً هل أنّ عالم الإجتماع يرى بأنّ القوانين الحاكمة على المجتمع هي وسيلة صحيحة للتقييم والتوصيف؟ وثانياً: على فرض أنّ تحقيقات علماء الإجتماع كانت بوسائل صحيحة ومطمئنة وكانت إستنتاجاتهم عين الحقيقة، فأنا وأنت اللّذان لهما ذهن مظلم ماذا نستفيد من هذه النتائج؟ فأنا أقول بأنّ كلّ تحرّك وسلوك لعالم النفس وعالم الإجتماع والحكيم والعارف وأيّ شخص آخر يجب أن يصبّ في إزالة هذه الظلمة عن ذهنه وعن أذهان الآخرين، وفي غير هذه الصورة فإنّ حركته لا تثمر شيئاً، بل تزيد وتديم الجهل.

وعلى كلّ حال فلو قبلت أنّ أهمّ عمل لنا يجب أن يكون معرفة النفس، فالمفروض أن تنحصر الأسئلة في هذا الإطار وهذا الموضوع.

سؤال: هل يوجد هناك طريق أسهل لمعرفة النفس غير ما ذكرت؟

الجواب: مسألتنا ليست هي مسألة الطريق، بل أن تريد أو لا تريد، فلو أردنا واقعاً التعرّف على أنفسنا فسوف نعرف الطريق إلى ذلك حتماً، فالمسألة هي أنّنا نخاف من التعرّف على أنفسنا، بل نرغب دائماً أن نكون أجانب معها، وفي هذه الصورة فلا يختلف الأمر سواءً، وجد طريق واحد لمعرفة النفس أو مائة طريق، أو كانت هذه الطرق سهلة أم صعبة، فلو فرضنا أنّك تقف خارج القرية، وكنت تخاف لأسباب معيّنة من الدخول إليها، وحين وقوفك هذا تسأل العابرين عن الطريق إلى الدخول إلى القرية وأيّ الطرق أسهل، فهل لذلك معنى؟

إنّ ذهننا إعتاد منذ الطفولة على التفكير في التملّك والصيرورة والتشخّص، وأنّه حتماً يجب أن يكون شيئاً مهمّاً، فعلى هذا نحن نخاف من أن نكون فارغين ولا شيء، فنحن غير مستعدّين أن نترك هويّتنا التي إعتدنا عليها منذ ثلاثين أو أربعين سنة ونعيش بدون هويّة، فإنّ ذلك بمثابة الحكم بالموت النفسي لنا، ونحن نخاف من ذلك كما نخاف من الموت، ونقول ظاهراً أنّنا مستعدّون لترك الهوية الفكرية، ولكن باطناً نلتصق بها، ونحاول إزالتها بيد بينما نحن متشبّثون بها باليد الأُخرى.

نحن نريد هذا الشيء بقلب ونخاف منه بقلب آخر، فنقدم تارةً على معرفة النفس، ولكنّنا نسعى من ذلك فقط لأن تريد من الأنا عنواناً مجلّلاً، وبعد إدراكنا لضرورة معرفة النفس يمكن أن نتصوّر إنساناً بدون هوية ويبدو ذلك لنا جذّاباً ومثالياً، فنحن نريد الآن أن نستبدل شخصيّتنا الفعليّة بتلك الشخصيّة وتصوير المثالي، وفي هذه الصورة لا تختلف القضيّة، فالقالب الذي رسمناه لماهيتنا المثالية هو ذلك القالب، وإنّما يختلف

بالكلمات والألفاظ.

سؤال: أنا لديّ سؤال في هذا الصدد ولا أعرف كيف أُبيّنه، فالسؤال هو هل هناك طريق للإنسان أن يصل إلى مرحلة عدم الهوية بالرغم من ذلك الخوف من تركها وبالرغم من تشبّث ذهنه بها؟

الجواب: إنّ محتوى هذا السؤال هو أنّني أخاف من الدخول إلى القرية في المثال المذكور، وثبت لي عقلاً أنّ الدخول إلى القرية لا خطر فيه ولكنّ العادة والإحساس يمنعني من الذهاب إليها، فالآن هل هناك طريق إلى الدخول إلى القرية بالرغم من عدم الرغبة الباطنية؟ وبعبارة أُخرى: هل هناك حيلة لإيقاع الهوية الفكرية في الفخ والقضاء عليها؟

سؤال: هذا هو مقصودي بدقّة.

الجواب: بنظري أنّ هذا الفخّ ينحصر في المعرفة والإطّلاع على فعّاليات الفكر من دون ردّها أو قبولها، يعني بدون أن يقال أنّ هذا الفكر جيّد أو سيّىء، فلو أنّنا توجّهنا بصورة مستمرّة إلى فعل وإنفعالات الذهن وماذا نريد وما لا نريد، فإنّه سوف لا تبقى ظاهرة حبّ «الأنا»، وأُذكّر أيضاً أنّ «الأنا» ليست شيئاً منفصلاً عن حركة الأكتيف للفكر، فعلى هذا فلو كان الفكر دائماً في الزمان والحال فسوف يكون خالياً من «الأنا».

سؤال: من الصعب تشخيص أنّه متى يكون الفكر في حالة التوجّه والإطلاع، ومتى يكون في حالة التجوال والخيال وحركة الأكتيف؟

الجواب: التشخيص وعدم التشخيص ليس مهمّاً، فالآن توجد في ذهنك بعض الأفكار، فعليك أن تتوجّه إلى هذه الأفكار كيف ما كانت، سواءً كانت خيالية أو أفكار واهية أو واقعية، فعليك أن تكون منتبهاً إلى حركات فكرك، هذا هو الأمر.

سؤال: الإشكال هو الإنسان يتوجّه لعدّة ثواني أو لعدّة دقائق، ولكنّه بعد ذلك يرى أنّه رجع إلى الحالة السابقة، واشتغل فكره بالخيالات من دون أن يقصد لذلك.

الجواب: عليك أن تتوجّه أيضاً إلى عدم التوجّه هذا، يعني أن تتوجّه إلى أنّك لا تستطيع التوجّه، وعلى كلّ حال فالإنتباه إلى حركات الذهن مطلوب.

سؤال: ما هو العامل على لزوم التوجّه؟ بنظري أنّ ذلك العامل هو الفكر، ففي الحقيقة إنّني أسعى أن أُلاحق الفكر بالفكر.

الجواب: لا يمكن القول بأنّ هذين فكرين أحدهما يلاحق الآخر، فحالة الإنتباه والتوجّه ليست فكراً، بل كيفيّة وبصيرة، وأمّا الفكر فنقوله لتلك الأُمور التي تنبع من الحافظة، وفي حالة الإطّلاع والتوجّه فإنّ الذهن ليس له كيفيّة التعامل مع الحافظة، ففي هذه الحالة لا ينبع الفكر من الحافظة، وهنا تكمن المصيدة التي تختفي فيها «الأنا» وكما يقول الشاعر العارف المولوي في تقسيمه الفعل والإنفعالات الذهنية إلى عقل جزئي وعقل كلّي، ويقول إنّ العقل الجزئي ينكر العشق بعكس العقل الكلّي.

والمنظور من العقل الجزئي هو العقل المتجزّء المتقطّع في كيفية تفكير الذهن، فقبل أن يكون الذهن عشّاً للتصوّرات التي تشكّل «الأنا» كان كالمرآة الواحدة التي تعكس كلّ شيء وكلّ عمل، وتعمل كشيء واحد، ولكن بعد تجزئتها فإنّ كلّ جزء وقع تحت إختيار واحدة من «الأنا» المتعدّدة، ودائماً يعمل بالنيابة عن تلك «الأنا» فعلى هذا فالذهن في فعاليته هذه له هذه الكيفية الجزئية، وهو مشغول بالأجزاء، وعندما يقول أنّ العقل الجزئي ينكر العشق بهذا المعنى أنّ كلّ عقل جزئي أو تفكير

جزئي ينبع من الأنا ويتّصل بالأنا، وكلّ فكر يتّصل بالأنا يفقد العشق، فإنّ الفكر الجزئي ذكي وعالم ومحتال ومراوغ، ولكن بما أنّه مثبت فإنّه ليست له خاصيّة العدم، وبما أنّه يفتقد كيفية العدم فإنّ له كيفية شرّيرة وشيطانية.

سؤال: كيف يمكن تشخيص العقل الجزئي عن العقل الكلّي؟ فهذه الأُمور معناها الظاهري واضح، لكن بنظري أنّها غير قابلة للإدراك الحسّي، سواءً كان العقل الجزئي أو العقل الكلّي.

الجواب: بنظري أنّنا لو إستبدلنا العقل الكلّي والعقل الجزئي بالفكر الكلّي والفكر الجزئي فإنّه سوف يتّضح لنا المراد، فسؤالك متى يكون وقت الفكر الجزئي، ومتى يكون وقت الكلّي؟ فإنّ جميع التفكيرات جزئية وكلّ حركة وسلوك للذهن من أجل ذلك الموضوع هو جزئي، وكلّ كيفية ذهنية بدون (**obgcte**) كليّة، فإنّ فكرك الآن يفكّر في هذه الشجرة مثلاً، وهذه الشجرة بالنسبة إلى ذهنك «**obgcte**» فالشجرة موضوع الفكر بالنسبة لك، ولكن في اللحظة التالية يتصوّر الفكر بأنّني إنسان عالم أو غير عالم، أو إنسان حقير ومحروم وغير ذلك من الصفات والعناوين، فعندما يفكّر فكرك وذهنك بهذه الصورة وأنّي أفتقد إلى الصفة الفلانية، ففي الحقيقة يعيش في كيفية مثبتة، غاية الأمر بصورة عدم إمتلاك صفة (هذا التوضيح من أجل أن لا يختلط الأمر لدينا في الكيفية العدمية للذهن مع الكيفية اللّائيّة) وعلى كلّ حال أنّ جميع الصفات يعني العلم وعدم العلم أو الحقارة والمحرومية ونظائرها هي صفات «أُبجكت» أي مثبتة في فكرك، والآن إذا كان ذهنك مطلقاً ولم يكن «أُبجكت» لا أُبجكت واقعي مثل الشجرة ولا أُبجكت نفسي مثل العلم وغيره، فماذا تكون كيفيّته؟ إنّ كيفيّته سوف تكون (لا) أو العدم، وهذه الكيفية بذاتها تعني عدم «الأنا» بمعنى أنّ الذهن فارغ

من الأنا، لأنّ الأنا هي حالة الأُبجكت في الفكر، وبما أنّ حالات الأُبجكت تنعدم فإنّ كلّ حد ينبع من الذهن سوف يزول، وسوف تكون حالة الذهن لا محدودة وكيفية لا متناهية، وسوف يكون كليّاً وهذه هي خاتمة المطاف.

سؤال: من أجل إيجاد هذه الحالة يعني يفريغ الذهن من حالة الأُبجكت ومن التفكير في الأُمور الشخصية والجزئية، فإنّ العرفاء يقولون يجب أن يعيش الإنسان في ذكر الله دائماً لأنّ الله تعالى مطلق وكلّ، وليست له كيفية الأُبجكت.

الجواب: لا أعلم دقيقاً ماذا يقول العرفاء في هذا المجال، ولكن من أجل أن لا تنخدعوا بمكائد الفكر ينبغي الإلتفات إلى هذه النقطة، وهي أنّه لا تخلقوا من هذه الصور الجزئية الفكرية إلهاً ولا تجعلوا تصوراتكم الذهنية بحساب معرفة الله، فالفكر الجزئي لا يمكنه أن يدرك اللّا محدود واللّا متناهي أي الله، ولا يمكنه أن يرتبط معه، فالفكر الجزئي حصار بيننا وبين اللّا متناهي، فعلى هذا يجب إزالة هذا الحصار أوّلاً وبعد ذلك فناء وجودكم في اللّا متناهي والتوحّد معه، ومحتوى كلام العرفاء هو هذا المعنى.

وقد ذكرنا سابقاً ونؤكّد عليه من أجل الحذر من وقوع في مصيدة الفكر، وهي أنّه عليكم أن تحذروا من أن تكون لذهنكم حالة التحقيق، فلا ينبغي أن تذهبوا وراء شيء، لأنّ ما تبحثون عنه هو فكركم وتصوّراتكم، وقد قدّمتم هذه التصورات أمامكم، والآن تذهبون وراءها وتحسبون أنّها حقائق جديدة، فأنتم قد لبستم ألفاظاً وأسماءً جديدة على ثيابكم القديمة، والآن تسيرون وراء ذلك التصوّر القديم، غاية الأمر بلفظ جديد، فما دامت وسيلة التحقيق لديكم هي القالب فلن تصلوا إلى شيء، لأنّ

القالب قديم، وكلّما يحصل بوسيلة هذا القديم، فسيأخذ لون القديم أيضاً.

ومن أهمّ الأُمور في وخامة الهوية الفكرية هو أنّها تسبّب أن يرتبط الإنسان بظاهرة ثابتة وميّتة وقديمة في حركته الجديدة والمتحرّكة، فكلّ شيء جديد يدخل إلى دائرة الأنا، فبما أنّ أدوات الإدراك لها قديمة وثابتة فسوف يتّخذ طابع القديم ويفرغ من المرح والذوق والطراوة والروح، وسيكون عين الملل والسآمة.

فالشعور بالملل والسآمة والجفاف الروحي في الإنسان من أجل أنّ وجوده وجود قديم قد علاه الصدأ، فنحن دائماً نسعى إلى الجديد، ونحاول الحصول على تجربة وإدراكات متفاوتة عن السابق، ولكن بمحض الحصول عليها سوف نملّها.

سؤال: ألا يستطيع الإنسان أن يبحث عن الحقيقة من دون قالب؟

الجواب: في البحث عن الحقيقة هناك أُبجكت مستترة، فأنت تذهب لتبحث عن شيء فما هو تصوّرك عن ذلك الشيء؟ وما هي الوسيلة للتصوّر؟ وما هي الوسيلة التي تستطيع بها الحصول على ذلك الشيء؟ ففي جميع هذه الأُمور ليس هناك وسيلة أُخرى سوى القالب، فعلى سبيل الفرض أنّك تريد أن تبحث عن العشق أو الحقيقة، فإنّ نفس البحث عن العشق يحكي عن أنّك فاقد لها، ولا تعرف محتوى العشق في هذا الحال، ولا تشعر بمحتوى العشق في نفسك، ففي هذه الصورة عن ماذا تبحث أنت تذهب وراء تصوّر العشق فأنت قد رسمت صورة العشق في قالبك، والآن تذهب وراء هذه الصورة القالبية.

سؤال: إذا كان كذلك فإنّه بعد تشكيل القالب سوف يكون وضع الإنسان ثابتاً ومتحجّراً، يعني أنّه سوف لا يدرك شيئاً جديداً، والحال انّه

عملاً ليس كذلك.

الجواب: كلّا، فإنّ القالب لا يبقى متحجّراً، بل يتورّم شيئاً فشيئاً، غاية الأمر أنّ هذا التورّم فيه كيفية التكثير، يعني أنّ القالب يكثّر من نفسه، ونحن نرى أنّ هذه الكثرة في القالب بعنوان شيء جديد، ولكن ما نراه جديداً في الحقيقة ليس بجديد، فهي من محصولات ومعطيات القالب السابق، وقد إكتسبت ولون ماهية ذلك القالب القديم، وينبغي الإلتفات إلى هذا المثال لتوضيح الموضوع بصورة كاملة: أحد الشعراء أو الكتّاب القليل الذوق عندما يريد أن يكتب شعراً جديداً فمن الواضح أنّه يبذل كلّ جهده حتّى ينتج شعراً فذّاً وبديعاً ولكن عندما يقول الشعر (حتّى لو كان شعراً جديداً) فمع ذلك نرى أنّ له لون وماهية الأشعار القبليّة الوضيعة، لأنّ الشعر الجديد قد تمّت صياغته في ذلك القالب القبلي ومن تلك المواد الأوّلية والخمرة السابقة.

وعلى كلّ حال فالذهن يجب أن يفرغ من الأنا أوّلاً، ولكن ينبغي الإلتفات إلى أنّ الذهن إذا سعى إلى ذلك بنفسه فسوف تكون الحالة أسوأ، فيجب على الذهن أن يتوقّف من السعي، فعندها سوف يفرغ من الأنا، لأنّ نفس فعالية وسعي الفكر هو السبب في وجود الأنا، فلو إنعدم السعي والبحث لما كانت الأنا.

ينبغي فقط الإطّلاع على حركة الفكر من دون قصد الصيرورة، فالذهن يجب أن تكون له حالة الإدراك لا حالة السعي إلى الصيرورة وإرادة التشخّص، ففي السعي هناك تصور مستتر للصيرورة وتصوّر الصيرورة يلازمه التفكير في الزمان وكلّ حركة ذهنية في الزمان هي عين تداوم الأنا.

سؤال: ما هي العوامل والظروف التي تساعد الذهن والإسراع في

معرفة النفس؟

الجواب: هل أنّ مقصودكم العوامل الباطنية أو الخارجية؟

سؤال: أيّاً كان من العوامل الداخلية، أم الخارجية، فهل مثلاً أنّ الإنزواء والعزلة أفضل لمعرفة النفس، أو الدخول في المجتمع والإرتباط مع الآخرين، أو عامل الذكاء والبله، مقدار العلم والجهل، مقدار العمر وأمثال ذلك، فما هي دورها في معرفة النفس؟

الجواب: إنّ للعمر وزيادته تأثير أكيد على التعوّد على الحياة مع الهوية الفكرية، فكلّما تقدّمنا في العمر كانت المشكلة أشدّ، وبالنسبة إلى العزلة والإنفراد فالبعض يتصوّر أنّ الإنسان إذا ترك المجتمع وتوجّه إلى الصحراء والجبال فإنّه يستطيع معرفة النفس أسرع، وهذا الأمر متداول كثيراً في الهند، ولكن ينبغي توضيح بعض الأُمور في هذا المجال: أوّلاً انّ المقصود من الإنقطاع عن المجتمع ليس هو أنّ الإنسان يقطع إرتباطه المادّي والفيزيكي مع الآخرين حتماً، فأنا وأنت محتاجون إلى المجتمع، فلو أنّ المجتمع لم يعطي الغذاء ليومين لهلكنا، وما نسمعه من أنّ المرتاض الهندي الفلاني يأكل لسنة كاملة حبّة لوز وأمثال هذه الخزعبلات فما هي إلّا خرافة، إذاً المقصود من إنقطاع الأفراد من المجتمع هو قطع علائقهم النفسية، وفي هذا المجال لنرى كيف يكون الحال؟ لنفترض أنّني هذا اليوم أُريد أن أترك زوجتي وأطفالي وأذهب إلى الجبل فأنا الآن في حين توجّهي إلى الجبل هل لا أزال أُصحب التعلّقات النفسية معي أم لا؟ يعني هل أنّني أُصحب الأنا معي أم لا؟ ومن البديهي أنّ الجواب بالإيجاب، فلو أنّني تركتها فلا ضرورة لترك المجتمع، إذاً فأين ما أذهب تذهب الأنا معي، فحينئذ فقد فصلت بدني عن المجتمع فقط، ولكنّ ذهني متّصل مع

المجتمع بحبال لا مرئية، فلو أنّني لم أمتلك الهمّة والقدرة على أن أترك هذا الوزر الثقيل جانباً في حالة معيشتي مع المجتمع سوف لا أستطيع في حال العزلة أيضاً.

وبالنسبة إلى مقدار العلم والجهل فيجب على الإنسان أن يدرك معاني الكلمات المتداولة في المجتمع، وكلّما كانت اللغة في غاية البساطة كان أفضل، ولكن إذا كنت تعلم الرياضيات والجبر والفيزياء أكثر منّي فإنّها لا تأثير لها على معرفة النفس، (وطبعاً هناك قابليات قد تساعد الفرد بصورة مؤثّرة فإنّ الذهن الرياضي يمكنه أن يدرك الأُمور بصورة أسرع) وبالنسبة إلى الذكاء وعدم الذكاء أيضاً ينبغي القول أنّه سؤال غير مفيد، فلنفترض أنّك قليل الذكاء فهل يمكنك أن تزيد في حدّة ذكائك، أو أنّك إذا كنت حادّ الذكاء فأيضاً لا تستطيع أن تقلّل منه، فإنّ ظرفيّة الذكاء لكلّ شخص معيّنة ومحدّدة، فاللازم الإجتناب عن الأُمور التي تخرّب الذهن والذكاء.

وبعنوان مقدّمة لازمة لمعرفة النفس فإنّ أهم عامل هو إدراك وخامة هذه المسألة، يجب أن ألمسها بجميع وجودي وأُدرك جيّداً لمصيدة التي وقعت فيها، وضرورة التخلّص منها، يجب أن أُدرك بجميع وجودي أنّني أُعيش في قطعة واحدة من الخوف والتزلزل والخوف من إنهيار مجموعة من القيم الخيالية التي تشكّل هويتي وتجزّيء وجودي، نحن دائماً نعيش حالة التضادّ مع الآخرين ووجودنا وجود قديم، ولهذا نرى الحياة قديمة، فلو أدركنا هذا المعنى جيّداً لفهمنا أنّه لماذا كان جميع الأنبياء والفلاسفة يرون أنّ معرفة النفس أهم الأعمال، ويعتبرون معرفة النفس هي معرفة الله.

وهناك نقطة أساسيّة أُخرى ينبغي الإلتفات إليها، وهي أنّ خصوصياتنا وعاداتنا وسلوكياتنا التي نعيش بها الآن هي خصوصيات وعادات

وسلوكيات تابعة للهوية الفكرية لنا، ومن مقتضياتها، فلابدّ أن نتعرّف على هذه الخصوصيات والعادات، ونسعى إلى تضعيفها، فمثلاً في زمان الطفولة كانت شخصيتنا مرتبطة بحكم الآخرين وتشخيصهم، ونتيجة ذلك أنّها لم تتوغّل في أعماقنا، وليست لها جذور في ذواتنا، فنعيش بواسطة العوامل الخارجية، وأنا وأنت لحدّ الآن لا زلنا نعيش هذه الحالة، فعندما يدخل عمّي إلى البيت يقول أبي (قل لعمّك القصيدة الشعرية التي تحفظها) ويقول عمّي حينئذ (أحسنت أنت طفل ذكي) وتقول أُمّي (أنّ طفلي يسلّم عليك) وتقول عمّتي (إنّه طفل مؤدّب) وهكذا نجد أنّ حياتنا الفعلية كما في السابق متصلة ومرتبطة بحفنة من الأحسنت، وجميع حياتناوسلوكياتنا هي ظاهرية حيث نعرض دائماً شخصيتنا أمام أنظار الآخرين وقضائهم.

إنّ الإهتمام بالعوامل الخارجية يبعث إلى أن لا نمتلك شيء في داخل وجودنا ولا نعيش لأنفسنا فلابدّ كمقدّمة أن نعود إلى أنفسنا وذواتنا ومن أجل ذلك يجب أن نسعى إلى تقطيع أو تضعيف العوامل الخارجية، وأرجو أن لا تنظروا إلى هذا المطلب بعنوان سلبي وأناني، وأنا لا أقول أنّه لا تهتّموا بالآخرين، بل أقول أنّه لا تهتّموا لحكمهم الوهمي والإعتباري.

سؤال: إنّ عدم الإهتمام بحكم الآخرين يوجب الفوضى الأخلاقية.

الجواب: كلّا، ففي هذه الصورة سوف يحكم العشق على جميع وجودنا وروابطنا، وسوف يتحوّل وجودنا إلى كيفية روحانية ودينية طاهرة ونقيّة ليس فيها أيّة شيطنة وأنانية وخباثة التي تنبع من الأنا.

وعلى كلّ يجب إضعاف تسلّط المحيط علينا حتّى نعود إلى فطرتنا وأصالتنا، فتسلّط المحيط الذي حُمّل علينا منذ الطفولة جعلنا نتبدّل إلى أشخاص مأيوسين وعديمين الإختيار وأدوات محكومة وضعيفة بيد

العوامل الخارجية، والآن يجب بواسطة الإدراك المباشر والعلم بعدم واقعية هذا العامل الخارجي الذي يحكم علينا وإزالته حتّى نعود إلى ذواتنا الحقيقيّة، فلا ينبغي أن نبقى كمتسوّلين بيد هذا وذاك لنرى أنّهم ماذا يحكمون لنا، فإنّ حكمهم ينبع من هويتهم الإعتبارية أيضاً، فعلى هذا لا ينبغي الإعتناء بهذه الأحكام الصادرة منهم، فلو أنّك أردت طهارة وصفات الأنبياء فلا تهتم لتحسين الآخرين وتمجيدهم، بل عليك أن تعيش كأنت.

الخصوصية الأُخرى التي حمّلت علينا منذ الطفولة هي «**المقايسة**»، فالمقايسة هي علّة تداوم الأنا، فعليك أن لا تنظر إلى نفسك بنظر المقايسة ولا تقيس نفسك مع الآخرين ولا مع الماضي، فالذهن إذا لم يبتل بالمقايسة فسوف لا يمكن للأنا أن تعبث فيه.

لا تلم نفسك أبداً، لأنّ الخوف من اللوم علّة الجهل، فنحن لخوفنا من اللوم نهرب من أنفسنا دائماً ونعيش أجانب عنها، فنسعى إلى تبرير الأحداث ولا نرى الحقائق والواقعيّات، والآن إذا لم ننظر لأنفسنا نظر الدائم، فسوف تزول عن أذهاننا جميع الظلمات والخفايا لوجودنا، وبعبارة أُخرى: فإنّه في اللحظة التي لا نعيش فيها لوم الذات فإنّ الأنا سوف تنعدم، لأنّ معنى عدم لوم الذات هو أنّنا قبلنا أنفسنا كما هي.

وبما أنّ أحكام الآخرين وقضائهم علينا وعلى شخصياتنا متضادّة ومتغيّرة، فلهذا يكون اللوم أمر حتمي، فمن جهة نحن نعيش حياة ظاهرية ترتبط بشكل مباشر مع قضايا الآخرين وحكمهم ومن جهة أُخرى، فإنّه لا يمكن أن نتخلّص من لوم الذات وتقريعها في كلّ سلوك وتظاهر بسبب التضادّ فيما بينها.

والآن كن يقضاً فأنت عندما تلوم نفسك من أجل ظاهرة غريبة عنك فأنت في الحقيقة تلوم كلّ شخصيتك بسببها، فعلى هذا يجب أن تترك اللوم والتقريع للنفس، ففي تلك الصورة سوف ترى أنّ الأنا وجود لها، لأنّك من خوف اللوم تصرّ على أن تكون شيئاً مهمّاً.

إذا كان هناك سؤال فتفضّلوا.

سؤال: أنا لديّ سؤالان، ألست تقول بأنّ القيم الوهميّة ثابتة في الذهن وتشكّل مركزاً بإسم الأنا؟ إذاً فإذا ثبت شيء في الذهن كيف يمكننا إزالته؟

الجواب: من ناحية فيزيولوجية أنا لا أعلم الرابطة الدقيقة بين القيم والمخ، فلعلّ كلمة (ثبتت) ليست إصطلاحاً دقيقاً ومناسباً، ولكنّنا نرى عملاً أنّ ما يحتفظ به الذهن من هذه العناوين والقيم يمكن إزالتها، وهذا الموضوع يرتبط بميزان إرادتنا لحفظ ما ثبت في الذهن، فانظر إلى الموضوع من جهة سهلة، ولنفترض أنّ شخصاً واجهك في الشارع وسألك هل لديك علبة كبريت، وبعد خطوات أجدك أيضاً وأسألك: ماذا قال لك ذلك الشخص؟ فأنت تقول أنّه سألني هل يوجد عندك كبريت.

وهذا يعني أنّ سؤال ذلك الشخص قد ثبت في ذهنك، وإلّا فأنت لا تستطيع أن تجيبني على سؤالي الثاني بعد دقيقة أو ساعة، ولكن هل أنّك بعد سنة أو بعد سنتين أو عشر سنوات سوف يبقى في ذهنك ذلك السؤال؟ وهل أنّكم اليوم تتذكّرون أنّه قبل عشر سنوات سألكم شخص في الشارع ذلك السؤال؟ كلّا طبعاً، إذاً فلو كان كلّما ثبت في الذهن لا يمكن إمحاءه وإزالته فأين أصبح سؤال ذلك الشخص؟ والسبب في أنّ محو الأنا في الذهن مشكل وعسير هو أنّنا نشعر بحساسيّة عجيبة بالنسبة لها، نعيش في

حالة قلق دائم عليها، ونسعى لإبرازها وتوقيع سلبياتها ويسعى ذهننا إلى تذكّرها دائماً، لأنّنا نحن نريد حياتها، فلو لم تكن لنا علاقة بها فسوف تزول حتماً.

سؤال: لديّ سؤال آخر، لنفترض أنّنا إستطعنا أن نعيش بدون الأنا كما تقول، ففي هذه الصورة كيف سنعيش مع الآخرين الذين لم يتخلّصوا منها ونعلم أنّهم سيكونون في هذه الحالة أشخاص سلبيين، فكيف يمكن العيش معهم؟

الجواب: إنّ جميع الأسئلة التي تطرأ على أذهاننا تحكي عن مقاومة الهوية الفكرية، وتحكي عن أنّنا لا نريد أن نترك هذا الوزر جانباً، ولهذا نحاول القفز على الحبال، فجميعنا نفترض أنّه سوف يتخلّص أحد الأشخاص من هذه الهوية وهذا الشخص هو أنا، والآن أنا المسكين الذي تخلّصت من الأنا عليّ أن أعيش مع آخرين ليسوا مثلي، ولا يتصوّر أنّه يمكن للآخرين أن يتخلّصوا من الأنا ويعيشون بدون هوية فكرية.

والآن لنفترض أنّك واقعاً وصلت إلى هذه الحالة وأنا لم أصل، فماذا أستطيع أن أفعله تجاهك؟ فعليك أن تذكر أمثلة واضحة ودقيقة لا فرضيات خيالية وغير واقعية أو أنّها نادرة الوقوع.

سؤال: لنفترض أنّك أهنتني أو اعتديت على أموالي فأنا بتلك الخصوصيات التي ذكرتها لا أجد في نفسي ضرورة الدفاع أصلاً.

الجواب: قلت في مكان آخر أنّنا لا ندرك جيّداً حال ووضع الإنسان بدون الهوية الفكرية، فنحن نتصوّر حاله جزئي وناقص دائماً، وذلك بواسطة حدسنا وتصوّرنا لا بصورة ظاهرة كليّة ومرتبطة مع المجموع، فمثلاً أنت تفترض نفسك أنّك شخص واقعي ومن دون هوية فكرية، ومن

جهة أُخرى تفترض أنّك تملك عشرة ملايين، وأنا الآن أُريد أن أعتدي على هذه الأموال وأتجاوز على حقوقك، فماذا ينبغي أن تفعل؟ ولا تدرك أنّ الإنسان الذي يعيش بدون الهوية فإنّه يعيش مع العشق، العشق مع كلّ شيء، فلا يحتاج حينئذ من أجل إشباع خواءه الباطني إلى أن يجمع عشرة ملايين، وهكذا تكون علاقته مع الآخرين علاقة أُخوّة، لا أنّه يتظاهر بالأُخوّة، ففي هذه الصورة لا يمكنه أن يجمع عشرة ملايين في حين أنّ إخوته محتاجين وجائعين، وسوف لا يكون لديه لحياته الواقعية لا لحياته العنوانية شيئاً يمكنه جمعه وادّخاره حتّى يخاف على فقده أو العدوان عليه.

والمثال الآخر الذي ذكرته بأنّني يحتمل أن أُهينك وأنّك لا تجد وسيلة الدفاع فمثلاً يمكن أن أقول لك (أحمق) فماذا تفعل حيال هذا الموقف؟

قبل لحظات قلنا أنّ ثقل شخصية الإنسان الذي لم يبتعد عن شخصيّته وأصالته موجودة في أعماقه لا في قضاء الآخرين وحكمهم، فالعوامل الخارجية لا يمكنها إزالة المعنويات بألفاظ إعتبارية، ولا يمكن لهذه الألفاظ التلاعب بها، ولعلّكم توجّهتم إلى أنّنا عندما نواجه إهانة من طفل فإنّنا سوف لا نتأثّر منه كثيراً، والسبب هو أنّ الطفل لا يستطيع تكوين رابطة معنا تكون عاملاً مؤيّداً أو مضرّاً لإعتبارنا وشخصيتنا الفكرية، فلو أنّنا أخرجنا القيم الفكرية من أذهاننا ولم نكن أسرى لها فإنّ إهانة جميع الأفراد لنا تكون بكيفية إهانة ذلك الطفل.

ومضافاً إلى ذلك فإنّ مجموعة ردود الفعل والسلوكيات والروابط الإنسانية الصادرة من العشق هي سلوكيات وروابط مفيدة إيجابية ومعقولة، لا مثل وضعنا الحالي المخرّب المليء بالتنفّر والكراهية، فعندما

أقول لك بأنّك أحمق، فمن المعلوم أنّني إنسان جاهل وغير بالغ من الناحية النفسية والإنسانية، بل ومريض، فعلى هذا يجب أن أستوجب منك العطف والرحمة والمساعدة بدل الغضب والتنفّر، وأنت يمكنك بدل أن تظهر الغضب أن تساعدني بكيفيّة منطقية وأُخوية حتّى أُدرك جهلي من دون أن أشعر حتّى بهذا الأُسلوب بالخجل والإحساس السلبي، فنحن بسبب الخشونة والغضب والتنفّر المتراكم في وجودنا مستعدّون بشكل عجيب للإنفجار، وأساساً فإنّ أخلاق المجتمع والسلوكيات والروابط الحاكمة على الأفراد مبنية على الخشونة والعداء، فنحن نعيش في جوٍّ فارغ من المحبّة وخالي من الرأفة واللطف وقد تطبّعنا على ذلك، فلا نعرف في سلوك الحياة سوى الخشونة وعدم التعاون الجدّي في الحياة، واللطيف أنّنا نعتبر أنّ هذه الخشونة وعدم الإنسجام مع الآخرين دليل على أنّ شخصيتنا قوية وفذّة، ونغفل عن أنّنا نعيش إلى درجة كبيرة في أعماقنا بالخوف والعجز وعدم الإعتماد على النفس، وجميع هذه الأساليب والتصرفات الخشنة والطفولية هي من أجل التغطية على ذلك الخوف والعجز، وعلى كلّ حال فإنّ الإنسان الأصيل لا يخاف منّا نحن الذين نعيش بهوية فكرية ويرتبط بنا برابطة سهلة ومريحة، فالخوف والقلق والإضطراب هي حالات ملتصقة بنا نحن الذين نعيش بالأنا، فنحن الذين نعيش المشكلة مع الآخرين، ونحن الذين نعيش بجراح في وجودنا ونصرخ من أدنى لمسة، ونحن الذين بنينا شخصياتنا المعنوية على الماء والتي تتعرّض للتلاشي والإنهدام بأدنى نسيم، فالإنسان الأصيل يعيش كالجبل في شخصية قوية ومحكمة وفي نفس الوقت متلائمة ولطيفة.

وهنا أجد من اللازم الإشارة إلى موضوع يرتبط مع هذا السؤال، وهو

أنّ أحد خصوصيات رابطة «الأكتيف» هو أنّ الحياة التي نعيشها ناقصة ومستمرّة، فنحن لم نحيى حياة كاملة ومنسجمة في جميع جوانبها، فكلّ رابطة فعلية لنا مرتبطة مع مئات الروابط القبلية، وفي ذهننا هناك ملفّ لكلّ رابطة من الروابط القبلية والبعدية، ونحن نربط بين هذه الملفّات، فأنت الآن تطلب منّي قرضاً، وأنا بدوري أُراجع ملفّك في ذهني، وأتذكّر أنّ هذا الشخص الذي يقف أمامي هو الذي أقرضني في السنة الفائتة أو لم يقرضني، هو الشخص الذي إحترمني في الأُسبوع الماضي أو لم يحترمني هو الذي أيّدني في كلامي السابق أو لم يؤيّدني أو بسبب شباهته لشخص الفلاني أميل إليه أو لا أميل أو أتنفّر منه ومئات الأفكار الأُخرى، إذاً فأنا لا أتّصل مباشرة بوجودك الفعلي، بل رابطتي الفعليّة معك متّصلة بخيط ذهني مع الروابط السابقة، وهذا هو السبب في أنّنا نحيى حياة قديمة ونحتفظ بها في تلك الملفّات الذهنية الملفّات الذي إحتفظنا بها لنا وللآخرين في أذهاننا والله أعلم كم هي الطاقات التي أتلفناها في حفظ هذه الملفّات، ففي كلّ إرتباط فعلي تهجم على أذهاننا جميع الملفّات القديمة والتي تكون متضادّة غالباً، وأحد أسباب القلق والإضطراب الدائم لنا هو هجوم هذه الملفّات، وهكذا تلاحظون أنّنا نادراً ما نعيش حالة الفراغ العميق والسكينة والطمأنينة والصفاء، فنحن في النوم واليقظة مشغولين بمراجعة هذه الملفّات الناقصة في أذهاننا والتي لا يكتب لها التمام في المستقبل وقد جعلت من أذهاننا ميداناً لتجوالها ووساوسها، وقد أصبح رأسنا مثل مصيدة الفئران التي تحتوي على مئات الفئران المتقلّبة فيها وتركض من كلّ جهة، وهذه الفئران الراكضة ما هي سوى أفكارنا المتجزئة والمتقطّعة.

أمّا الإنسان بدون هوية فكرية كلّ رابطة يرتبط معها مع الآخرين هي

رابطة جديدة وكاملة ومستقلّة وكلّ تصميم يتّخذه (سوى في الأُمور الفيزيكيّة والواقعية) يتّخذه من دون ربط الموضوع الفعلي مع الموضوعات القبلية والبعدية وإرتباطه مع موضوعات الحياة كامل ولا يتّصل ذهنه بخيط لا مرئي مع الموضوعات السابقة، فلو أنّ شخص أهانك وكان لديك ردّ فعلي معيّن إيجابي أو سلبي تجاهه وإنتهى الأمر فسوف لا تأخذ معك هذا الحادث إلى البيت، ولا تأخذه معك عند المنام، فعندما تريد النوم فسوف لا يكون لديك أيّ حساب وكتاب مع الآخرين ومع الدنيا وعندما تستيقظ في الصباح سوف تبدأ علاقاتك من جديد مع الحياة ومع الدنيا ومع الآخرين، فالحياة بالنسبة لك جديدة وحيّة وبالنسبة لنا قديمة وميّتة.

ولعلّ أهميّة الوصيّة تكمن في جانبها المعنوي لا المادّي حيث يكمن فيها أنّ الإرتباط مع الآخرين إرتباط تامّ وكامل، فلا تكون لدينا إحساساً بالتوقّع حينئذ مع الحياة.

وكما قلنا أنّ أحد الإشكالات التي نعيشها هي أنّنا نرتبط مع كلّ إنسان موجود بمعيار وقضاء خاصّ، ونغفل عن أنّ الإنسان له بعدين أساسيّين في وجوده، يعني من ناحية فطرية وذاتية وكذلك من ناحية عقلية وفكرية قد أصابه التحريف والمسخ في كلا هاتين الجهتين، وخرج عن طبيعته المنظّمة والمنسجمة، فلو بقيت فطرتنا سليمة ولم تعبث العناوين بأفكارنا وعقولنا، وبقيت تعمل في خدمة الفطرة، فالله يعلم ماذا سيكون عليه حالنا من تعاون هاتين القوّتين، فالمسألة هي أنّنا قد دمّرنا كلا القوّتين الإيجابيّتين فلم تبق فطرتنا على أصالتها ولم يبق عقلنا يعمل بشكل سليم.

سؤال: وأنا لدي سؤال آخر، هل أنّك لا ترى عاملاً آخر لدى شخصية الإنسان سوى فكر الأكتيف فمثلاً عامل الوراثة أو الشكل الخاصّ من التربية؟

الجواب: أن لا أهتمّ لشيء سوى بلسان الأكتيف، يعني أنّني لا أرى ضرورة الإهتمام بالموضوعات الأُخرى، فعليك الإنتباه جيّداً إلى ما أقول، فأنت تقول أنّ الأشخاص لديهم أخلاق وأمزجة وطبائع مختلفة تكون وراثية عادةً، وأنا أقول صحيح، ولا كلام لنا في ذلك، وتقول أنّ الإنسان ذاتاً شرّير وأقول صحيح، وتقول أنّه ذاتاً خيّر، وأقول أيضاً أنّه لا نقاش في ذلك، وتقول أنّه نصفه خير ونصفه شرّ فلا أُناقش أيضاً، وما أُريد قوله هو أنّ الإنسان ذاتاً شرّير فإنّ فكر الأكتيف سوف يجعل منه أكثر شرّاً، وإذا كان خيراً في ذاته فإنّ فكر الأكتيف يزيد خيره ويحوّله إلى شرّ، وإذا كان شرّيراً من جهة وخيّراً من جهة أُخرى فإنّ فكر الأكتيف يخنق خيره ويضاعف شرّه وعلى كلّ حال لابدّ أن نترك جانباً هذا التفكير المخرّب والغير المفيد لنرى ماذا يبقى لنا فالموضوع واضح، فنحن لا كلام لنا مع ذات الإنسان ولا كلام للوراثة وأمثال هذه المسائل، وإنّما نقول أنّ هناك ظاهرة شرّيرة ومخرّبة تنمو في الإنسان منذ الطفولة مثل الشبح أو السرطان الذي يسكن في أفكارنا ووجودنا، والآن اتّضحت لنا معالم هذا الشرّ وكلّ الأُمور السلبية في رابطتنا مع العالم وأنّها مرتبطة مع هذه الظاهرة المخرّبة، فتعالوا لنسع لإزالة هذه الظاهرة المضرّة وإخراجها من وجودنا.

وينبغي الإلتفات إلى أنّ قولنا أنّ الإنسان يمكن أن يكون ذاتاً شرّير أو نصفه شرّ ونصفه خير فإنّه مجرّد إفتراض، والهدف من هذا الإفتراض تجنّب الأبحاث الجانبية والغير المفيدة، فإثبات أنّ الإنسان ذاته شرّ أو

خير لا يؤثّر في أصل الموضوع، فبحثنا هو في التفكير الشرّير لا الذات الخيّرة أو الشرّيرة للإنسان.

سؤال: أوّلاً ما هو الدور في الإرادة في معرفة النفس، وثانياً: ما هي علّة ضعف الإرادة، ولماذا يوجد بعض الأشخاص إرادتهم أقوى من الآخرين؟

الجواب: كما قلنا سابقاً أنّ الإرادة في تحليلنا ومعرفتنا وأحاديثنا ما هي إلّا أدات من الأدوات الفكرية، فعلى هذا لا دخل لها في معرفة النفس بل هي مضمحلّة وكامنة في بناء الأنا، فالإرادة في هذا الحال تكون بمثابة حلقة الإتّصال بين أجزاء الأنا المتفرّقة، فتوصّل هذه الأجزاء وتحفظ هذا الكيان المخرّب.

أمّا السؤال الثاني والسبب في ضعف الإرادة فمن المعلوم إنّنا لسنا في داخلنا شخصاً واحداً، فلو أردنا تحرّي الدقّة في التعبير لكان من اللازم أن ننتخب لنا مئات الأسماء، فنحن كلّ لحظة نغيّر القناع ونستبدله بآخر وتظهر بشخصية أُخرى، فأنا الآن وفي هذه اللحظة شخص رؤوف ووقور ورحيم، وفي لحظة أُخرى أظهر بصورة نابليون، وفي اللحظة التي بعدها بصورة روحاني مقدّس، وفي أُخرى بصورة شخص ذكي وماكر، وفي لحظة صعب شديد، وفي أُخرى ملائم وغفور، وهكذا نجد أنّ وجودنا ينقسم إلى أجزاء كثيرة وبين هذه الأنات المتفرّقة رغبات وميول متفاوتة عن الأُخرى، وفي كلّ لحظة يحكم على وجودنا واحدة من هذه الأنا، ويريد أن نسلك كما يرغب ويظهر على شكل وكيل عن بقيّة الأنات، والآن ومن الواضح أنّ عمل هذه الأنا الحاكمة فعلاً لا يمكن أن يكون مورد تأييد من بقيّة الأنات المتعدّدة، ولنفترض أنّ هناك مائة شخص

يعيشون في مدينة بإسم حسن وحسين وعلي وتقي وغير ذلك، ففي وقت يحكم حسن على المدينة ويريد أن يدير شؤون حسين وعلي وغيرهم كما يرى هو، وفي لحظة أُخرى يأتي دور الآخر ويحكم كذلك وكلّ واحد منهم لا يقبل بتصميم وحكم الآخر، فالنتيجة أنّه سوف ينعدم الإنسجام والتلاؤم في هذا المجتمع، وسوف لا تسير الأُمور على ما يرام، فوجودنا بمثابة هذه المدينة، فمثلاً أنا معتاد على الدخان وأُصمّم على ترك التدخين غداً، ولكن أرى نفسي لا أترك التدخين لا غداً ولا بعد غد ولا بعد سنة، والسبب في هذا الأمر هو أنّ الأنا الرافضة للتدخين تعزم على تركه والأنا المعتادة على التدخين تدعوني للإستمرار على التدخين، وهكذا أقع بين إرادتين متضادتين وهذا السبب في ضعف الإرادة.

وأمّا السبب في أنّ بعض الناس أقوى إرادةً من البعض الآخر مثلاً نجد البعض عندما يصمّم على ترك التدخين فإنّه يترجمه في مقام العمل بنجاح، ولكنّ البعض الآخر ليس كذلك، وتوضيح السبب في ذلك هو أنّه في كثير من الموارد لا تتدخّل الإرادة في هذا الموضوع بل قوّة الأنات وسعيها إلى جرّ الإنسان بطرف واحد، ولكن في بعض الموارد مضافاً إلى قوّة أو ضعف تلك الأنات فإنّ الإرادة لها دور مستقل في هذا الصراع، وبعبارة أُخرى أنّ في كثير من الموارد نجد أنّ الجنود والخدم للهوية الفكرية مضافاً إلى وظيفتهم ودورهم الخاصّ في بناء وحفظ الهوية الفكرية يبرزون بحدّ ذاتهم بشكل أنا مستقل وجزء من الأجزاء التي تشكّل الأنا الكبيرة أو الهوية الفكرية مثل أفراد البلد الواحد حيث لهم شغلاً ووظيفة خاصّة في بناء هذا البلد فالإرادة مضافاً إلى دورها في الوساطة والمساعدة والمعاونة فإنّها تظهر بشكل أنا مستقلّة أيضاً،

فالأشخاص الذين لهم إرادة أقوى من الآخرين هم الذين أصبحت إرادتهم مضافاً إلى وظيفتها ودورها المساعد أصبحت أحد أجزاء الأنا المهمّة في تشكيل الهوية الفكرية وفي هذه الصورة تكون الإرادة في هؤلاء بمثابة أنا مستقلّة ولها حقّ إعمال القدرة والحاكمية على هذا الإنسان ولهذا تتجلّى بصورة أوضح من الآخرين.

وببيان أوضح، أنّه عندما تكون الإرادة بصورة أنا مستقلّة فالهدف الأساسي هو حفظ حياتها لا العمل بموضوعها وإنجاز موردها، فأنت عندما تترك الدخان بقدرة الإرادة (الإرادة التي أصبحت تعمل بعنوان الأنا) فإنّ هناك ما هو أهمّ من ترك الدخان في نفسك وهو حفظ وتداوم حياة هذه الأنا (أنا صاحب الإرادة)، والكثير من الأشخاص يلتفتون في أثناء العمل إلى أنّهم يعملون عبثاً، ولكن خوفاً من هذه الأنا (الإرادة) فإنّهم لا يتجرّؤون على ترك ذلك العمل التافه.

سؤال: هل أنّ معيشة الأفراد المتمدّنين أكثر تورطاً بالأنا من الآخرين؟

الجواب: لا إرتباط للتمدّن وعدمه في موضوعنا، بل يختلف حينئذ نوع الأنا، وقد ذهبنا يوماً إلى إحدى قرى شيراز وجلسنا في خيمة من سكنة تلك المنطقة، فلم نلبث دقائق حتّى جاء رئيسهم وقال (أتعلمون أنّنا نحن أصحاب الخيم والرعاة من أحفاد كاوة الحداد) جيّد هل هناك حياة أبسط من الحياة في الخيم، ومع ذلك نجد الأنا في هذه الشدّة والقوّة.

سؤال: ألا تتصوّر أنّ قوله (أنا من أحفاد كاوة الحدّاد) بمثابة جبران وتعويض ممّا يعيشه من المحرومية وبالتالي وسيلة للتسلّي الخاطر وتهدئة النفس؟

الجواب: على العكس تماماً، فإنّ ذلك يزيد في إحساسه بالمحروريّة والحرمان لأنّه يثير في نفسه تصوّر وإحساس مبهم بأنّ الحياة في الخيم حياة ضئيلة وحقيرة ولا ينبغي لأحفاد كاوة الحدّاد أن يعيشوا في صحراء جافّة ويشتغلوا في معيشتهم بالرعي، ومع الأسف أنّ جميع الناس يتصوّرون بأشكال مختلفة أنّهم أحفاد كاوة الحداد، وأنّ جميع شعور الناس بالحرمان والنقص والتحسّر وعدم الرضا عن الدنيا والناس ناشيء من تصوّرنا أنّنا من أحفاد كاوة الحداد، فجميع حياتنا مليئة بالتحسّر على الوصول على ذلك المقام الوهمي، وجميع سعينا في الحياة هو بين واقعنا الفعلي والوصول إلى المقام الذي ينبغي أن يكون لنا، أي بين صاحب الخيمة الذي هو واقع فعلي وبين الوصول إلى شأن أن يكون من أحفاد كاوة الحداد وهو تصوير مثالي، فجميع حياتنا حسرة توأم مع العجز إلى الوصول إلى ذلك المقام المثالي، والحال أنّ هذا التصوير المثالي في حكم السراب والوهم.

الفصل العاشر
الحوار الثالث

هذا الفصل يمثّل آخر حوار بيننا وقبل طرح مواضيع الحوار من الضروري ذكر عدّة نقاط الأُولى نحن لم نجتمع في هذه الجلسات حتّى نزيد من فضلنا وعلمنا ونساعد بعض آخر في ذلك، نحن نريد أن نتعاون في توضيح الحقيقة، فالإطّلاع على الحقيقة غير ملء الدماغ من العلم والفضل، نحن نريد عملاً أن نعرف أنفسنا لا أن نزيد من ذخائر علمنا ومعرفتنا، فالعمل أفضل من المعرفة، فنحن نخزن في حافظتنا آلاف الفرضيات والنظريات بعنوان علوم من دون أن نعمل بمحتوى أحدها، في حين أنّنا لو عملنا بمحتوى أحد تلك المطالب فسوف ينتهي الأمر، وأرجو أن لا نجعل هذا الكلام شعاراً لنا فقط، بل هذه حقيقة إذاً فتعالوا لكي لا نخدع أنفسنا ولا نخزن هذه المعارف في حافظتنا وأذهاننا، فإنّ كلّما نخزنه وندّخره من العلوم فإنّه يفيدنا فقط في بيعه والتظاهر به ولا يفيدنا في معرفة النفس، فلا ينبغي السعي أن نتجوّل بين النظريات العلميّة فمسألتنا ومشكلتنا ليست هي النظرية، بل هي عدم الإرادة، إذاً، فتعالوا لنسعى إلى زيادة إرادتنا لا زيادة علمنا وزيادة الإرادة مرتبط بهذا الحال لا بالغد، فينبغي أن نزيل تصوّر الغد من أذهاننا ولا نسعى إلى أن نخدع أنفسنا بسراب الغد، فإنّ كلّ ما في الغد الآن موجود وليس الغد يزيد على

الآن شيئاً.

تعالوا لنكون جدّيين وأن نكون متأمّلين ومتوجّهين في حياتنا، في كلماتنا، في مسموعاتنا، وبشكل العام في جميع قضايا حياتنا أي نتعمّق بها، فنحن نقول أنّنا متديّنين ونسمع أنّ جميع الأديان والمذاهب الأخلاقية تؤكّد كثيراً على معرفة النفس حتّى قيل أنّ من يريد معرفة الله لابدّ أن يعرف نفسه، إذاً فنحن لو لم نهتمّ بمعرفة النفس فكيف ندّعي أنّنا متديّنين؟ فهل أنّ هذه التوصية ممّا تقبل إهمالها أو المرور عليها بسرعة؟! لماذا ليست لنا علاقة ورغبة في معرفة النفس، ألا ينبغي أن تكون معرفة النفس من الأهميّة لنا بمقدار ما في معرفة الأثاث والبيت والسيارة وغير ذلك من المشغوليات الطفولية؟

اللهمّ انقذنا وفرّغ قلوبنا من هذه المشغوليات الجزئية حتّى ندرك أنّ للحياة معرفة أعمق من هذا اللهو واللعب.

المطلب الآخر هو أنّنا لا ينبغي أن نتصوّر أنّ معرفة النفس تختّص بفرد أو مجموعة معيّنة، فكلّنا يجب عليه الإهتمام بمعرفة النفس، فالإنسان الذي لا يعرف نفسه فإنّه لا يعرف كلّ شيء واقعاً، وما دام ذهنه مشغول بالأنا فإنّه عاجز عن رؤية الحقائق، فالفكر ينبع من مركز هو صنيعة الأنا ولا يعرف سوى هذا المركز، لأنّ حركته تدور في دائرة هذا الإطار فالدماغ في البداية، أي في حالة السلامة بمثابة مركز الإرتباط لكلّ شيء، ولكن عندما يصبح عُشّاً للأنا فيكون وسيلة إنحصاريّة في خدمة الأنا، ويرى جميع قضايا الحياة ما يرتبط بالأنا لا كما هي واقعاً، فذهننا يصبح متعلّقاً ومتشبّثاً بالأنا إلى درجة أنّه لا يلتفت إلى كلّ شيء سواها.

الإنسان الذي لا يعرف نفسه هو إنسان غير بالغ بل هو آلة التبليغ

والإعلام وتؤثّر عليه العوامل الخارجية وتجرّه من هنا وهناك، فالذهن في حالة الأنا هو ذهن أعمى وذهن مظلم وهو عبد دائماً يؤتى به من هنا وهناك ولا يستطيع السير بشكل مستقل، وأرجو أن ندرك هذا المعنى جيّداً.

وأحد الإشكالات على المذاهب الجديدة في معرفة النفس من قبيل التحليل النفسي ونظائرها هو أنّها تأخذ موضوع معرفة النفس بشكل سطحي ومحدود، فموضوعهم للبحث ينصب عادةً على الشخص الذين لديهم سلوك شاذّ في المجتمع أو غير أسوياء، ومعيارهم على كون هذا السلوك شاذّ وغير عادي هو معيار سطحي ومحدود، مثلاً أنّه لو كان جميع أفراد المجتمع خشنين ومنتقمين وأنانيّين وحتّى معتدين وعدوانيين ورأينا شخصاً واحداً، لم يكن كذلك فإنّ هذا الشخص بنظر علماء النفس هو إنسان شاذّ وغير عادي ولا يتطابق مع المحيط ويجب أن يذهب إلى طبيب نفسي ويعالج نفسه، وهذا هو مقصودي من المعيار المحدود والسطحي والإعتباري.

وفي المذاهب القديمة نجد أنّ المعيار واسع جدّاً ومفتوح، وأساساً إنّ معرفة النفس لها إعتبار كبير وعميق وأساسي يتجاوز لون الشخصية وظواهرها، ومعيارهم في الشاذّ وغير العادي ليس عدم الإنطباق مع المجتمع بشكله السائد بل عدم الإنطباق مع المعايير الإنسانية الأصيلة، مثلاً العشق، المعرفة، الخير، الطهارة، والحصول على المُثُل الإنسانية السامية، وتلاؤم الإنسان مع الإنسان أو مع مجموعة الحياة لا مع مجتمع خاصّ أو أفراد مخصوصين.

الغرض من توضيح هذا المطلب هو أن لا نقول أنّه الحمدلله الذي جعلني في هذا المجتمع الخاصّ إنساناً سويّاً فلا أحتاج إلى معرفة النفس، فلو أنّنا

نظرنا إلى المعيار الواسع، لرأينا أنّنا بحاجة إلى معرفة النفس، سواء كنّا متديّنين، أو غير متديّنين موحّدين، أو غير موحّدين ماديين، أو غير ماديين نتعلّق بهذا المجتمع أو بذاك المجتمع، فما يقال من أنّه (من عرف نفسه فقد عرف ربّه)، هو أحد فوائد معرفة النفس لا كلّها، بل يجب القول أنّه إعرف نفسك حتّى تتخلّص من الخواء والهراء.. إعرف نفسك حتّى تعيش حياة جديدة يوماً بعد آخر.. إعرف نفسك حتّى تتخلّص وتخرج من المستنقع الآسن وتتخلّص من آلاف الآلام والمشاكل الأُخرى، إذاً فأنت إذا لم تكن موحّداً أيضاً ولا تعتقد بالله فلا أقل يجب عليك أن تعرف نفسك لأجل هذه الأُمور.

وآخر مطلب ينبغي التذكير به هو أنّني لا أدّعي أبداً أنّ المطالب والأُمور التي أذكرها صحيحة أو أنّ المواضيع في معرفة النفس تتخلّص بهذه المطالب، فلو أنّكم قبلتم بهذين الأصلين وهما أنّنا نعيش حالة وخيمة ومؤلمة، وثانياً أنّ السبب في هذه المشاكل والمصائب هو هذه الظاهرة الخيالية والإعتبارية بإسم الأنا فإنّ طريق جهادها ومحاربتها سوف يكون مفتوحاً أمامكم ولا ينبغي أن تعتنوا لكلامي حينئذ، فأنا قد أُخطيء في ترسيم وتوضيح هذه الظاهرة وفي علّة وجودها وفي كيفية إزالتها فعليكم أنتم أن تدرسوا الموضوع جيّداً وتستنتجوا على هذا الأساس ثمّ تجدون الطريق بأنفسكم وتبدؤون بالعمل.

وإلى هنا إنتهى كلامي والآن جاء دور الأسئلة.

سؤال: بنظري أنّ المطالب التي تقولها واضحة وقابلة للهضم والقبول ولكن غداً مثلاً نذهب إلى جلسة أُخرى ونشترك في بحث آخر ونسمع كلاماً آخر مغايراً لكلامكم وفي نفس الوقت صحيح أيضاً، وهذه هي

المسألة التي تشوّش الذهن، فلا نعلم أين الحقّ ومع من؟

الجواب: بنظري أنّه يجب القول أنّ الحقّ مع صاحب المكروفون الآن بما أنّ المكروفون تحت إختياري، فالحقّ معي وترى بأنّني كيف ألتزمه بقوّة، وفي لحظة أُخرى عندما يكون في إختيارك يكون الحقّ معك، وينبغي الإلتفات إلى أنّ المكروفون له أشكال مختلفة فقبل أيّام ذهبت إلى مجلس عزاء وترحيم وعندما إنتهى المجلس رأيت أنّ جمعية الحاضرين هجموا على ذلك الشخص لكي يقبّلوا يده ورأيت رجلاً مسنّاً وقد سبقه الجميع، وكان مستعجلاً إلى الوصول إلى يد ذلك السيّد لتقبيلها، وعندما قبّل يده رجع إليّ وقال (من يكون هذا السيّد)؟ ففي هذا المورد تكون كثرة الأفراد لها حكم المكروفون، فنحن ما دمنا نتقلّب بواسطة المكروفونات من هذه الجهة إلى تلك الجهة، فنحن أشخاص مكروفونيون وأشخاص إعلاميون وقالبيون، وفي الحقيقة أنّنا مجرّد مقدار من التبليغات ومحصول إعلامي أُلقي في أذهاننا، وما دمنا نعيش في هذا القالب، ويحكم علينا وعلى روابطنا هذا القالب فإنّ تشخيص الحقّ من غير الحقّ وتشخيص الصحيح من غير الصحيح مشكل جدّاً، نحن عندما نقبل شيئاً أو نرفضه ففي الحقيقة أنّ ذلك القالب قبله أو رفضه، وما دمنا لم نتحرّر بشكل كامل وواعي من تدخّلات هذا القالب فسوف لا نرى الأشياء إلّا من خلاله.

سؤال: كيف يمكن للإنسان بعد معرفة النفس أن يعرف الله تعالى؟ فنحن لفظاً نقول (إعرف نفسك لتعرف ربّك) فما هي الرابطة بين هذين الأمرين؟ ولماذا أنّ الإنسان عندما يعرف نفسه يعرف ربّه؟

الجواب: ما يمكن أن يقال بشكل مختصر حول معرفة الله أنّ الله تعالى جوهر لا يقبل الوصف مع ثلاث خصوصيات أساسيّة وهي: أنّه وراء المادّة

وأنّه خارج من الزمان والمكان.

والآن لنأتي إلى خصوصيات الأنا التي نعرفها، فهي بالضبط عكس هذه الخصوصيات الثلاث، فأوّلاً أنّ خالق هذه الظاهرة هو الفكر والفكر له جذور ماديّة ومنشأه عنصر مادّي، وثانياً أنّ الزمان له دور مهم في تداومها، وثالثاً أنّها محدودة بالمكان وحركة هذا الفكر تكون داخل هذا الحصار والقالب وفي حيطة الأُمور المعروفة والآن إذا أخذنا هذه الخصوصيات الثلاثة من الذهن يعني أنّ الأنا سوف تضمحل وبتبعها يفرغ ويتخلّص الذهن من قيد الزمان والمكان ويجد نفسه مرتبطاً باللّا محدود واللّا مكان واللّا زمان.

ويمكن تشبيه ذلك بقصّة ذلك الأعرابي الذي ليس لديه ولا يتعقّل سوى قربة من الماء المالح، فأخذه معها هديّة إلى السلطان الذي يقع قصره إلى جانب دجلة والفرات ويضرب المولوي لذلك مثلاً على محدودية معلوماتنا بمثل هذه القربة التي امتلأت من العناوين وشكّلت الأنا وأصبحت عاملاً لفصل الإنسان عن البحر.

فما أكثر غباء الإنسان الذي لا يسمع مثل هذه الرسالة التي يذكرها العرفاء، وأمّا ما أُريد أن أقوله كهامش على هذا المطلب هو أنّنا قلنا آنفاً أنّنا ينبغي أن نطرح الأسئلة والموضوعات التي تفيدنا في معرفة النفس، فمثلاً أنت تسأل عن الحقيقة والعشق ما هو؟ وما هي حالات وكيفيات الروح للإنسان الذي تخلّص من الأنا ونظائر ذلك؟ وأنت تريد أن تعلم نهاية المطاف والطريق، والحال أنّنا لا زلنا في البداية وأنت تريد أن تعرف ما هناك، ونحن نريد أن نعرف ما هنا، فنحن هنا ليس هناك ولا نعرف ماذا هناك، فعندما نسأل أحد الأشخاص عن العشق وعن الحقيقة، فمن الواضح

أنّنا لا نعرف هذه الكيفيات ولا نلمس محتوى هذه الكيفيات، فلو كانت لنا تلك الحالة وتلك الكيفية لما كان هناك باعث على السؤال، وعدم اتّصالنا بتلك الحالة يدلّ على وجود مانع وحجاب، ومسألتنا هي معرفة هذا الحجاب والمانع، إذاً فيجب أن نرى ما هو الحجاب؟ وكيف يمكن إزالته؟ فلو تمكّنا من إزالة الحجاب فسوف ترى بنفسك ما هي حقيقة العشق ولا يلزم أن يصفها لك شخص آخر فما دام هذا الحجاب موجوداً فما فائدة وصف الحقيقة لك؟

سؤال: في الأبحاث السابقة رفضت البحث والتحقيق، وبنظري أنّ رفض البحث بمثابة رفض الأمل والهدف، فعندما لا يبحث الإنسان عن شيء، فمعناه أنّه لا أمل ولا هدف له من ذلك ويجب أن يقبل المعيشة والحياة كما هي فعلاً من دون أن يكون له أملاً للخلاص، وهذا المعنى بمثابة الحياة المتحجّرة والمتوقّفة.

الجواب: دعنا من ظواهر الكلمات ولنرى حقيقة البحث أو عدمه، نحن مسجونون في حصار ضيّق وثمّ نسمع فقط أنّه خلف جدار هذا السجن هناك بحيرة أو غابة رائعة وجميلة، فأنا لا أقول أنّ الخلاص من السجن والوصول إلى تلك البحيرة والغابة غير ضروري، بل إنّ الوصول للغابة بمعنى الحرية حقّ طبيعي لك، لكنّني أقول أنّك بدل أن تفكّر بالغابة والبحيرة فكّر في حالك في السجن، وهذا الكلام لا يعني أنّك لابدّ أن تبقى في السجن بل إعرف السجن واعرف نفسك في هذا السجن، وعندما تعرف ذلك جيداً سوف تتوجّه إلى أنّ هذا الحصار وهذا السجن من صنيعة نفسك وفكرك وتصوراتك، وعندما يتوقّف الذهن من التصورات والخيالات فإنّ معنى ذلك أنّك تخلّصت من السجن ووصلت إلى الغابة، أو نقول بشكل أدقّ أنّه عندما

يتوقّف الذهن من التفكير فهناك تكمن الغابة الجميلة والرائعة والوصول إلى تلك الغابة والبحث عن غابة خارج وجودك ومصداقك الواقعي لا معنى له ولن تصل إليها.

سؤال: هل أنّ التفكّر في الغابة وشوق الوصول إليها ألا يعتبر محرّكاً قويّاً على الخروج من السجن.

الجواب: كلّا فالتمثيل بالغابة لابدّ أن تمحوه من ذهنك ولا تفكّر بالغابة أو بمكان آخر وأنت في مكان آخر لا تظن بأنّك في السجن بأنّه هناك غابة خلف حائط السجن، هذه الغابة هي حياتك، ولكنّك فصلت نفسك عن هذه الغابة بمحيط خيالي وتصورات، فعلى هذا فالبحث عن الغابة لا معنى له والوصول إليها لا معنى له، ففي مكانك ومحلّ وجودك أيضاً هناك غابة وجنّة واللازم فقط رفع الحصار لكي ترى الجنّة، وأنت الآن في بحر الحياة وقد فصلت نفسك عنه بكوزة من التفكّرات والخيالات، وهذه الكوزة أو القنينة لا تدعك تنظر إلى المحيط وتتصل به، وأمّا ما تقوله من أنّ التفكير في الغابة والجنّة سوف يكون باعثاً ودافعاً على التخلّص والخروج من السجن، فهذا أيضاً غير صحيح والموضوع بالعكس تماماً، فلا يعود التفكّر في الغابة والجنّة عليك سوى بالحسرة والآمال العريضة، وفي هذه الآمال يكمن تضادّ أساسي ومدمّر وهو التضادّ بين السجن والغابة، ونحن وقعنا أسير هذا التضادّ وأتلفنا جميع طاقاتنا في هذا التضادّ، في حين لو أنّنا أخرجنا تصوّر الغابة من أذهاننا فأوّل نتيجة تخرج من الذهن هو التضادّ وعدم هدر الطاقات وإتلافها، فالذهن الذي لا يكون في تضادّ يكون في كيفية هادئة وبدون تشويش وبدون خوف، وسوف يرى كلّ شيء بوضوح تامّ.

مضافاً إلى ذلك فإنّ النظر إلى الغابة سوف يمنع الذهن من التفكير في وجوده داخل السجن ويتعرّف على خصوصياته فدائماً نصف الذهن هنا ونصفه هناك، ومضافاً إلى جميع هذه الأُمور فإنّ الغابة التي تتصوّرها في ذهنك أي تبحث عنها في ذهنك ما هي إلّا غابة من سراب ومصنوعة من الخيال، وأساساً فإنّ لها ماهية السجن، غاية الأمر أنّ إسمها غابة أو جنّة أو شيء آخر فالسجن الذي نحن فيه هو تصوّر الحقارة مثلاً، فالغابة التي أبحث عنها أيضاً هو تصوّر التشخّص والكرامة، وهذا التصوّر أو ردّ الفعل هو نتيجة تصوّر الحقارة وأساساً له نفس الماهية غاية الأمر أنّ لي تصوّر متفاوت عنها، وطبعاً أنّ للكرامة وأمثالها شيء وكيفية وراء الذهن وتصوراته الفكرية ولكنّي لا أعرفها، لأنّي أعرف الكرامة التي تصوّرها ذهني القالبي، وفي الوقت الذي أستطيع أن أتصور وأُدرك الكيفية وراء هذه التصوّرات عندما يكون ذهني فارغاً من مجموعة المحتويات الفكرية، يعني تصوّر السجن وكذلك تصوّر الغابة أو تصوّر الحقارة وتصوّر الكرامة.

وينبغي الإلتفات إلى أن تفريغ الذهن من محتوياته لا يكون بمعنى تفريغه من العلوم الواقعية والمعارف الحقيقية التي هي وظيفة الذهن الحقيقية.

سؤال: كيف يمكن أن نحتفظ بمقدار من محتويات الذهن وهي العلوم الواقعية ونفرّغه من محتوياته الوهمية التي تشكّل الأنا، يعني أنّه كيف يمكن تفكيك وتصفية هذه الأُمور؟

الجواب: عندما ينظر الذهن إلى جميع قضايا الحياة بدون تعبير وتفسير شخصي، فإنّ هذه التصفية وعملية الفرز ستتحقّق تلقائياً.

سؤال: أنا أيضاً لديّ سؤال، وهو أوّلاً أنّه بعد زوال الأنا فما يبقى من

المعنوية الذاتية لدى الإنسان، هل يقبل الرشد والتكامل أم لا؟ وهل أنّ رشد ذلك الشيء الواقعي يكون في إختياري وعلى وعي من الإنسان نفسه أو أنّه يتكامل تلقائياً؟ وثانياً: هل أنّ ماهية المعنوية الذاتية للإنسان لها قاسم مشترك بين جميع الأفراد، أو أنّ ماهية كلّ إنسان تختلف عن الشخص الآخر؟

الجواب: إنّ كلا هذين السؤالين غير نافعين ومنهما لا نستفيد منه في بحثنا، فعليك أنت أن تسعى إلى إزالة الأنا ثمّ إذا كانت هناك معنوية ذاتية قابلة للرشد والكمال فحاول أن تنمّيها، ولو كانت تتكامل تلقائياً ومن دون إرادتك وإختيارك فماذا تصنع أنت حيال ذلك؟ وإن كان الرشد والتكامل جزءً منها ومن ذاتياتها فسواءً أردت أو لم ترد فسوف تتكامل بذاتها وإذا لم تكن قابلة للرشد والتكامل، فماذا تستطيع أن تفعله؟ فسؤالك مثل ما لو أنّنا كنّا جالسين وأرجلنا مشدودة ونتباحث فتقول أنت لو تخلّصت رجلاي من القيد لأمكنني أن أركض بسرعة خمسين كيلومتر في الساعة، وأنا أقول كلّا إنّا لا نستطيع المشي أو الركض حتّى بسرعة عشر كيلومترات، هذه الأبحاث والإدّعاءا كلّها واهية وفارغة، فما دامت أقدامنا مقيّدة، فنحن نبحث عن موضوع خيالي، وإذا فتحت أقدامنا وتخلّصت من القيد فلا نحتاج إلى البحث والإدّعاء لأنّه سوف نسعى لإثبات هذه الأُمور بالتجربة، وفعلاً أنا وأنت أسرى هذه الظاهرة الغريبة إذاً فتعال لنقطع حاكمية هذه الظاهرة على وجودنا ونعيش مع أصالتنا الحقيقية، فعندما نصل إلى أصالتنا سوف نرى أنّها تقبل التكامل أم لا؟ وهل أنّ تكاملها في إختيارنا أم لا؟ وفعلاً ما هو هدفك من معرفة الأُمور التي لم تحدث فعلاً؟

السؤال الثاني أيضاً غير مفيد فلو كانت أصالتنا وماهيتنا مشتركة، فماذا

تستفيد من ذلك، وإذا كانت غير مشتركة فكذلك، وأساساً ما هو هدفنا من كيفية أصالة الآخرين ومعنوياتهم؟ وعلى كلّ حال إذا كنت تفكّر أنّه من المفيد حلّ هذه المسائل فإنّ العارف المولوي يجيب بوضوح عن هذه المسألة في أشعاره العرفانية والتي تتضمّن محتوياتها إشارة إلى الوحدة في المجال المعنوي للإنسان، أو بعبارة أصحّ أنّها تحكي عن الوحدة الناشئة من العدم وزوال الألوان والتعيّنات.

سؤال: هل أنّ معرفة الآخرين تساعد على معرفة أنفسنا؟

الجواب: أوّلاً مع وجود الهوية الفكرية فإنّ معرفة الآخرين غير ممكنة؟ لأنّنا نعرف الآخرين عن طريق الهوية الفكرية وبوسيلة الأنا.

ثانياً: إنّ معرفة الآخرين لا ضرورة لها كما سنرى لاحقاً، لعلّنا لو طرحنا هذا السؤال بصورة أُخرى، كأن نقول (ماذا ينفعنا الإصرار على معرفة الآخرين) كان أنفع.

وبنظري أنّ السبب في رغبتنا وإصرارنا على معرفة الآخرين هو أوّلاً الخوف، فنحن نخاف بشكل عجيب أحدنا من الآخر وكلّ منّا يمثّل عامل الخوف والخطر للآخر حيث نستطيع أن نهدّد هوية الآخر ونعرّضها للخطر بواسطة الكلمات والسلوكيات وحتّى بواسطة السكوت ومع الإلتفات إلى أنّ هوية كلّ منّا تمثّل أعزّ الأُمور لنا وحياتنا النفسية مرتبطة بها، فلذلك يمكن إدراك الخوف الذي نعيشه من الآخر، وطبعاً هناك علّتان أساسيتان إلى هذا الخوف الخفي الذي يخفى حتّى علينا، العلّة الأُولى أنّنا نرى أنّ الخوف شيئاً موهناً وسلبياً وحقيراً وثانياً أنّنا نتصوّر أنّه لو تمكّن الآخرون من أن يطّلعوا على واقعنا وخوفنا فإنّنا سوف نتعرّض أكثر إلى الضربات المحتملة منهم، فعلى هذا نحاول دائماً أن نعيش بأقنعة مزيّفة من الشجاعة

وعدم الخوف على وجوهنا ونتعامل مع الآخرين بخشونة ونتظاهر بقوّة الشخصية، ونسعى إلى توجيه الضربة إلى الآخر قبل أن توجّه الضربة إلينا وغير ذلك من الأفعال التي تكون بدافع من هذا الخوف الخفي.

وأحد الطرق للمصونية من الضربات وأذى الآخرين هو معرفتهم، فأنا أتصوّر أنّني إذا عرفتك بصورة أفضل يعني عرفت مصدر الخطر بشكل أفضل، فسوف أستطيع أن أُحصّن نفسي من هذا الخطر، وسوف أستطيع بصورة أفضل أن أعيش معه، فأنا أسعى إلى أن أتعرّف على نقاط ضعفك وسلبياتك حتّى أتمكّن من أن أُوجّه الضربات لك في الوقت المناسب لك، وكذلك أتعرّف على نقاط قوّتك حتّى أُجهّز نفسي لمقابلتها وأستعدّ لأن أكون بشكل يجهض ضربات الطرف الآخر.

وبنظري أنّ أهم سبب لرغبتنا من معرفة الآخرين هو الخوف منهم، والسبب الآخر هو الرغبة في الهرب من الذات، فأنا بسبب وجود التضادّ في نفسي والضعف والتزلزل والحقارة أسعى لأن أكون في غفلة عنها وأغمض عيني عنها وأنظر إليك، وحتّى بعد أن أتّجه إلى نفسي لمعرفتها فإنّ الإنسان يسعى إلى معرفة الآخرين أكثر من معرفته لنفسه، وطبعاً هذا الأمر يكون بصورة لا شعورية، وهذا أيضاً من مكائد الفكر ليبقي الإنسان بعيداً عن ذاته وأصالته، فأنا أتصوّر أنّني بمعرفتي لنفسك فإنّني قد عرفت نفسي.

أمّا التوضيح الذي يجب أن نذكره في هذا الصدد وهو أنّه تعالوا لنغيّر من الرغبة والدافع إلى معرفة الآخرين ونستبدلها بشيء آخر يمكن أن يكون ذا فائدة مهمّة لنا، فنحن مع وجود الظاهرة الأجنبية فينا نسعى إلى القفز من هنا وهناك من أجل أن لا نرى ضعفنا النفسي، فمن جهة أن ذهننا يرى جيّداً هذه الزاوية، ولكنّ المصلحة تقتضي أن نغلق أبصارنا ولا نظر

إليها، يعني في آخر تحليل نفسي يجب القول أنّنا نعرف جيّداً أنّ شخصياتنا متزلزلة وأنّنا أسرى التضادّ الداخلي وأنواع الخوف والشعور السلبي، ولكن هذا الضعف وهذا الشعور السلبي لا نراه في الآخرين، لأنّنا أوّلاً بعيدون عن الآخرين وقريبون من أنفسنا، فأنا أُدرك المسائل التي أعيشها وألمسها جيّداً، ولكن مسائلك الشخصية لا أُدركها، ثانياً: نحن بواسطة القناع الذي لبسناه على وجوهنا وأنواع الرياء والتظاهر نظهر أنفسنا للآخرين بشكل آخر، فعلى هذا فإنّ كلّ واحد منّا يتصوّر أنّ الآخرين يصنعون كما يصنع هو، فأنا على رغم من تزلزل نفسي والضعف الداخلي أسعى لأن أُظهر نفسي هادئاً ومتزناً أمامك، وأنّ حياتي مقترنة مع السعادة والرضا الكامل، ومن أجل أن أُغطّي على الخوف والحقارة ألبس قناع الشجاعة والكرامة والتشخّص أمامك ولا أدعك تشعر ما في داخلي من الألم والخوف، وبالنتيجة أنّك سوف لا ترى حقارتي مع أنّك ترى حقارتك، فأنت تشعر وتلمس نقصك وضعفك وحسراتك ولكنّك تتصوّر بأنّني أعيش في هدوء وإستقرار وسكينة، فحالنا مثل حال جنديين وقفا أمام الآخر، ولكن ببنادق فارغة وكلّ واحد منهما يتصوّر أنّ بندقية الآخر مليئة فيخاف منه.

ونتيجة هذه الرابطة وهذه النظرة هو أنّنا نتصوّر أنفسنا في مقابل الآخر ضعفاء ونعيش في زيف وتزلزل وأنّ الطرف الآخر غول وقوي ومقتدر ونتصوّر دائماً أنّ الآخرين مقتدرين، ولسنا كذلك، وأنّ الآخرين يعيشون في راحة وهدوء وسكينة، ونحن في ألم واضطراب، ومن الواضح أنّ مثل هذا التصوّر وهذه النظرة سوف تولّد نيتجة سلبية ووخيمة جدّاً، فعندما أتصوّر أنّني ضعيف وأنت قوي، فمن البديهي أنّني أخاف منك وأشعر في مقابلك بالحقارة، وكذلك أشعر بالحسد لك والتنفّر منك ومئات المسائل

الأُخرى، وبعد ذلك ومن أجل إزالة هذه الأُمور أسعى على القفز عليها وعدم رؤيتها وأُضلّل نفسي وأعيش في حالة التيه.

في حين أنّني أنا وأنت كالجنديان وقفا في حالة حرب ومواجهة، فلابدّ أن ندرك هذه الحقيقة أنّ الآخر يعاني مثل ما نعاني وحاله يشابه حالي، وأنّه أيضاً يُظهر القدرة مثل ما أُظهر أنا، وبذلك سوف تتغيّر حالتنا ونظرتنا، وسوف لا أنظر إليك بعنوان أنّك رقيب خطير ومؤذي وسوف لا تكون فيّ حالة الخوف والحقارة أو التظاهر بالشجاعة والنخوة والرابطة، والنتيجة المتفرّعة من الخوف والحقارة والتنفّر سوف تزول بشكل نهائي وسوف تحلّ محلّها حالة متفاوتة ومختلفة تماماً مع تلك الحالة، ففي هذه الحالة يرى الشخص الآخرين بعين الأُخوّة والمحبّة لا بنظرة الغول الخطر، وإدراك هذه الحقيقة، وهي أنّ الآخرين، لهم وضع أفضل من وضعنا سوف يريحنا نفسياً وسوف يكون إرتباطنا معهم أكثر سلامة وأصحّ، فالإنسان عندما يشعر براحة وعدم وجود الخطر من الآخرين فإنّه سوف يعود إلى نفسه ويجد الفرصة السانحة للتوجّه إلى الذات والبحث في أعماقها والتعرّف عليها أكثر، ولكن في الحال الحاضر نحن نخاف من الآخرين إلى درجة أنّنا لا نجد لحظة واحدة من الوقت إلى التوجّه إلى الذات والخلوة بها لنرى ماذا نحن؟ وكيف هي حياتنا؟ فذهننا بإستمرار يخاف الآخرين وكيفية الحياة معهم فإذا نظرنا جيّداً إلى حياتنا وهذه التصورات الفكرية لرأينا أنّنا من الصباح إلى الليل في حالة بحث وجدل وحرب مع الآخرين في الذهن، ونحن قلقون بإستمرار من قلق وهمي منهم ونفكّر فيهم دائماً، ونعيش في حالة مقايسة ومنافسة مستمرّة معهم وفي حالة التخطيط ضدّهم، في حين أنّ الإنسان لو أزال عنوان الخطر عن الآخرين وأنّ الآخرين يشكّلون خطراً

عليه، فسوف يعود إلى نفسه ويتعرّف عليها (نرجو الإلتفات إلى أنّ العودة إلى الذات يختلف عن العودة إلى الأنا الفكرية).

سؤال: ما هو دور تعبير الرؤيا في معرفة النفس فكما تعلمون أنّ أحد أبعاد وجود الإنسان في علم النفس والطب النفساني هو الرؤيا حيث يهتّمون بتعبير ومعرفة معنى الرؤيا كثيراً فما هو نظركم في هذا المجال؟

الجواب: إن ما يقال عن عالم اللّا شعور وأنّه هو مصدر الاحلام هو الذي نتحدّث عنه هو تلك الظاهرة الموجودة في دائرة الفكر، ولو دقّقنا النظر جيّداً لرأينا أنّه لا يوجد في دائرة الهوية الفكرية شيء باسم عالم اللّاشعور، أليس خالق الهوية الفكرية هو الفكر؟ ففي هذه الصورة كيف يمكننا القول بأنّ الفكر خلق هذه الظاهرة؟ وفي نفس الوقت يجهل قسماً منها، فكلّ شيء في دائرة الفكر هو في دائرة الشعور أيضاً، فهذا العالم اللّاشعوري لا يخرج عن دائرة الفكر حتّى يقال أنّ الفكر جاهل وغير مطّلع على هذا العالم، فهذا العالم والفكر شيء واحد لا شيئان، إذاً فموضوع عالم اللّا شعور يجب النظر إليه بأنّ الفكر خلق ظاهرة وبعض عناصرها أو آثارها وعوارضها وعناصرها المتحصّلة قد تكون متضادّة وغير منسجمة مع القسم الآخر، وعالم اللّا شعور عبارة عن إغماض الفكر عينه عن رؤية هذه التناقضات وموارد عدم الإنسجام، وبعبارة أُخرى إنّ عالم اللّا شعور هو محصّلة التضادّ، فالفكر من أجل أن يتسنّى له الإحتفاظ بالهوية الفكرية فإنّه يغمض عينه عن التناقضات التي تقع في بناء هذه الظاهرة ويتظاهر بعدم الشعور بها، ونحن نسمّيها عالم اللّا شعور، فيمكن القول أنّه عدم الشعور العمدي للفكر.

والآن لنرى ما هو إرتباط الرؤيا بعالم اللّا شعور، ففي مورد الرؤيا كما قلنا في عالم اللّا شعور يجب أن نقول بوجود نوعين من الرؤيا: أحدهما:

الرؤيا والأحلام التي تنبع من وجود الإنسان اللّاشعوري، والأُخرى: الأحلام التي تنبع من عالم اللّا شعور في دائرة الفكر وترتبط بالهوية الفكرية، وما أعلمه لحدّ الآن هو أنّ الطب النفساني يهتمّ بهذا القسم الثاني من أنواع الرؤيا، يقولون أنّ عالم اللّا شعور بسبب وجود الكبت والموانع الشديدة لا تتسنّى له الفرصة في إظهار نفسه ولكنّه يخرج في عالم المنام إلى الذهن والقسم الواعي من الذهن ويتجلّى هناك على شكل رؤيا حيث تخفّ عوامل الكبت والمنع في حالة النوم، والرؤيا هي ثمرة هذه العوامل، إذاً فالرؤيا في الحقيقة هي نوع من التجلّي الرمزي لعالم اللّاشعور، فعلى هذا إذا أدرك الإنسان معنى هذه الرموز التي يرسلها عالم اللّاشعور، ففي الواقع قد يتعرّف حينها على ما يدور في عالمه اللّاشعوري، فالرؤيا والأحلام هي علائم وإشارات ترشد الشخص إلى ضميره الباطن والمظلم.

والآن لنرى ما مقدار صحّة هذه المطالب، فبنظري أنّه يمكن القول بأنّ الرؤيا أساساً تتّخذ رموز، تحكي عمّا في الباطن اللّاشعوري، وهذا صحيح، وكذلك صحيح أيضاً أنّ الإنسان يستطيع بواسطة تعبير الرؤيا وإدراك معنى هذه الأحلام أن يكتشف ما يختلج في ضميره الباطني ويتعرّف عليه، ولكن لنرى ما فائدة هذا العمل؟ لأنّه يمكن أن يكون الموضوع صحيحاً ولكن غير مفيد.

هل أنّ الهدف والمقصود النهائي من التفسير والتعبير يتحقق من خلال البحث الحرّ، أو تعبير الرؤيا والهيپنوتيز وأمثال ذلك؟ من الواضح أنّ جميع هذه الأُمور هي وسيلة لا هدف، والهدف النهائي من جميع هذه الأعمال هو التعرّف على النفس، والمعرفة هذه يجب أن تكون بكيفيّة متزامنة مع إضمحلال النفس، وفي غير هذه الصورة فإنّ معرفة النفس لا تتحصّل

بمعناها الواقعي، والمثال الذي ذكرناه سابقاً من الأشباح وقلنا أنّ الذهن بسبب وجود النقص فيه يتصوّر أنّ هناك أشباحاً، وفي الوقت الذي أتمكّن أن أقول أنّ ذهني حصل على المعرفة هو عندما يستطيع أن يدرك إشتباهه وخطأه ولا يتصوّر وجود الأشباح، وإلّا فكلّ إستدلال وكلّ معرفة حتّى لو كانت منطقية وعلميّة فهي غير مفيدة في النهاية.

والآن لنرى هل أنّ تعبير الرؤيا حتّى لو كان دقيقاً وصحيحاً يوصلنا إلى النتيجة النهائية أي يؤدّي إلى إضمحلال وتلاشي الأنا من الذهن؟ لابدّ من الإلتفات إلى هذه النقطة وهي أنّنا نريد بوسيلة تعبير الرؤيا أن نتعرّف على ضميرنا اللّاشعوري يعني أن نتعرّف على هذه الظاهرة الفكرية في ذهننا فأوّلاً أنّ ذهني يحتفظ بصورة عمدية الظاهرة في الظلام وثانياً إنّ نفس هذا الذهن هو السبب في حفظها وتداومها وفي هذه الصورة ألّا يكون عملي بإسم معرفة النفس خداع لنفسي فإنّ عالم اللّا شعور فيّ ليس شيئاً ورد إلى أذهاننا مثلاً في النوم وأخفى نفسه في طيّات الذهن إنّ اللّاشعوري هذا في الحقيقة هو مجموعة تجارب سلبية لا تنسجم مع بناء الهوية الفكرية وقد أغلق الفكر عينه عن رؤيتها عمداً، إذاً فهل يصحّ أن نقول بأنّ الفكر يتعمّد إخفاء شيء في الظلام وأيضاً يريد أن يخرجه من حالة الإبهام والظلام في نفس الوقت، فأنت تستطيع مثلاً أن تفسّر أحلامي بشكل دقيق ولكن ما هي النتيجة النهائية لهذا العمل؟ النتيجة هي أنّني أقوم بالثناء عليك وتحسينك على تفسيرك الرؤيا ثمّ إطّلاعي على مقدار من المعاني الغير المنسجمة التي ترد إلى فكر الأكتيف، ونعلم أنّ فكر الأكتيف هو عين تداوم الأنا ومع ذلك أتصوّر أنّي عرفت نفسي.

سؤال: قد يريد عالم الوعي في الإنسان أن يتعرّف على العالم اللّاوعي

فيه.

الجواب: لا ينبغي أن نلفّ وندور في كلمات وألفاظ ونخدع أنفسنا بواسطتها، أليس أنّ كلّاً منهما يقع في دائرة الفكر؟ فكيفية التفكير في هذه الهوية أو الضمير (أعمّ من الضمير الواعي واللّا واعي) أساساً هو تصوّرات وأوهام ومن الواضح أنّ التصوّر لا يكون وسيلة للمعرفة، ولنفترض أنّ هناك شخص يعيش في حالة تعصّب وجهل، فمثل هذا الإنسان يفكّر أنّه أدرك بعض القضايا، ولكنّ الحقيقة الحاصلة للذهن هي حالة الجهل وليست بحقيقة حتّى لو تصوّر هذا الشخص أنّه أدرك الحقيقة فمثل هذه الحقيقة، هي عين الجهل وليست بحقيقة وصحيح أنّنا نفسّر أحلامنا بشكل دقيق وصحيح ولكنّ هي دقّة وصحّة في التفكّر الأكتيفي لا أنّها واقعاً كذلك، وأساساً تكون بوسيلة هذه الهوية الفكرية فهي الجهل بعينه، وكلّ إدراك ومعرفة يتمّ عن طريق هذه الوسيلة هو عين الجهل.

وبعبارة أُخرى أنّني عندما أقول لك (أنّني عرفت نفسي) يجب أن نسأل من أنفسنا ما هي هذه النفس التي عرفناها، وما هي الوسيلة التي بواسطتها تعرّفنا عليها، أليس أنّ كليهما شيء واحد، وهل أنّ الموضوع الذي وقع مورد المعرفة بعنوان الأنا هو شيء مختلف عن الفكر؟ من الواضح أنّ كليهما شيء واحد وفي هذه الصورة فهل يستطيع الفكر أن يتعرّف على نفسه وهل أنّ الفكر الذي وقع مورد المعرفة يختلف عن الفكر الذي يسعى للتعرّف، وهل أنّهما من سنخ واحد أو سنخان؟ يمكن أن تقول أنّ فكر (الباسيف) هو عنصر التعرّف، وفكر (الأكتيف) يعني الأنا هو موضوع المعرفة وفي هذه الصورة يكونان من سنخين متفاوتين، فعلى فرض أنّنا نقبل هذا الكلام ولكن بشرط أن يكون في العمل كذلك أيضاً يعني أنّنا نستعمل لمعرفة

النفس فكر الباسيف ولنرى عملاً هل نحن نعمل هكذا؟ والآن أُريد أنا أن أتعرّف على نفسي بوسيلة تفسير الأحلام أو بوسيلة التحليل النفسي أو أي طريق آخر؟ فإنّ معرفتي تتّخذ من الفكر وسيلة للعمل والتعرّف حتّى يتعرّف الفكر على حالة الأكتيف فيه ففي ذلك الوقت لا ينبغي أن تكون له ماهية الأنا يعني التفكير الأكتيف، وإلّا فإنّ المعرفة منتفية أساساً، والآن تعالوا لمدّة نصف ساعة أن نتعرّف على أنفسنا بواسطة التفكّر الباسيف.

سؤال: إذا إستطعنا لمدّة نصف ساعة أن نحتفظ بكيفية الباسيف في أذهاننا فإنّ معنى ذلك أنّ فكرنا لمدّة نصف ساعة ليست فيه كيفية الأكتيف، ومعنى ذلك أنّه قد فرغ في هذه المدّة من الأنا، فعلى هذا لا يوجد شيء يكون موضوعاً لفكر الباسيف.

الجواب: صحيح تماماً، وإدراك هذه الحقيقة يعني نهاية المسألة وبمثابة المصيدة التي تتورّط فيها الأنا وتنتهي، فنحن تقدّمنا إلى الأمام في معرفتنا لأنفسنا بحيث أنّنا علمنا أنّ كلّ حركة أكتيف للفكر هي بمثابة التلاعب للأنا، فالفكر الأكتيف لا يستطيع أن يعمل بشكل يعرف نفسه وإلّا فإنّه سوف يدخل في طريق مسدود، فقد تحصّل لدينا الآن أنّنا توصّلنا إلى معرفة أنّ ذهننا أدرك أنّ كلّ سعي للتعرّف على النفس بتفكّر الأكتيف يعني نفس تداوم هذه المسألة، ففي هذه الصورة سوف يتوقّف الفكر عن السعي ويهدأ وهذا الهدوء والتوقّف عن السعي والتفكير هو نهاية المسألة.

سؤال: أليس هذا العلم حصل لفكر الأكتيف؟

الجواب: كلّا، فإنّ فكر الأكتيف لا ينبغي أن نأخذه ونبالغ في أهميّته، ولا يصحّ أن ننسب جميع الإدراكات إلى الفكر الأكتيف، فالأفكار التي تحصل بواسطة فكر الأكتيف هي التي تكون للأنا فيها مصلحة، فعندما تقول

أنّ المثلّث ذو ثلاث أضلاع فإنّ الذهن لا يتدخّل في هذه الحقيقة التي أدركها الفكر ويقبلها من دون تدخّل الأنا.

سؤال: بنظري أنّ ما تقوله صحيح، ولكن عملاً نرى أنّ بعض الأشخاص لهم معرفة نفسية أكثر من الآخرين حتّى وإن كانت هذه المعرفة في دائرة الهوية الفكرية والتفكّر الأكتيف، فكيف يمكن توجيه هذا الموضوع؟

الجواب: إنّ الأشخاص الذين لهم إطّلاعات ومعلومات أكثر ويتحدّثون حول النفس بصورة أوضح فمعلوماتهم أكثر من الآخرين لا أنّ ذهنهم يرى الحقائق بصورة أوضح، فكما قلنا أنّ معرفة النفس تحصل للإنسان من خارج الذهن وليس من داخل الهوية الفكرية، فالذهن الذي وقع تحت إختيار الهوية الفكرية هو ذهن متجزّيء إلى مئات الأجزاء، والمعرفة الواقعية لابدّ أن تكون بذهن كامل وكلّي لا بذهن متجزّيء، لأنّ كلّ واحد من هذه الأجزاء يمثّل الأنا وتصوّراتها الخاصّة، وتكون عاملاً إلى التعرّف على بقيّة التصورات وهذا العمل عبث وخدعة.

سؤال: إنّ علماء النفس يرون أنّ الرؤيا للإنسان ضرورية ومفيدة، ما هو نظركم في هذا الموضوع؟

الجواب: كثير من النظريات والقوانين في المجتمعات الفعلية هي ضروريات لازمة ومفيدة للأشخاص غير السالمين، فالرؤيا للإنسان الفعلي يعني الإنسان الذي يعيش مع الهوية الفكرية هي ضرورة ناشئة من مرضه والإنسان ما دام يعيش مع هذه الظاهرة فإنّ إرتباطه مع الحياة إرتباط ناقص وغير كامل وتأتي الرؤيا لترمّم وترفع هذه النواقص، فعلى هذا يمكن القول أنّه ما دامت الهوية الفكرية موجودة فإنّ الرؤيا مفيدة وضرورية ولكنّ

الكلام في أنّ هذه الهوية الفكرية زائدة وغير أصيلة في وجود الإنسان، فلولا هذه الظاهرة لم تكن هناك رؤيا ولا تكون ضرورية للإنسان، الإنسان الذي يعيش بدون هوية فكرية يعيش حياة واضحة وصريحة وكاملة ولا يخفي شيئاً في ذهنه حتّى يراه في المنام.

ومرّة أُخرى نقول أنّه بعد إزالة الهوية الفكرية وخداع الذهن من النقاشات الوهمية فإنّه تحصل له كيفية يكون مستعدّاً لإستقبال أسرار وجود الإنسان، ففي هذه الحالة سوف يتلقّى الذهن سواءً في حالة اليقظة أو في المنام إشارات جديدة لا يمكن إدراكها في أدمغتنا الفعلية، وهذه الإشارات ليست لها كيفية الرؤيا ومختلفة مع هذه الأحلام التي نعرفها.

سؤال: متى يكون الفكر في حالة الباسيف ومتى يكون في حالة الأكتيف؟ وكيف يمكن التمييز بينهما؟

الجواب: عندما تفكّر في شيء وأساساً كلّ حركة للذهن توجّه إليها وانظر هل أنّ حركة ذهنك لها هذه الخصوصيات الكلية الثلاثة أم لا: هل أنّ ذهنك يتحرّك في الزمان ويستفيد من الماضي والمستقبل؟ (وينبغي الإلتفات أنّ موضوع بحثنا ليس الأُمور الفيزيكيّة) وثانياً هل أنّ الذهن يستفيد من الحافظة؟ وثالثاً هل أنّ حركة الذهن حركة جزئية أو أنّه يعمل بجميع وجوده الآن أنت تجلس هنا وفي ذهنك حتماً هناك موضوعات ومسائل تفكّر فيها فانظر إلى أفكارك هل تنبع من الحافظة؟ فلو كانت تنبع من الحافظة، فمعناه أنّها تنبع من الأنا؟ وهذا الموضوع يرتبط بالأنا؟ فمثلاً لو طلب منك شخص أن تسأله سؤالاً بشرط أن لا يكون هذا السؤال يدور في زمان معيّن، ولا يرتبط بالحافظة وليست له كيفية تجزيئية ومنفصلة فماذا يمكنك أن تسأله؟

سؤال: بنظري أنّ ذلك غير ممكن، فإنّ في هذه الصورة وفي هذه الحالة لا يطرأ على الذهن كلّ موضوع.

الجواب: صحيح، حينئذ لا تكون في الذهن أيّة مسألة، ولكن قل لي لماذا لا تكون مسألة في الذهن؟ (عدّة دقائق سكوت) الجواب واضح جدّاً لأنّه حينئذ لا تبقى مسألة في الذهن، ففي الحال الحاضر فكل مسألة تطرح في الذهن تنبع من الحافظة فالحافظة، هي مخزن المسائل والمواضيع الفكرية، فلو أنّنا قطعنا إرتباط الذهن مع الحافظة فمعنى ذلك أنّ إرتباط الذهن مع المسائل سوف ينقطع، وفي نفس الوقت سوف يكون الذهن بحالة مرآة صافية وشفّافة تنعكس فيها كلّ شيء بوضوح وكما هي واقعاً، وسبب الجهل والغموض والظلام في الذهن هو محتويات الحافظة فالحجاب والأشواك الذهنية هي محتويات الحافظة، أو نقول بعبارة أدقّ أنّ محتويات الحافظة هي عين الظلام والجهل، وبما أنّ هذا الحجاب له تدخّل مباشر في فعالية الذهن فلو أُزيل هذا الحجاب عن الذهن فإنّ الذهن يرتبط مع الحقائق بشكل مباشر، وعلى هذا لا تكون فيه أيّة مسألة جانبية.

وعليكم محاولة ذلك الآن وسوف ترون ما هو التغيير الذي يحصل في أذهانكم، ولكن لا تحاولوا أن تمنعوا تدخّل الحافظة في الذهن، بل ينبغي فقط أن ترون أنّه هل أنّ الحافظة هي تدخل إلى الذهن وحدها أم لا؟ وسوف ترون أنّه في طول الوقت الذي يتوجّه فيه الذهن إلى هذه المسألة فإنّ الذهن أيضاً سوف يفرغ من نقاشات الحافظة ومسائلها، ويحدث فيه تغيير عجيب كما لو زالت غدّة سرطانية من دماغ الإنسان، وسوف يعيش الذهن في هدوء عجيب، الهدوء الذي لم نلمسه ولم نجرّبه إطلاقاً وفي هذه التجربة سوف يزول الحصار والحدود عن الذهن ويجد الإنسان نفسه في حياة واسعة لا

حدود لها، وهذه هي نهاية المسألة.

أرجو أن نلتقي بعد عدّة أشهر ونجد أنّ ذهننا قد فرغ من القيل والقـال ونقاشات الحافظة وأصبح غير محتاج إلى كلّ كلام وبحث.

الفهرس

مقدّمة ٣
الفصل الأوّل / نوعٌ من التفكّر ٧
الفصل الثاني / (الأنا ظاهرة غريبة على الإنسان) ٢٩
الفصل الثالث / ماهيّة الأنا أو الهويّة الفكرية ٥١
الفصل الرابع / التّضاد ٦٩
الفصل الخامس / معرفة النفس ٨٩
الفصل السادس / بعض المسائل المتعلّقة بمعرفة النفس ١١٣
الفصل السابع / ملاحظات حول الحوار ١٣٧
الفصل الثامن / الحوار الأوّل ١٥١
الفصل التاسع / الحوار الثاني ١٦٩
الفصل العاشر / الحوار الثالث ١٩٥